شرح

العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية
المتوفى سنة ٧٢٨هـ

تأليف

معالي الشيخ
الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

طبعة مزيدة ومنقحة

دار العاصمة
للنشر والتوزيع

شرح
العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية
المتوفى سنة ٧٢٨هـ

تأليف

معالي الشيخ
الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى بإخراجه وأشرف على طبعه
مكتب التحقيق بدار العاصمة

طبعة مزيدة ومنقحة

دار العاصمة
للنشر والتوزيع

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الفوزان، صالح بن فوزان بن عبد الله
شرح العقيدة الوسطية/ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان ــ الرياض ١٤٢٥هـ
٢٨٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك: ٠ ـ ٨٩ ـ ٨٣٧ ـ ٩٩٦٠
١ ــ العقيدة الإسلامية أ ــ العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٢٥/٣١٨٨

رقم الإيداع: ١٤٢٥/٣١٨٨
ردمك: ٠ ـ ٨٩ ـ ٨٣٧ ـ ٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م

دار العاصمة
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمينَ. والصلاةُ وَالسَّلامُ على نبِّينا مُحمَّدٍ وعلى آلـهِ وصَحبهِ أجمعينَ.

وبعدُ:

فهذا شَرحٌ مختصرٌ على العقيدةِ الواسطيةِ لشيخِ الإسْلامِ ابنِ تيميةَ قـدْ قُمتُ بإعدادهِ منَ المَصادرِ التاليةِ:

١- الروضَة النديةُ شرحُ العقيدةِ الواسطيةِ للشيخِ زيد بن عبدالعزيزِ بن فيَّاض.

٢- التنبيهات السنيةُ على العقيدةِ الواسطيةِ للشيخِ عبدالعزيزِ بن نـاصرِ الرشيد.

٣- التنبيهات اللطيفةُ فيما احتوتْ عليهِ الواسطيةُ من المباحثِ المنيفةِ للشيخِ عبدالرحمن بن ناصر السعدي.

ونقلتُ أيضاً من فوائدَ علَّقتُها على نُسخَتي وقتَ الطلبِ.

٤- وفيما يتعلَّق بتفسيرِ الآياتِ نقلتُ من كُتبِ التفسيرِ كـ «فتح القدير» للإمامِ محمَّد بن عليٍّ الشوكاني. و«تفسير القرآن العظيم» للشيخ: إسماعيل ابن كثير.

وأسألُ اللهَ أنْ يَنفعَ بـهِ ويَجعلـهُ مؤدِّيـاً للمَطلـوبِ مـن تَوضيـحِ هَـذِهِ العقيدةِ العَظيمةِ. وأنْ يَغفرَ لي ما وقعَ مني مِن خطأ، ويُثيبَني على ما فيهِ من صوابٍ؛ إنَّهُ سميعٌ مجيبٌ.

وصلى الله على نبيِّنـا محمَّـد وآلـهِ وصحبِـهِ. والحمـدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

المؤلف

قَالَ المُصَنِّفُ:

بِسمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

الشرح:

ابتدأ المُصنِّفُ رحمهُ اللهُ كِتابَهُ بالبَسملةِ؛ اقتداءً بالكِتابِ العزيزِ حَيثُ جاءتِ البَسْملةُ في ابتداءِ كُلِّ سُورةٍ، ما عَدا سُورة (براءَة)؛ واقتداءً بالنَّبيِّ ﷺ حيثُ كانَ يبدأُ بِهَا في مُكاتَباتِهِ[1].

وقولُهُ: (بِسمِ اللهِ) الباءُ للاستعانَةِ، والاسمُ في اللغةِ: ما دلَّ عَلى مُسمَّى، وعندَ النَّحويينَ: ما دَلَّ على مَعنى في نَفسِهِ ولم يَقترنْ بِزمانٍ[2]. والجارُّ والمَجرورُ مُتعلقٌ بمحذوفٍ ينبغي أن يُقدَّر متأخِّراً؛ ليفيدَ الحصرَ.

و(الله): عَلمٌ على الذَّاتِ المُقَدَّسةِ، ومعناهُ: ذو الألوهيَّةِ والعُبوديَّةِ على خَلقِهِ أجمَعينَ. مُشتقٌ من أَلَهَ يأْلَهُ أُلُوهَةً بمعنى: عَبد يَعبُد عِبادةً. فاللهُ إلهٌ بمعنى: مَألوهٌ، أي: مَعبُودٌ.

و(الرَّحمن الرحيم) اسْمان كَريمانِ من أسمائِهِ الحُسْنى دَالأنِ على اتصافِهِ تَعالى بالرحمةِ على ما يَليقُ بِجلالِه. فـ (الرَّحمن): ذو الرَّحمةِ العَامَّةِ لجَميعِ المَخلُوقاتِ. و(الرَّحيم): ذو الرَّحمةِ الخاصَّةِ بالمُؤمنينَ[3]،

(١) انظر ما يتعلق بصيغ مكاتباته ﷺ «زاد المعاد» لابن القيم رحمه الله (٣/ ٦٨٨) و«الرحيق المختوم» للمباركفوري (٣٥٠).

(٢) «شرح ابن عقيل» (١/ ١٥) و«التعريفات» للجرجاني (٢٨) و«المعجم الوسيط» (١/ ٤٥٢).

(٣) انظر أقوال العلماء في الفرق بين هذين الاسمين في «النهج الأسمى في شرح =

....

كما قَال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ [سورة الأحزاب: ٤٣].[١]

= أسماء الله الحسنى» محمد الحمود (١/ ٧٠).

الحَمدُ للهِ الَّذي أرسَلَ رَسولَهُ بِالهُدى وَدِينِ الحَقِّ؛ لِيُظهِرَهُ على الدِّين كُلِّهِ، وَكَفَى باللهِ شَهيداً.

وَأشهَدُ أَنْ لاَ إله إلاَّ اللهُ وَحدَهُ لاَ شَريكَ لَهُ إقراراً بِه وَتَوحِيداً، وَأشهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبدُهُ وَرَسُولُه صَلَّى الله عَلَيهِ وَعَلَى آلهِ وَسَلَّم تَسلِيماً مَزِيداً.

الشرح:

افتتحَ هذهِ الرِسالةَ الجَليلةَ بهذِهِ الخطبةِ المُشتمِلَةِ عَلى حَمدِ اللهِ والشَّهادتينِ والصَّلاةِ والسَّلامِ على رَسولِهِ؛ تأسّياً بالرَّسولِ ﷺ في أحاديثِهِ وخُطَبِهِ، وعَملاً بقولهِ ﷺ: «**كُلُّ أمرٍ ذي بَالٍ لا يُبْدأ فيهِ بحَمْدِ اللهِ فَهُو أقْطعُ**» رواهُ أبو دَاودَ وغيرُه[1]. ويُروَى: «ببسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرحيمِ»[2].

ومَعنى أقْطَعَ: أيْ: مَعدُوم البَركةِ، ويُجمَعُ بينَ الرِّوايَتَينِ بأنَّ الابتداءَ ببسمِ اللهِ حَقيقيٌّ، وبالحَمدُ للهِ نسبيٌّ إضافِيٌّ.

قولُه: (الحَمدُ للهِ)الألفُ واللامُ للاستغراقِ[3]، أي: جَميع المَحامدِ

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٤٠) والنَّسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٩٤) وابن الأعرابي (٣٦٢) وغيرهم.

(٢) أخرجه عبدالقادر الرّهاوي في «الأربعين»، والخطيب البغدادي في «تاريخه»، والحديث ضعيف جداً. انظر «الإرواء» الحديث رقم (١).

(٣) الاستغراق: يفيد الشمول والعموم، لاستغراق الأشياء التي يتناولها اللفظ، وهو غرض من أغراض «ال» الجنسية. انظر «معجم المصطلحات النَّحوية والصرفية» محمد اللبدي (١٦٥) وانظر «مجموع الفتاوى» (١/ ١٠٢).

....

للهِ مُلْكاً واستِحْقاقاً، والحمدُ لغةً: الثناءُ بالصِّفاتِ الجَميلةِ والأفْعَال الحَسَنَةِ. وعُرفاً: فِعلٌ يُنبِئُ عن تَعظيمِ المُنْعمِ بِسببِ كَونِهِ مُنْعماً، وهُوَ ضِدُّ الذَّمِّ[1].

(للهِ) تقدَّم الكلامُ على لَفظِ الجَلالةِ.

(الَّذي أرسَلَ رَسولَهُ) اللهُ سُبحَانَهُ يُحمَدُ عَلى نِعَمهِ التي لا تُحْصَى ومِنْ أجَلِّ هَذِهِ النِّعَمِ أنْ(أرسَلَ) أيْ: بَعَثَ(رَسُوله) مُحمداً ﷺ.

والرَّسولُ لغةً: مَنْ بُعِثَ برسالةٍ.

وشَرعاً: هُو إنسَانٌ ذَكرٌ أُوحِيَ إليهِ بِشَرعٍ وَأُمِرَ بتبليغِهِ. (بالهُدى) أيْ: العِلْم النَّافِعِ، وهُوَ كُلُّ ما جَاءَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ من الإخْبَاراتِ الصَّادِقةِ والأوَامِرِ والنَّواهي وسَائِرِ الشَّرائعِ النَّافِعَةِ.

والهُدى نَوْعان[2]:

النَّوعُ الأوَّلُ: هُدى بِمعنى الدّلالةِ والبَيانِ، ومنهُ قولُهُ تَعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]، وهذا يَقومُ بهِ

---

(١) يقول ابن تيمية (٦/ ٦٩) طبعة مروان كجك: [والحمد نوعان: حمد على إحسانه إلى عباده وهو من الشكر، وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله، وهذا الحمد لا يكون إلا على ما هو في نفسه مستحق للحمد...].

(٢) انظر: «تهذيب مدارج السالكين» لابن القيم (٣١) تهذيب عبدالمنعم صالح العلي و«مفردات ألفاظ القرآن» للأصفهاني (٨٣٥) وما بعدها، تحقيق صفوان عدنان.

....

الرَّسولُ ﷺ، كَمَا في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

النَّوعُ الثَّانِي: هُدى بمَعنى التَّوفيقِ والإلْهامِ، وهَذا هُوَ المَنْفيُّ عَنْ الرَّسولِ ﷺ ولا يَقْدِرُ عَليهِ إلاَّ اللهُ تَعالى، كَما في قَولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]. (وَدِينِ الحَقِّ) هُو العَملُ الصَّالِحُ، والدِّينُ يُطلَقُ ويُرادُ بهِ الجَزاءُ، كَقولِهِ تَعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، ويُطلَقُ ويُرادُ بهِ الخُضُوعُ والانقيادُ[1]، وإضافةُ الدِّينِ إلى الحَقِّ مِنْ إضَافةِ المَوْصُوفِ إلى صِفَتهِ، أيْ: الدِّينُ الحَقُّ، والحَقُّ: مَصْدَرُ حقَّ يَحِقُّ، بمعنى: ثَبتَ ووجَبَ، وضِدُّهُ البَاطِلُ.

(لِيُظهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّهِ) أيْ: لِيُعلِيَهُ عَلى جَميعِ الأدْيَانِ بالحُجَّةِ والبَيانِ والجهادِ حَتَّى يَظهرَ عَلى مُخالفيهِ مِنْ أهْلِ الأرْضِ[2]، مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ مِلِّيِّينَ ومُشْركينَ، وقَدْ وَقَعَ ذلكَ، فإنَّ المُسلمينَ جَاهَدُوا في اللهِ حَقَّ جِهادِهِ حتَّى اتَّسعَتْ رقعةُ البِلادِ الإسْلاميةِ، وانتَشَرَ هَذا الدِّينُ في المَشارِقِ والمَغَارِبِ.

---

(١) ولكلمة الدين معان أُخر في اللغة، مثل (العادة، والطاعة، والحكم، والقهر،...) وقد تتبعَ تطور معانيها تاريخياً من الجاهلية حتى الإسلام الأستاذ محمود محمد شاكر في كتابه «أباطيل وأسمار» (٥٢٠، ٥٣٤).

(٢) كما قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

....

(وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً) أيْ: شَاهداً أنَّهُ رَسولُهُ، ومُطَّلعٌ عَلى جَميعِ أفعالِهِ، وناصِرُهُ عَلى أعدائِهِ، وَفي ذَلكَ دلالةٌ قاطِعةٌ عَلى صِدقِ هَذا الرَّسُولِ، إذْ لو كَانَ مُفْترياً لعاجَلَهُ اللهُ بالعُقوبةِ، كَما قَالَ تَعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

(وَأشهَدُ أن لاَ إله إلاَّ الله) أيْ: أُقِرُّ واعْتَرِفُ أنْ لا مَعبودَ بحقٍّ إلا اللهُ.

(وَحدَهُ لاَ شَريكَ لَهُ) في هَاتينِ الكَلِمتينِ تأكيدٌ لِمَا تضمَّنَتْهُ شَهادَةُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ مِنَ النَّفيِ والإثْباتِ، نَفيِ الإلهيةِ عَمَّا سِوى اللهِ وإثباتِهَا للهِ، فقولُه:(وَحدَهُ) تأكيدٌ للإثباتِ، وقولُه:(لاَ شَريكَ لَهُ) تأكيدٌ للنَّفيِ.

وقولُهُ:(إقراراً به وَتَوحِيداً) مَصْدرانِ مُؤكِّدانِ لمَعنى الجملةِ السَّابقةِ. (وَأشهَدُ أن لاَ إله إلاَّ الله إلخ) أيْ: إقْراراً باللسَانِ، وتَوحيداً، أيْ: إخْلاصاً في كُلِّ عِبادةٍ قَوْلِيَّةٍ أوْ فِعْلِيَّةٍ أوْ اعْتِقاديَّةٍ.

وقولُهُ:(وَأشهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبدُهُ وَرَسُولُه) أيْ: أُقِرُّ بلساني وأعْتَقِد بقَلبي أنَّ اللهَ أرْسَلَ عَبْدهُ مُحمداً ﷺ إلى النَّاسِ كَافةً؛ لأنَّ الشَّهادَةَ لِهَذا الرَّسُولِ بالرِّسالَةِ مَقرونةٌ بالشَّهادةِ للهِ بالتَّوحيدِ لا تَكْفي إحْدَاهُما عَنِ الأُخْرى.

وفي قولِهِ:(عَبدُهُ وَرَسُولُه) رَدٌّ على أهلِ الإفْراطِ والتَّفريطِ في حَقِّ الرَّسُولِ ﷺ، فأهْلُ الإفْراطِ غَلَوا في حَقِّهِ ورَفَعُوهُ فوقَ مَنزِلةِ العُبوديَّةِ،

....

وأهلُ التَّفْريطِ قد نَبَذُوا ما جَاءَ بِهِ وراءَ ظُهورِهم، كأنَّهُ غَيرُ رَسولٍ، فشَهادةُ أنَّهُ عَبدُاللهِ تَنْفي الغلوَّ فيهِ ورفعَهُ فوقَ مَنزلَتِهِ، وشهَادةُ أنَّهُ رَسولُ اللهِ تَقْتَضي: الإيمانَ بهِ وطاعتَهُ فيما أمَرَ، وتَصديقَهُ فيمَا أخْبَرَ، واجتنَابَ ما نَهى عَنهُ، واتِّبَاعَهُ فيمَا شَرَعَ.

وقولُهُ: (صَلَّى الله عَلَيهِ)الصَّلاةُ لغةً: الدُّعَاءُ، وأصَحُّ ما قِيلَ في مَعنى الصَّلاةِ مِنَ اللهِ عَلى الرَّسُولِ: ما ذَكرَهُ البُخاريُّ في «صَحِيحِه» عَنْ أبي العَالِيةِ قَالَ[١]: صَلاةُ اللهِ عَلى رَسُولِهِ ثَناؤُهُ عَليهِ في المَلأ الأعْلَى. (وعَلى آله)آل الشَّخْصِ: مَنْ يَنْتَمونَ إليهِ بصلةٍ وثيقةٍ مِن قَرابةٍ ونحوها. وأحسنُ ما قِيلَ في المُرادِ بآل الرَّسُول ﷺ هُنا: أنَّهُم أتباعهُ على دينِهِ[٢]. (وأصحابه) جَمعُ صَاحِب، مِنْ عَطْفِ[٣] الخَاصِّ عَلى العَامِّ. والصَّحابيُّ: هُو مَنْ لَقِيَ النَّبيَّ ﷺ مؤمِناً بِهِ وماتَ عَلى ذَلكَ[٤].

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ٦٧٦) كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّ الله وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٥٦] بلفظ: (صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء) وانظر «جلاء الأفهام» (٢٥٣) دار ابن الجوزي.

(٢) ذكر ابن القيِّم أربعة أقوال في معنى (آل)، انظر «جلاء الأفهام» لابن القيم (٧٣٧) دار ابن الجوزي و«تدريب الراوي» (١/ ٥٦) تحقيق الفاريابي و«أحكام القرآن» للبيهقي (٨٥).

(٣) انظر أنواع هذا العطف في «جلاء الأفهام» (٣٣٨).

(٤) انظر «تدريب الراوي» (٦٦٧) الفاريابي، وكتاب «تحقيق منيف الرتبة لمن ثبت له شريف الصحبة» للعلائي (ص٣٠) دار العاصمة.

....

(وَسَلَّم تَسليماً مَزِيداً) السَّلامُ: بمعنى التَّحيةِ أو السَّلامةِ مِـن النَّقـائِصِ والرَّذَائِلِ، وقولُهُ: (مَزِيداً) اسمُ مَفعولٍ مِنَ الزِّيادةِ وهيَ النُّمـوُّ، وجمَـعَ بيـنَ الصَّلاةِ والسَّلامِ؛ امتثالاً لِقَولِهِ تَعَـالى: ﴿يـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ صَلُّـواْ عَلَيْـهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٥٦].

أمَّا بَعدُ؛ فَهذا اعتِقادُ الفِرقَةِ النَّاجيَةِ المَنصورةِ إلى قِيامِ السَّاعَةِ.

الشرح:

(أمَّا بَعْدُ) هَذِهِ الكَلمةُ يُؤْتَى بهَا للانْتِقال مِنْ أسلوبٍ إلى أُسْلُوبٍ آخَرَ وَمَعنَاها: مَهْما يَكُنْ مِنْ شَيءٍ. ويُستَحبُّ الإتْيانُ بهَا[1] في الخُطَبِ والمُكَاتَباتِ اقتِداءً بالنَّبيِّ ﷺ حَيْثُ كَانَ يَفعلُ ذلكَ.

(فَهذَا) إشَارةٌ إلى ما تَضمَّنَتهُ هَذِهِ الرسالةُ واحْتَوتْ عَليهِ مِنَ العَقائِدِ الإيمانيةِ التي أجْمَلَها بقولِهِ: (وهُوَ الإيمانُ باللهِ... إلخ).

(اعتِقادُ) مصدر: اعْتَقدَ كَذا إذا اتَّخَذَهُ عَقيدةً، والعَقِيدةُ: هِيَ ما يَعقِدُ عَليهِ المَرءُ قَلبَهُ -تَقولُ: اعتقَدْتُ كَذا- أيْ: عقدْتُ عليهِ القَلبَ.والضَّميرَ، وأصْلُهُ مأخوذٌ مِنْ عَقَدَ الحَبْلَ: إذا رَبطَهُ؛ ثُمَّ استُعْمِلَ في عَقيدةِ القَلبِ وتَصميمِهِ الجَازِمِ.

(الفِرقَةِ) أيْ: الطَّائِفَة والجَمَاعة. (النَّاجيَةِ) أيْ: الَّتي سَلِمَتْ مِنَ الهَلاكِ وَالشُّرورِ فِي الدُّنيا والآخِرةِ، وحَصَلتْ عَلى السَّعادةِ. وهَذا الوَصفُ مأخوذٌ مِنْ قولِهِ ﷺ: «**لا تَزالُ طائِفةٌ مِن أمَّتي عَلى الحَقِّ مَنصُورةً، لا يَضرُّهمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حتَّى يأتِيَ أمرُ اللهِ**» رواهُ البُخاريُّ ومُسلمٌ[2].

(المَنصورةِ) أيْ: المُؤَيَّدَة عَلى مَنْ خَالفَها. (إلى قِيامِ السَّاعَةِ) أيْ: مَجيءِ سَاعةِ مَوتِهِمْ بِمجيءِ الرِّيحِ التي تَقْبضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ، فَهذهِ هِيَ

---

(١) وذِكرُها كثيرٌ في السُّنة، مثاله في البخاري حديث رقم (٧١٩٧) ومسلم (١٧٨١).

(٢) رواه البخاري (٧٣١١) ومسلم (١٩٢٣) والترمذي (٢٢٢٩) وابن ماجه (١٠).

....

السَّاعةُ في حَقِّ المُؤمنينَ. وأمَّا السَّاعةُ التي يَكونُ بها انتهاءُ الدُّنيا فَهي لا تَقُومُ إلاَّ عَلى شِرارِ النَّاسِ؛ لِمَا في «صَحيحِ مُسلمٍ»[1]: «لا تَقومُ السَّاعةُ حتَّى لا يُقالَ في الأرضِ: الله الله»، وروى الإمامُ الحاكِمُ[2] مِنْ حَديثِ عَبدِالله بنِ عَمرٍو رَضيَ اللهُ عَنهُمَا، وفيهِ: «ويَبعَثُ الله ريحاً رِيحُها رِيحُ المِسك، ومَسها مسُّ الحَرير، فلا تترك أحداً فِي قَلبهِ مثقالُ ذرةٍ من إيمان إلا قبضتهُ، ثم يبقى شِرارُ النَّاسِ فعليْهمْ تَقُومُ السَّاعةُ».

---

(١) رقم (١٤٨).

(٢) في «المستدرك» (٤/٤٥٦) ورواه مسلم أيضاً برقم (١٩٢٤).

أهلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ.

الشرح:

(أهلِ السُّنَّةِ) أهلِ بالكَسرِ على أنَّهُ بَدلٌ مِنَ الفرقةِ، ويَجوزُ الرَّفْعُ عَلى أنَّهُ خَبرٌ لمبتدإٍ مَحذوفٍ تقديرُهُ (هُمْ). والسُّنَّة[١]: هي الطَّريقةُ التي كَانَ عَليهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أقوالِهِ وأفْعالِهِ وتَقْريراتِهِ. وسُمُّوا أهلَ السُّنَّةِ؛ لانْتِسابِهِم لسُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ دُونَ غَيرِها مِنْ المَقالاتِ والمَذاهِبِ بخلافِ أهْلِ البِدعِ، فإنَّهمْ يُنسَبُونَ إلى بِدعِهِم وضَلالاتِهِم؛ كالقَدَريَّةِ والمُرجئَةِ، وتَارةً ينسبونَ إلى إمَامِهِم كالجَهميةِ، وتارةً ينسبونَ إلى أفْعالِهِم القَبيحةِ؛ كالرَّافِضةِ والخَوارِجِ.

(والجَمَاعَةِ) لغةً: الفِرقةُ المُجْتَمِعةُ مِنَ النَّاسِ. والمُرادُ بهِمْ هُنا: الذينَ اجتَمَعُوا على الحَقِّ الثابتِ بالكِتابِ والسُّنَّةِ، وهُم الصَّحابةُ والتَّابعونَ لَهمْ بإحسانٍ ولو كَانُوا قِلةً، كما قَالَ ابنُ مَسْعُودٍ رَضيَ اللهُ عنَهُ[٢]: الجَماعةُ ما وَافقَ الحَقَّ وإنْ كُنتَ وحْدَكَ، فإنَّكَ أنتَ الجَماعَةُ حِينئِذٍ.

---

(١) انظر: «السنة النَّبوية تعريفها وحجيتها وبلاغتها» (١٠) و«السنة قبل التدوين» (١٦) و«علم أصول الجرح والتعديل» لأمين أبو لاوي (١٥) و«أصول الحديث علومه ومصطلحه» لمحمد عجاج الخطيب (١٩).

(٢) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/١٠٨-١٠٩) وأبو شامة في كتاب «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (٩٢) والمزي في «تهذيب الكمال» (٢٢/ ٢٦٤). قال الألباني في «مشكاة المصابيح» (١/ ٦١): رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣/ ٣٢٢/ ٢) بسند صحيح.

وَهُوَ الإيمانُ بالله، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالبَعثِ بَعد المَوتِ، والإيمانُ بالقَدَر خَيره وَشَرِّهِ.

الشرح:

(وَهُوَ) أيْ: اعتقادُ الفِرقةِ النَّاجيةِ (الإيمانُ) الإيمانُ: مَعناهُ لُغةً: التَّصديقُ، قَالَ اللهُ تَعَالى في الآيةِ (١٧) مِنْ سُورةِ يُوسُفَ: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أيْ: مُصَدِّق.

وتعريفه شرعاً: أنَّهُ قولٌ باللِّسانِ، واعتِقادٌ بالقَلبِ، وعَملٌ بالجَوارِحِ[١].

وَقولُهُ: (بِالله، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالبَعثِ بَعد المَوتِ، والإيمانُ بالقَدَر خَيره وَشَرِّهِ) هَذِهِ هِيَ أركانُ الإيمانِ السِّتَّةُ التي لا يَصِحُّ إيمانُ أحدٍ إلاَّ إذا آمنَ بِهَا جَميعاً عَلَى الوَجْهِ الصَّحيحِ الَّذي دَلَّ عَليهِ الكِتابُ والسُّنَّةُ، وهَذِهِ الأركانُ هِيَ[٢]:

١- الإيمانُ باللهِ: وهُو الاعتقَادُ الجَازِمُ بأنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيءٍ ومَليكُهُ،

---

(١) انظر تفصيل هذه المسألة في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٨٣٠)، وكتاب «السنة» لعبدالله بن أحمد بن حنبل (٣٠٧) تحقيق: محمد سعيد القحطاني، وكتاب الإيمان في «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٥١).

(٢) تناول فضيلة الشيخ المؤلف -حفظه الله- هذه الأصول الستة بالشرح والتفصيل في كتابه الرائق «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد»، وكذا العثيمين -رحمه الله- «رسائل في العقيدة»، وقلَّما يخلو من هذه الأصول كتاب من كتب أئمة الدعوة أتباع الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله-.

....

وأنَّهُ مُتَّصِفٌ بصِفاتِ الكَمالِ، مُنزَّهٌ عَنْ كُلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، وأنهُ المُستَحِقُّ للعبادَةِ وحدَهُ لا شَريكَ لهُ. والقِيامُ بذلكَ عِلماً وعَملاً.

٢- الإيمانُ بالمَلائِكةِ: أيْ: التَّصديقُ بوجودِهِم، وأنَّهُم كَما وصَفَهُمُ اللهُ في كِتابهِ، كَمَا في الآيتينِ (٢٦، ٢٧) من سورةِ الأنبياء: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، وقَدْ دَلَّ الكِتَابُ والسُّنَّةُ عَلَى أصْنَافِ المَلائِكةِ وأوصَافِهِم، وأنَّهمْ مُوكَّلُونَ بأعمَالٍ يُؤدُّنَها، كما أمَرَهُمُ اللهُ، فيجبُ الإيمانُ بذلكَ كُلِّهِ.

٣- الإيمانُ بالكُتُبِ: أيْ: التَّصديق بالكُتُبِ التي أنزَلَها اللهُ عَلى رُسُلِهِ، وأنَّها كلامُهُ، وأنَّها حقٌّ ونُورٌ وهُدًى، فيجبُ الإيمانُ بما سَمَّى اللهُ منها؛ كالتَّوراةِ والإنْجيلِ والزَّبورِ والقُرآنِ، والإيمانُ بما لَمْ يُسَمِّ اللهُ مِنْهَا.

٤- الإيمانُ بالرُّسُلِ الذينَ أرْسَلهُمُ اللهُ إلى خَلقِهِ: أيْ: التَّصديقُ بهِمْ جَميعاً، وأنَّهمْ صَادِقُونَ فيمَا أخبَرُوا بِهِ، وأنَّهُمْ بَلَّغُوا رِسَالاتِ رِبِّهِمْ، لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ مِنهُمْ، بَلْ نُؤمِنُ بِهِمْ جَميعاً مَنْ سَمَّى اللهُ منهُمْ في كِتابهِ ومَنْ لَمْ يُسَمِّ مِنْهُمْ، كمَا قَال تَعَالى: في الآيَةِ (١٦٤) مِنْ سُورةِ النِّساء: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾، وأفضَلُهُم أُولُو العَزمِ وَهُمْ: نوحٌ وإبْراهيمُ ومُوسَى وعِيسَى ومُحَمَّدٌ عَليْهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ، ثُمَّ بقيَّةُ الرُّسُلِ ثُمَّ الأنبياءُ، وأفضَلُ الجَميعِ خَاتمُ الرُّسُلِ نبيُّنا مُحمَّدٌ ﷺ. وَأصحُّ ما قِيلَ فِي الفَرقِ بَينَ النَّبيِّ والرَّسُولِ، أنَّ النَّبيَّ: مَنْ أوحي إليهِ بِشَرعٍ

....

ولَمْ يُؤمَرْ بتبليغِهِ، والرَّسُولَ: مَنْ أُوحِيَ إليهِ بشَرعٍ وأُمِرَ بتبليغِهِ[١].

٥- الإيمانُ بالبَعثِ: وهُوَ التَّصديقُ بإخراجِ المَوْتَى مِنْ قُبورِهِم أحياءً يومَ القِيامةِ لفَصْلِ القَضَاءِ بينَهُم، ومجازاتِهِم بأعمالِهِم على الصِّفَةِ التي بينَها اللهُ فِي كتابِهِ، وبيَّنَها الرَّسولُ ﷺ في سُنَّتِهِ.

٦- الإيمانُ بالقَدرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ: وَهُوَ التَّصديقُ بأنَّ اللهَ سُبحانَهُ عَلِمَ مَقاديرَ الأشياءِ وأزْمانَها قَبلَ وُجودِها، ثُمَّ كَتَبَها في اللَّوحِ المَحْفوظِ، ثُمَّ أوجَدَها بقدرتِهِ ومشيئتِهِ في مَواعيدِها المُقدَّرةِ. فكُلُّ مُحدَثٍ مِنْ خَيرٍ أو شَرٍّ فهُوَ صَادِرٌ عنْ عِلمِهِ وتَقديرِهِ ومشيئتِهِ وإرادتِهِ، ما شَاءَ كانَ ومَا لَمْ يَشأْ لَمْ يَكُنْ.

هَذا شَرحٌ مُجمَلٌ لأصُولِ الإيمانِ وسيأتي -إنْ شَاءَ اللهُ- شَرْحُها مُفصَّلاً.

---

(١) انظر «شرح العقيدة الطحاوية» (١٦٧)، و«شرح ملا علي القاريء على الفقه الأكبر» (٦٠).

ويرى بعض العلماء أن الرسول من أوحي إليه بشرعٍ جديد، والنَّبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله. انظر «تفسير الألوسي» (١٧/ ١٥٧) و«تدريب الراوي» (٥٦) تحقيق الفاريابي.

وَمِنَ الإيمان باللهِ: الإيمَانُ بمَا وَصَفَ بهِ نَفسَهُ في كِتابِهِ، وَوَصَفَهُ بهِ رَسُولُهُ مُحمَّدٌ ﷺ مِنْ غَيرِ تَحريفٍ ولا تَعْطيلٍ، ومِنْ غَيرِ تَكييفٍ ولا تَمثِيلٍ.

الشرح:

بَعدَما ذَكرَ المُصَنِّفُ رَحِمهُ اللهُ الأُصولَ التي يَجبُ الإيمانُ بها مُجْمَلةً شَرَعَ يَذْكُرهَا عَلى سَبيلِ التَّفْصيلِ، وبدأ بالأصْلِ الأوَّلِ وهُوَ: الإيمَانُ باللهِ تَعالىَ، فَذكَرَ أنهُ يَدخُلُ فيهِ الإيمانُ بصفاتِهِ التي وَصفَ نَفسَهُ بهَا في كِتابِهِ، أوْ وَصَفَهُ بهَا رَسُولُهُ ﷺ في سُنَّتِهِ، وذلِكَ بأنْ نُثْبتَها لَهُ، كما جَاءَتْ في الكِتابِ والسُّنَّةِ بألفاظِها ومَعانِيها مِنْ غَيرِ تَحريفٍ لألفاظِها، ولا تَعْطيلٍ لمَعانِيها، ولا تَشبيهٍ لهَا بصفاتِ المَخلوقِينَ. وأنْ نعتَمِدَ في إثباتِها على الكِتابِ والسُّنَّةِ فَقطْ لا نتجاوَزُ القُرآنَ والحَديثَ؛ لأنَّها توقيفيةٌ.

والتَّحريفُ(١): هُو التَّغييرُ وإمالةُ الشَّيءِ عنْ وجْهِهِ. يُقالُ: انحرفَ عَنْ كَذا إذا مالَ، وهُوَ نَوعانِ:

النَّوعُ الأوَّلُ: تَحريفُ اللفظِ: وهو العُدُولُ بِهِ عنْ جهتِهِ إلى غَيرِهَا، إمَّا بزيادةِ كَلمةٍ أوْ حَرفٍ أو نُقصَانِهِ أوْ تَغييرِ حَرَكةٍ، كَقول أهْلِ الضَّلالِ في قَولِهِ تَعَالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، أيْ: اسْتَولى، فزادوا في

---

(١) انظر ما يوضح الفرق بين التحريف والتعطيل والتكييف والتمثيل في «الأسئلة والأجوبة الأصولية» للسلمان (٣٢ وما بعدها) و«التنبيهات اللطيفة» للسعدي (٢٣) و«الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد» (١٣٤) و«شرح العقيدة الواسطية» للهراس (٢٠) وغيرها من كتب أئمة الدعوة.

....

الآيةِ حَرْفاً، وكقولِهم في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، أيْ: أَمْرُ ربِّكَ، فـزادوا كلمةً، وكَقولِهِم فِي قَولِهِ تَعَالى: ﴿وَكَلَّمَ الله مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [النِّساء: ١٦٤]، بنَصبِ لَفظِ الجَلالةِ، فغيَّروا الحَركةَ الإعرابيةَ مِنَ الرَّفعِ إلى النَّصْبِ.

النَّوعُ الثَّاني: تَحريفُ المَعنى: وهُوَ العُدُولُ بـهِ عَـنْ وجْهِـهِ وحقيقَتِـهِ وإعطاءُ اللفظِ معنى لفـظٍ آخـرَ، كقَـولِ المبتدعـةِ: إنَّ معنـى الرحمـةِ: إرادةُ الإنعامِ، وإنَّ معنى الغضبِ: إرَادةُ الانتقَامِ.

والتَّعْطيلُ لغةً: الإخلاءُ، يُقالُ: عَطَّلَهُ، أيْ: أخلاهُ، والمُرادُ بِهِ هُنا: نَفـيُ الصِّفاتِ عَنِ اللهِ سُـبحانَه وتَعَـالى. والفَـرقُ بيـنَ التَّحريـفِ والتَّعطيـلِ: أنَّ التَّحريفَ هو نَفيُ المَعنى الصَّحيحِ الذي دلَّتْ عَليـهِ النُّصـوصُ، واسـتبدالُه بمعنًى آخرَ غيرِ صحيحٍ. والتَّعطيـلُ: هـو نفـيُ المَعنـى الصحيـح مِـنْ غـيرِ استبدالٍ لهُ بِمعنًى آخرَ، كفِعْلِ المُفوِّضَةِ، فكُلُّ محـرِّفٍ مُعطِّـلٌ، وليـسَ كُـلُّ معطلٍ مُحرِّفاً.

والتَّكييفُ: هُوَ تَعيينُ كيفيةِ الصِّفَـةِ، يُقـالُ: كَيَّـفَ الشَّـيءَ إذا جعـلَ لـه كَيْفيَّةً معلومَةً، فتكييفُ صِفاتِ اللهِ هُو: تعيينُ كيفيَّتِهـا والهَيئَـةِ التـي تَكـونُ عَليهَا، وهَذا لا يُمكِنُ للبشرِ؛ لأنَّهُ مما استأثَرَ اللهُ تَعالىَ بعلمِهِ فلا سَبيلَ إلى الوُصُولِ إليهِ؛ لأنَّ الصفةَ تابعةٌ للذاتِ، فكمَـا أنَّ ذاتَ اللهِ لا يُمكِـنُ للبَشـرِ معرفةُ كَيفيَّتها، فكَذلكَ صِفتُهُ سُبحانَهُ لا تُعْلَمُ كيْفيَّتُها؛ ولِهذا لمَّا سُئِلَ الإمامُ

....

مالكٌ رَحِمهُ اللهُ، فقيلَ لهُ: ﴿الرَّحْمَـنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيفَ استوى؟ فَقالَ: (الاستِواءُ مَعلومٌ، وَالكَيفُ مَجْهُولٌ، والإيمـانُ بـهِ واجـبٌ، والسُّؤالُ عنهُ بِدْعةٌ)[1]. وهذا يُقالُ في سَائرِ الصِّفاتِ.

والتَّمثِيلُ: هُوَ التَّشبيهُ، بأَنْ يُقالَ: إنَّ صفاتِ اللهِ مِثلُ صِفاتِ المَخلوقينَ، كأنْ يُقالَ: يَدُ اللهِ كأيْدينا، وسَمْعُهُ كَسَمعِنا -تَعَالى اللهُ عَنْ ذَلِكَ- قَالَ تَعَالى في الآيةِ (١١) مِنْ سُورةِ الشُّورى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فَلا يُقالُ في صِفاتِهِ: إنَّها مثلُ صِفاتِنا أو شِبهُ صِفاتِنا أو كَصِفاتِنا، كما لا يُقَالُ: إنَّ ذاتَ اللهِ مثلُ أوْ شِبهُ ذواتِنا، فالمُؤمِنُ المُوحدُ يثبتُ الصِفاتِ كُلَّها على الوَجهِ اللائِق بعظمةِ اللهِ وكِبريائِهِ، والمُعَطلُ ينفِيها أو يَنْفي بَعضَها، والمُشبِّهُ المُمثِّلُ يُثبتُها على وَجهٍ لا يَليقُ باللهِ، وإنَّما يليقُ بالمَخلوقِ.

---

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٦٦٤) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٠٨) والدارمي في «الرد على الجهمية» (رقم ١٠٤) وغيرهم وجوَّد إسناده الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٥٠٠) وانظر «مجموع الفتاوى» (٥/ ٢٨٢).

بَل يُؤمِنونَ بِأنَّ الله سُبحانَهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: ١١]، فَلاَ يَنفُونَ عَنهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ. وَلاَ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِه.

الشرح:

لمَّا ذَكرَ المُصنِّفُ رحِمَهُ اللهُ أنَّ الوَاجِبَ هُوَ: الإيمانُ بصفاتِ اللهِ الثَّابتةِ فِي الكِتابِ والسُّنَّةِ من غيرِ تَحريفٍ، ولا تَعطيلٍ، ومِنْ غَيرِ تَكييفٍ ولا تَمثيلٍ، بيَّنَ مَوقِفَ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ من ذلكَ. وهو أنَّهُم يؤمِنونَ بتلكَ الصِّفاتِ عَلى هَذا المَنْهجِ المُسْتقيمِ، فيثبتُونَها عَلَى حَقيقَتِها نافينَ عَنها التَّمثيلَ، فَلا يعطِّلونَ ولا يُمثِّلونَ على وَفقِ ما جَاءَ في قَولِهِ تَعالى فِي الآيةِ (١١) من سُورةِ الشُّورى: ﴿لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فقولُهُ تَعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رَدٌّ على المُمَثلةِ، وقولُهُ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رَدٌّ على المُعطلةِ؛ لأنَّ فيهِ إثباتَ السَّمعِ والبَصرِ، فالآيةُ الكريمةُ دستورٌ واضحٌ في بابِ الأسماءِ والصِفاتِ؛ لأنَّها جَمَعتْ بينَ إثباتِ الصِّفاتِ للهِ ونَفيِ التَّمثيلِ عَنْها. وسيأتي تَفسيرُها إنْ شَاءَ اللهُ.

وقولُهُ: (فَلاَ يَنفُونَ عَنهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ) أيْ: لا يَحْمِلُ أهلَ السُّنَّةِ والجَماعَةِ إيمانُهمْ بأنَّ اللهَ لَيسَ كَمثلِهِ شَيءٌ على أنْ يَنفُوا عنهُ ما وصَفَ بهِ نفسَهُ، كما يَفعلُ ذلكَ الذينَ غَلَوا في التنزيهِ حتَّى عطَّلوهُ من صفاتِهِ بحُجةِ الفِرارِ من التَّمثيلِ بصفاتِ المَخلُوقينَ. فأهلُ السُّنَّةِ يقُولونَ: للهِ سُبحانَهُ صفاتٌ تَخُصُّهُ وتَليقُ بهِ، وللمخلوقينَ صِفاتٌ تخُصُّهُمْ وتَليقُ بهمْ، ولا تَشابُهَ بينَ صِفاتِ الخَالقِ وصِفاتِ المَخلوقِ، فلا يلزمُ هذا المَحذُورُ الذي

....

ذَكرْتُم أيُّها المُعطِّلةُ.

وقولُهُ:(وَلاَ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ) تقدَّمَ بيانُ مَعنى التَّحريفِ، أيْ: لا يُغَيرونَ كلامَ اللهِ فيبدلُونَ ألفاظَهُ أو يُغيرونَ معانيهِ فيفسرونَهُ بغيرِ تَفسيرِهِ، كما يَفعلُ المُعطلةُ الذينَ يَقُولونَ في ﴿اسْتَوَى﴾: اسْتَولى، وفي: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾: جَاءَ أمرُ ربِّكَ، ويُفسِرونَ رحمةَ اللهِ بـ: إرادَةِ الإنعامِ، ونحو ذَلكَ.

وَلاَ يُلحِدونَ في أسماءِ الله وَآياتِهِ، وَلاَ يُكيِّفُونَ، وَلاَ يُمثِّلُونَ صِفاتِهِ بِصفاتِ خَلقِهِ.

الشرح:

(وَلاَ يُلحِدونَ في أسماءِ الله وَآياتِهِ) الإلحادُ لُغةً: الميلُ والعدولُ عنِ الشَّيءِ، ومنهُ اللحدُ في القَبرِ، سُمِّيَ بذلكَ؛ لميلِهِ وانحرافِهِ عَنْ سَمْتِ الحَفرِ إلى جهةِ القِبلةِ، والإلحادُ في أسماءِ اللهِ وآياتِهِ: هُو العُدولُ والمَيلُ بها عَنْ حقائِقِها ومَعانيها الصَّحيحةِ إلى البَاطِلِ.

والإلحادُ في أسماءِ اللهِ وصِفاتِهِ أنواعٌ[1]:

النَّوعُ الأوَّلُ: أنْ تُسمَى الأصْنامُ بها، كتسميةِ اللاتِ مِنَ الإلهِ، والعُزَّى مِنَ العَزيزِ، ومناةَ مِنَ المنَّانِ.

النَّوعُ الثَّاني: تَسميتُهُ سُبحانَهُ وتَعالى بما لا يَليقُ بِهِ، كَتَسميةِ النَّصارَى لهُ أباً، وتَسميةِ الفَلاسفةِ لهُ مُوجباً أو علةً فاعلةً.

النَّوعُ الثَّالثُ: وصفُهُ سُبحانَهُ وتَعالى بما يُنزَّهُ عنهُ مِنَ النَّقائِصِ، كقَولِ اليَهودِ الذينَ قَالُوا: ﴿إنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أغْنِيَاءُ﴾، وقولِهم: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وأنهُ استَرَاحَ يومَ السَّبتِ، تَعالى اللهُ عَمَّا يَقُولونَ.

النَّوعُ الرَّابعُ: جحدُ معانيها وحَقائِقها، كَقَولِ الجُهميةِ: إنَّهَا ألفاظٌ

(١) انظر ما بين أنواع الإلحاد في «بدائع التفسير» لابن قيم الجوزية (٢/ ٣١٤) دار ابن الجوزي، و«مفردات ألفاظ القرآن» للأصفهاني (٧٣٧)، و«تيسير العزيز الحميد» (٦٤٥) و«الأسئلة والأجوبة الأصولية» للسلمان (٥١، ٥٢).

....

مجرَّدةٌ لا تتضمَّنُ صِفاتٍ ولا مَعــانيَ، فالسَّـميعُ لا يَـدلُّ علـى سَـمعٍ، والبَصيرُ لا يَدُلُّ على بصرٍ، والحَيُّ لا يدلُّ على حياةٍ، ونحوُ ذلكَ.

النَّوعُ الخَامِسُ: تَشبيهُ صِفاتِهِ بِصفاتِ خلقِهِ؛ كَقولِ المُمثِّلِ: يَدُهُ كَيَدي، إلى غيرِ ذلكَ، تَعَالى اللهُ.

وقَدْ توعَّدَ اللهُ المُلحِدينَ في أسمائِهِ وآياتِهِ بأشدِّ الوَعيدِ، فقالَ سُبحانَهُ في الآيةِ (١٨٠) من سُورةِ الأعرافِ: ﴿وَلله الأَسْـمَاءُ الْحُسْـنَى فَـادْعُوهُ بِهَـا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَـا كَـانُواْ يَعْمَلُـونَ﴾، وقَـال فـي الآيةِ (٤٠) من سُورةِ فُصِّلَـتْ: ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ يُلْحِـدُونَ فِـي آيَاتِنَـا لاَ يَخْفَـوْنَ عَلَيْنَا﴾.

قولُهُ: (وَلاَ يُكَيِّفُونَ وَلاَ يُمَثِّلُـونَ... إلـخ)، تقـدَّمَ بَيـانُ مَعنـى التَّكييـفِ والتَّمثيلِ.

لأنَّهُ سُبحانَهُ لاَ سَمِيَّ لَهُ، ولاَ كُفؤَ لَهُ، وَلاَ نِدَّ لَهُ، ولاَ يُقاسُ بخلقِهِ سُبحانهُ وَتَعالى فَإِنَّهُ سُبحانَهُ أعلَمُ بِنَفسِهِ وَبِغَيرِهِ، وَأَصدَقُ قِيلاً، وَأَحسَنُ حَديثاً مِن خَلقِهِ.

الشرح:

(لأنَّهُ سُبحانَهُ لاَ سَمِيَّ لَهُ)هَذا تعليلٌ لِمَا سَبقَ مِنْ قَولِهِ عَنْ أهلِ السُّنَّةِ: (وَلاَ يُكَيفونَ ولا يُمثلونَ صفاتِهِ بصفاتِ خلقِهِ) و (سُبحانهُ)سُبحانَ مَصدرٌ مِثْلُ غُفران، من التَّسبيح، وهُوَ التنزيهُ (لاَ سَمِيَّ لَهُ)أيْ: لا نَظيرَ لَهُ يَستحقُّ مثلَ اسمِهِ، كقولِهِ تَعالى في الآيةِ (٦٥) مِنْ سُورةِ مَريمَ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ استفْهامٌ مَعناهُ[1]: النَّفيُ، أيْ: لا أحدَ يُساميهِ أو يُماثِلُهُ، (ولاَ كُفؤَ لَهُ)الكفؤ: هُو المُكافِئُ المُماثِلُ، أيْ: لاَ مِثْلَ لَهُ، كقَولِهِ تَعالى فِي سُورةِ الإخْلاصِ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾، (وَلاَ نِدَّ لَهُ)النِّدُّ: هُوَ الشَّبيهُ والنَّظيرُ، قَالَ تَعَالى فِي الآيةِ (٢٢) مِنْ سُورةِ البَقرةِ: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ للهِ أَندَاداً﴾.

(ولاَ يُقاسُ بِخلقِهِ)القِياسُ في اللغةِ: التَّمثيلُ[2] -أيْ لا يُشبَّهُ ولا يُمثَّلُ

---

(١) الاستفهام طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، وقد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي لغرض (التوبيخ، الاستبطاء، الاسترشاد، الافتخار، الأمر، النَّفي، التأكيد، التحقير... الخ) وكانت هذه الأغراض متناثرة في كتب النَّحو والأدب واللغة حتى جمعها البلاغيون ورتبوها في مباحث الاستفهام. «معجم المصطلحات البلاغية وتطورها» د. أحمد مطلوب (١/ ١٨١).

(٢) أي: رد الشيء إلى نظيره «المعجم الوسيط» وانظر «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٤).

....

بهمْ- قالَ سُـبحانَهُ فـي الآيـةِ (٧٤) مِـنْ سُـورةِ النَّحـلِ: ﴿فَـلاَ تَضْرِبُـواْ لله الأَمْثَالَ﴾ فَلا يُقاسُ سُبحانَهُ بخلقِهِ، لا في ذاتِـهِ، ولا فـي أسـمائِهِ وصِفاتِـهِ، ولا في أفعالِهِ، وكَيفَ يُقاسُ الخَالِقُ الكامِلُ بالمَخْلُوق النَّاقصِ -تَعالى اللهُ عَنْ ذَلِكَ- (فَإِنَّهُ سُبحانَهُ أعلَمُ بِنَفسِـهِ وَبِغَـيرِهِ) وهَـذا تَعليـلٌ لِمَـا سَـبقَ مِـنْ وُجوبِ إثباتِ ما أثبَتَهُ لنفسِهِ مِنَ الصِّفاتِ ومَنعِ قياسِهِ بخلْقِـهِ، فإنَّـهُ إذا كَـانَ أعلَمَ بنفسِهِ وبغَيرِهِ، وجَبَ أنْ يُثْبَتَ لهُ مِنَ الصِّفاتِ ما أثْبَتَهُ لنفسِهِ وأثْبَتَـهُ لَـهُ رَسُولُهُ ﷺ.

والخَلْقُ لا يُحيطُونَ بِهِ عِلماً، فهُوَ المَوصُوفُ بِصِفاتِ الكَمَـالِ التـي لا تَبْلُغُهَا عُقُولُ المَخلوقينَ، فيَجبُ عَلينا أنْ نَرْضَى بما رَضِيَهُ لنَفسِهِ، فَهُو أعلَمُ بِما يَليقُ بِهِ، ونَحنُ لا نَعلمُ ذلـكَ. وهُـوَ سُـبحانَهُ: (أصـدَقُ قِيـلاً، وَأحسَـنُ حَديثاً مِن خَلقِهِ) فَما أخبرَ بِهِ فهوَ صِدقٌ وحـقٌّ يَجـبُ علينـا أنْ نُصَدِّقَـهُ ولا نُعارِضَهُ، وألفاظُهُ أَحْسَنُ الألفاظِ وأفصَحُها وأوضَحُها، وقد بيَّنَ ما يَليـقُ بـهِ مِنَ الأسْماءِ وَالصِّفاتِ أتَمَّ بَيانٍ، فيجِبُ قَبولُ ذلكَ والتَّسليمُ لَهُ.

ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقونَ مُصدَّقُونَ، بِخِلاَفِ الَّذِينَ يَقولونَ عَلَيهِ مَا لاَ يَعلَمونَ.

الشرح:

(ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقونَ مُصدَّقُونَ)، هَذا عَطفٌ على قَولِهِ: (فإنَّهُ أعلمُ بنفسِهِ... إلخ)، الصِّدقُ: مُطابقةُ الخَبرِ للوَاقِعِ، أيْ: (صَادِقونَ) فيمَا أخْبَروا بهِ عَنِ اللهِ تَعالى، (مُصدَّقُون) أيْ: فيمَا يأتيهمْ مِنَ الوَحيِ بواسطةِ المَلائِكَةِ؛ لأنَّهُ مِنْ عِندِ اللهِ، فَهُمْ لا يَنطِقُونَ عنِ الهَوى. وهَذا توثيقٌ لِسندِ الرُّسُلِ عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فَقَدْ قيلَ لَهُمُ الحَقُّ وبلَّغُوهُ للخَلقِ، فيجبُ قَبولُ ما وَصَفُوا اللهَ بهِ، فَهُمْ (بخِلاَفِ الَّذِينَ يَقولونَ عَلَيهِ مَا لاَ يَعلَمونَ) أيْ: بخِلافِ الذينَ يقولونَ على اللهِ بلا عِلمٍ في شرعِهِ ودينِهِ، وفي أسمائِهِ وصفاتِهِ، بلْ بمجردِ ظُنونِهِم وتخيُّلاتِهِم أو بما يتلقَّونَهُ عَنِ الشَّياطِينِ كالمُتَنبئينِ الكذبَةِ[(١)] والمُبتدعةِ[(٢)] والزَّنادِقةِ[(٣)]

---

(١) المُتَنَبِّئُونَ: الذين يدعون النبوة ومنهم الكهان، مفرده كاهن، وهو الذي يخبر عن الغيبات في المستقبل، وقيل: يخبر عما في الضمير. «تيسير العزيز الحميد» (٤١١) و «فتح المجيد» (٢٩٥).

(٢) المبتدعة: نسبة إلى البدعة، وهي طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية. «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٥١) دار ابن عفان.

(٣) الزنادقة: مفرده الزنديق، وهو القائل ببقاء الدهر، أو القائل بالنّور والظلمة، أو من لا يؤمن بالآخرة والربوبية، أو من يُبْطن الكفر ويظهر الإيمان، فارسي معرب، انظر «القاموس المحيط» (٨٩١) و«لسان العرب» (١٠/ ١٤٧).

....

والسَّحرةِ[١] والكُهان والمُنَجِّمينَ[٢] وعُلماءِ السُوءِ، كما قَالَ تَعالى في الآياتِ (٢٢١-٢٢٣) مِنْ سُورةِ الشُعراءِ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾، وقالَ تَعَالى في الآيةِ (٧٩) مِنْ سُورةِ البَقرةِ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللهِ﴾ الآيَةَ.

فإذا كانَ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى أعلَمَ بنفسِهِ وبغَيرِهِ، وكانَ أصدقَ قَولاً، وأحْسَنَ حَديثاً من خَلقِهِ، وكانَ رُسُلُهُ عَليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ صادِقِينَ في كُلِّ ما يُخبرونَ بهِ عَنهُ، والواسطةُ بينَهُمْ وبينَ اللهِ التي تأتيهم بالوَحي مِنْ عِندِهِ واسطِةٌ صادقةٌ مِنْ مَلائِكتهِ الكِرامِ، وجَبَ التَّعويلُ إذاً على ما قَالَهُ اللهُ ورُسلُهُ، لا سِيَّما في بابِ الأسمَاءِ والصِفاتِ نفياً وإثباتاً، ورَفضُ ما قالَهُ المُبتدعةُ والضُّلاَّلُ ممَّنْ يدَّعي المجازَ في الأسماءِ والصِفاتِ، ويَنفيها بَشتى وسائِلِ النَّفيِ، مُعرضينَ عمَّا جاءَتْ بهِ الرُّسُلُ، مُعتمدينَ على أهوائِهِمْ أو مُقلِّدينَ لمن لا يصلحُ للقدوةِ مِنَ الضُّلاَّلِ.

---

(١) السحر: هو عزائمُ ورقي وعقد يؤثر في القلوب والأبدان، فيُمْرض ويقتل ويُفرِّق بين المرء وزوجته، ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه، أو هو تخييل وتمويه، وإرادة ما لا أصل له، مما يفعله الإنسان من حيل، لإخراج الباطل في صورة الحق. انظر «تيسير العزيز الحميد» (٣٨٢) و«التعريفات» للجرجاني (١٢١) و«الموسوعة العربية الميسرة» (١/ ٩٧٢). و«الملخص في شرح كتاب التوحيد» للمؤلف (ص١٩٩).

(٢) المنجمون: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: التنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية. انظر «فتح المجيد» (٣١٤) و«مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٤١).

وَلِهذا قالَ سُبحانه وتَعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الصافات: ١٨٠-١٨٢]، فَسَبَّحَ نَفسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ المُخالِفونَ للرُّسُلِ. وَسَلَّمَ على المُرسلينَ لِسَلامَةِ ما قالوهُ مِنَ النَّقصِ وَالعَيبِ.

الشرح:

المُفردات:

(وَلِهَذا): تعليلٌ لِمَا سَبقَ مِنْ كَونِ كَلامِ اللهِ وكَلامِ رُسُلِهِ أصْدَقَ وأحسَنَ، ﴿سُبْحَانَ﴾: اسمُ مَصْدرٍ منَ التَّسبيحِ وهُوَ التَّنزيهُ.

﴿رَبِّكَ﴾ الرَّبُّ: هو المَالِكُ السَّيِّدُ المُرَبِّي لخلقِهِ بنعَمِهِ.

﴿الْعِزَّةِ﴾: القُوَّةُ والغَلَبَةُ والمَنعَةُ. وَإضافَةُ الرَّبِّ إلى العِزَّةِ مِنْ إضَافَةِ المَوصُوفِ إلى الصِّفَةِ.

﴿يَصِفُونَ﴾ أيْ: يَصِفُهُ بِهِ المُخالِفُونَ للرُّسُلِ مما لا يَليقُ بِجلالِهِ.

﴿وَسَلَامٌ﴾ قيلَ: هو مِنَ السَّلامِ بمعنى: التَّحيةِ. وقيلَ: مِنَ السَّلامةِ مِنَ المَكارِهِ.

﴿عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ الذينَ أرْسَلهمُ اللهُ إلى خَلقِهِ، وبَلَّغُوا رِسالاتِ ربِّهم، جَمع مُرسَل، وتقدَّمَ تعريفُهُ[1].

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: جَمعُ عَالَم، وهُمْ كُلُّ مَنْ سِوى اللهِ.

---

(١) (ص١٧).

....

ما يُستَفادُ منَ الآياتِ:

١- تنزيهُ اللهِ سُبحانَهُ عمَّا يَصِفُهُ بِهِ الضُّلاَّلُ والجُهَّالُ مما لا يَليقُ بجلالِهِ.

٢- صدقُ الرُّسُلِ، ووجُوب قَبولِ ما جَاؤوا بِهِ، وما أخبروا بِهِ عَنِ اللهِ.

٣- مَشروعيَّةُ السَّلامِ عَلى الرُّسُلِ عَليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ واحتِرامُهُم.

٤- رَدُّ كُلِّ ما يُخالِفُ ما جاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، لا سيما ما يَتعلَّقُ بأسماءِ اللهِ وصِفاتِهِ.

٥- مَشروعيَّةُ الثَّناءِ على اللهِ وشُكرِهِ عَلى نعمِهِ التي مِنْ أجلِّهَا نِعمَةُ التَّوحيدِ.

وَهُو سُبحانَهُ قَد جَمَعَ فِيمـا وَصَـفَ وَسَـمَّى بـهِ نَفسَـهُ بَيـنَ النَّفـي وَالإثباتِ، فَلاَ عُدُولَ لأَهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ المُرسَلُونَ، فَإِنَّهُ الصِّراطُ المُستقيمُ.

الشرح:

(وَهُو سُبحانَهُ قَد جَمَعَ ... إلخ)، هذا بَيانٌ للمَنهَجِ الذي رَسَمهُ اللهُ في كِتابهِ لإثباتِ أسْـمائِهِ وصِفاتِـهِ، وهُـو المَنهـجُ الـذي يَجـبُ أنْ يَسـيرَ عَليـهِ المُؤْمِنونَ في هَذا البابِ المُهمِّ. فإنَّهُ سُبحانَهُ: (قَد جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَـمَّى بِهِ نَفسَهُ) أيْ: في جَميعِ أسمائِهِ وصِفاتِهِ (بَينَ النَّفي وَالإثباتِ) وهُوَ نَفـيُ مـا يُضادُّ الكمالَ مِن أنواعِ العُيوبِ والنَّقـائِص، كَنَفـيِ النِّـدِّ والشَّـريكِ والسِّـنَةِ والنَّومِ والمَوتِ واللُّغوبِ.

وأمَّا (الإثباتِ): فهُو إثباتُ صِفاتِ الكَمالِ ونُعوتِ الجَلالِ للهِ، كَقولـهِ تَعالى فِي الآيتين (٢٣، ٢٤) مِنْ سُورةِ الحَشرِ: ﴿هُـوَ اللهُ الَّـذِي لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِىءُ الْمُصَـوِّرُ لَـهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وغيرِ ذلـكَ مِمَّـا سيذكرُ لهُ المُؤلِّفُ نماذجَ فيما يأتي.

وقولُهُ: (فَلاَ عُدُولَ لأَهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ المُرسَـلُونَ) أيْ: لا مَيلَ لهم، ولا انْحرافَ عنْ ذلكَ، بـلْ هُـمْ مقتفـونَ آثـارَهم، مستضيئونَ بأنوَارِهم، ومِنْ ذلكَ إثباتُ صِفاتِ الكمالِ للهِ، وتنزيهُهُ عمَّا لا يَليقُ بهِ، فإنَّ الرسلَ قدْ قَرَّرُوا ذلـكَ الأصلَ العَظيمَ. وأمـا أعداءُ الرُسـلِ فَإنَّهم قد عَدَلُـوا

....

عَنْ ذَلكَ.

وقولُهُ: (فَإِنَّهُ الصِّراطُ المُستقيمُ)تَعليلٌ لقولِهِ: (فَلاَ عُدُولَ لأَهلِ السُّنَّةِ) أيْ: لأنَّ ما جاءَ بِهِ المُرسلُونَ هو الصِّراطُ المُستقيمُ، والصِّـراطُ المُسـتقيمُ: هوَ الطَّريقُ المُعتدِلُ الذي لا تَعدُّدَ فيهِ ولا انقِسامَ، وهُوَ المذكـورُ فـي قولِـهِ تَعالى مِنْ سُورةِ الفاتِحةِ: ﴿اهْدِنَـا الصِّـرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وقولِـهِ فـي الآيـةِ (١٥٣) مِنْ سُورةِ الأنعامِ: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَـاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُـواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾، وهُوَ الـذي نَدْعـو اللهَ فـي كُـلِّ ركعـةٍ مِـنْ صَلواتِنا أنْ يَهدِيَنا إليهِ.

صِراطُ الَّذِينَ أنعَم اللهُ عَليهِم مِنَ النَّبيِّينَ وَالصدِّيقينَ وَالشُّهداءِ وَالصَّالحينَ.

الشرح:

أيْ: أنَّ الصِراطَ المُستقيمَ الذي جاءَ بهِ المُرسَلونَ في الاعْتِقادِ وغَيرِهِ، وسَلكَهُ أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ هُوَ (صِراطُ الَّذِينَ أنعَم اللهُ عَليهِم) أي: أنعمَ اللهُ عَليهِمْ الإنْعامَ المُطلَقَ التَّامَّ المُتَّصِلَ بِسَعادَةِ الأبَدِ، وهُم الذينَ أمرَنا اللهُ أنْ نَدْعُوهُ أنْ يَهدينا طَريقَهُمْ.

فَهَؤلاءِ الأصْنافُ الأرْبَعةُ هُمْ أهلُ هَذهِ النِّعْمَةِ المُطلَقةِ وهُمْ:

١- النَّبيُّونَ: جَمعُ نَبيٍّ، وهُمُ الذينَ اختَصَّهُمُ اللهُ بِنُبوتِهِ ورِسالَتِهِ، وتقدَّمَ تَعريفُهُم[1].

٢- الصِّدِّيقونَ: جَمعُ صِدِّيق، وهُوَ المُبالغُ في الصِّدقِ والتَّصديقِ، أيْ: المُبالغُ في الانقيادِ للرَّسُولِ ﷺ مَع كَمالِ الإخْلاصِ للهِ.

٣- الشُّهداءَ: جَمعُ شَهيدٍ، وهو المَقتولُ في سَبيلِ اللهِ، سُمِّي بِذلكَ؛ لأنَّهُ مَشهودٌ لَهُ بالجنَّةِ، ولأنَّ مَلائِكةَ الرَّحْمَةِ تَشْهَدُهُ[2].

٤- الصَّالِحون: جَمعُ صالحٍ، وهو القائِمُ بِحُقوقِ اللهِ وحُقوقِ عِبادِهِ.

---

(١) (ص١٧).

(٢) قال ابن الأنباري: (سُمي الشهيد شهيداً لأن الله وملائكته شهود له بالجنة) انظر «لسان العرب» (٢٤٢) و«النِّهاية» لابن الأثير (٤٩٣)، و«التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» للقرطبي (١/ ٢٠٣).

....

والصِّراطُ تارةً يُضافُ إلى اللهِ تَعالى، كقَولِهِ تَعَالى في الآيةِ (١٥٣) مِنْ سُورةِ الأنعامِ: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾؛ لأنَّه هُوَ الذي شَرَعهُ ونَصَبه، وتَارةً يُضافُ إلى العِبادِ، كَما فِي قَولِهِ تَعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لكَونِهمْ سَلَكوه.

وفِي قَولِهِ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ تَنبيهٌ على الرَّفيقِ في هَذا الطَّريقِ، وأنَّهمْ هُمُ الذينَ أنعَمَ اللهُ عَليهم مِنَ النَّبيينَ، والصِّديقينَ، والشُّهداءِ، والصَّالحينَ؛ ليزولَ عَنْ سالِكِ هَذا الطَّريقِ وحشَةُ التفرُّدِ عَنْ أهلِ زَمانِهِ إذا استَشْعَرَ أنَّ رِفقتَهُ عَلى هَذا الصِّراطِ: الأنبياءُ، والصِّديقونَ، والشُّهداءُ، والصَّالِحونَ.

ثُمَّ أوردَ الشَّيخُ -رَحمهُ اللهُ- فيما يلي: نَماذِجَ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ تَشتَمِلُ على إثباتِ أسماءِ اللهِ وصِفاتهِ، وفيما يَلي إيرادُ ذَلك:

القسم الأول
الاستدلال على إثبات أسماء الله وصفاته
من القرآن الكريم

١ـ الجمعُ بينَ
النفي والإثباتِ في وَصفهِ تعالى

وَقَد دَخَلَ فِي هَذهِ الجُملةِ مَا وَصَفَ الله بِهِ نَفسَهُ فِي سُورةِ الإخلاصِ الَّتي تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ حَيثُ يَقولُ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: ١-٤].

الشرح:

(وَقَد دَخَلَ فِي هَذهِ الجُملةِ) أيْ: الَّتي تقدَّمتْ، وَهيَ قولُهُ:(وهُوَ سُبحانَهُ قدْ جَمعَ فيما وَصَفَ وسمَّى به نفسَهُ بينَ النَّفي والإثْباتِ)، فأرادَ هنا أنْ يوردَ ما يَدُلُّ على ذَلِكَ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ، وبَدأ بسورَةِ الإخْلاصِ؛ لفضْلِها، وسُمِّيت بِذلِكَ؛ لأنَّها أخْلصَتْ في صِفاتِ اللهِ، ولأنَّها تُخلِّصُ قارئَها مِنَ الشِّرْكِ.

قولُه:(الَّتي تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ) أيْ: تُساويهِ؛ وذَلكَ لأنَّ مَعانيَ القُرآنِ ثلاثةُ أنواعٍ: تَوحيد، وقَصص، وأحْكام.

وهَذهِ السُورةُ فيها صِفَةُ الرَّحمنِ، فَهي في التَّوحيدِ وحدهُ، فَصارتْ تَعدِلُ ثُلثَ القُرآنِ، والدَّليلُ على أنَّ هَذِهِ السُورَةَ تَعْدِلُ ثُلثَ القُرآنِ ما رَواهُ

....

البُخاري[١] عَنْ أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضيَ اللهُ عَنهُ، أنَّ رَجُلاً سَمِعَ رَجُلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُردِّدها، فلما أصبحَ جاءَ إلى النَّبيِّ ﷺ فَذكرَ لَهُ ذلكَ وكأنَّ الرجلَ يتقالُّها، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «والذي نَفسي بيدهِ إنَّها لَتَعدِلُ ثُلثَ القُرآن»، قالَ الإمامُ ابنُ القَيم[٢]: والأحاديثُ بِكونِها تعدِلُ ثلثَ القرآنِ تَكادُ تَبلغُ مَبلغَ التَّواتر.

(حَيثُ يَقولُ) اللهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿قُلْ﴾: أيْ: يا مُحمَّدُ، وفي هَذا دَليلٌ على أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ، إذ لَوْ كَانَ كَلامَ مُحمدٍ أو غَيرِهِ لَمْ يَقل ﴿قُلْ﴾ ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾، أي: واحِدٌ لا نَظيرَ ولا وَزيرَ، ولا مَثيلَ، ولا شَريكَ لَهُ. ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أيْ: السَّيدُ الذي كَمُلَ في سُؤددِهِ وشَرفِه، وعَظمَتِه، وفيهِ جَميعُ صِفاتِ الكَمالِ، والذي تَصْمُدُ إليهِ الخَلائِقُ وتَقصِدُهُ في جَميعِ حاجاتِها، ومَهَمَّاتِها.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ أيْ: ليسَ لَهُ وَلَدٌ ولا وَالِدٌ، وفيهِ الرَّدُّ على النَّصارى، ومُشْركي العَربِ الذينَ نَسبُوا للهِ الوَلَدَ. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي: لَيسَ لهُ مُكافِئٌ ولا مُماثِلٌ ولا نَظيرٌ.

والشَّاهِدُ مِنْ هَذِهِ السُورةِ:

أنَّها تضَمَّنَتْ وجَمَعتْ بينَ النَّفي والإثْباتِ، فقَولُه: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ

---

(١) في كتاب «فضائل القرآن» باب فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ برقم (٥٠١٣).

(٢) «بدائع التفسير» لابن القيم (٥/ ٣٦٨) طبعة دار ابن الجوزي.

....

الصَّمَدُ﴾ إثباتٌ، وقولُهُ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ نَفيٌ.

وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ في أعظَمِ آيَةٍ في كِتَابِهِ؛ حَيثُ يَقُولُ: ﴿اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا -أيْ: لا يُكرثه ولا يُثقِلُهُ- وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥]، وَلِهذَا كَانَ مَنْ قَرأَ هَذهِ الآيةَ فِي لَيلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَليهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلا يَقْربُهُ شَيْطَانٌ حتَّى يُصْبِحَ.

الشرح:

(وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ في أعظَمِ آيَةٍ في كِتَابِهِ) أي: وَدَخلَ في الجُملَةِ السَّابقةِ ما وَصفَ اللهُ بِهِ نَفسَهُ الكَريمة (في أعظَمِ آيَةٍ)، والآيةُ في اللُّغةِ: العَلامَةُ، والمُرادُ بِها هُنا: طائِفةٌ مِنْ كَلماتِ القُرآنِ مُتَميِّزةٌ عَنْ غيرِها بفاصِلةٍ[1]، وتُسمَّى هَذهِ الآيةُ التي أوردَها هُنا: آيَةُ الكُرسيِّ، لذكرِ الكُرسيِّ فيهَا.

والدليلُ عَلى أنَّها أعظَمُ آيَةٍ في القُرآنِ ما ثَبتَ في الحديثِ الصَّحيحِ الذي رَواهُ مُسلمٌ[2] عَن أُبَي بنِ كَعبٍ رَضيَ اللهُ عَنهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ سألَهُ «أيُّ آيةٍ في كِتابِ اللهِ أعْظَمُ؟» قالَ: اللهُ ورَسُولهُ أعلَمُ، فردَّدَها مِراراً، ثم قالَ

---

(١) الفاصلة هي: أواخر الآيات في كتاب الله، بمنزلة قوافي الشعر، -جلَّ كتابُ اللهِ عزَّ وجل- واحدتها فاصلة.
وانظر بحثاً مفصلاً حول الفاصلة في كتاب «الفاصلة في القرآن» لمحمد الحسناوي.
(٢) برقم (٨١٠).

....

أُبيٌّ: آيةُ الكُرسيِّ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «لِيهنكَ العلمُ أبا المُنذِرِ»، وسَببُ كونِها أعظمَ آيةٍ لما اشْتَملتْ عليهِ مِنْ إثباتِ أسماءِ اللهِ وصِفاتِهِ وتَنزيهِهِ عمَّا لا يَليقُ بهِ.

فَقولُهُ تَعالى: ﴿اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: لا مَعبودَ بحقٍّ إلاَّ هُوَ، ومَا سِواهُ فعِبادَتُهُ من أبطَلِ البَاطِلِ. ﴿الْحَيُّ﴾ أي: الدائِمُ البَاقِي الذي لَهُ كمالُ الحَياةِ وَالذِي لا سَبيلَ للفَناءِ إليهِ ﴿الْقَيُّومُ﴾ أي: القائِمُ بنَفسِهِ المُقيمُ لغَيرِهِ، فَهو غَنيٌّ عَنْ خَلقِهِ، وخَلقُهُ مُحتاجُونَ إليهِ، وقَدْ وَردَ أنَّ ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ هو الاسمُ الأعظمُ[1] الذي إذا دُعيَ اللهُ بهِ أجابَ، وإذا سُئِلَ به أَعطى؛ لِدلالةِ ﴿الْحَيُّ﴾ على الصِّفاتِ الذاتِيةِ، وَدلالَةِ ﴿الْقَيُّومُ﴾ عَلى الصِّفاتِ الفِعليةِ، فالصِّفاتُ كلُّها تَرجعُ إلى هَذينِ الاسمَينِ الكَريمينِ العَظيمَينِ[2]، ولِكمالِ قَيّوميتِهِ.

﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ السِّنةُ: النُّعاسُ، وهُو نَومٌ خَفيفٌ ويَكونُ في العَينِ فَقطْ، والنَّومُ أقوى مِنَ السِّنَةِ، وهو أخو المَوتِ، ويَكونُ في القَلبِ ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ مُلكاً وخَلقاً وعَبيداً، فهو يَملكُ

---

(١) كما ورد في أبي داود (١٤٩٦) والترمذي (٣٤٧٨) وأحمد برقم (٢٨١٦٣) عن أسماء بنت يزيد -رضي الله عنها- وحسن إسناده الألباني.

(٢) قال ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمهما الله-: (وقال لي يوماً: لهذين الاسمين -وهما الحي القيوم- تأثيرٌ عظيمٌ في حياة القلب). «تهذيب مدارج السالكين» (١/ ٣٨٨).

....

العالَمَ العُلْويَّ والسُّفليَّ. ﴿مَن ذَا الَّذِي﴾ أي: لا أحَدَ ﴿يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾ الشَّفاعةُ: مُشتقةٌ مِنَ الشَّفعِ، وهو ضِدُّ الوترِ، فَكأنَّ الشَّافِعَ ضَمَّ سؤالَه إلى سُؤالِ غَيرهِ فَصيَّرهُ شَفعاً بعدَ أنْ كانَ وتراً، والشَّفاعةُ: سُؤالُ الخَير للغَير، بمعنى: أن يَسألَ المُؤمِنُ ربَّهُ أن يَغفِرَ ذُنوبَ وَجرائِمَ بعضِ المُؤمنينَ، لكنَّها ملكٌ للهِ سُبحانَه فلا تَكونُ ﴿إلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ أي: بأمرِهِ، وذلكَ لِكبريائِهِ وعَظمتِهِ سُبحانَهُ وتَعالى، لا يَستطيعُ أحدٌ أن يَتقدَّمَ إليهِ بالشَّفاعَةِ عِندَهُ لأحدٍ إلا بَعدَ أنْ يأذَنَ.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: علمُهُ واطِّلاعُهُ محيطٌ بالأمُور المَاضيةِ والمُستقبلةِ، فلا يَخفى عليهِ منها شَيءٌ. ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ أيْ: العبادُ لا يَعلمونَ شيئاً مِنْ عِلمِ اللهِ إلا ما علَّمَهُمُ اللهُ إياهُ عَلى ألسنةِ رُسُلِهِ وبطرقٍ وأسبابٍ مُتنوِّعةٍ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ كُرسيُّهُ سُبحانَهُ قيلَ: إنَّهُ العَرشُ، وقيلَ: إنهُ غيرهُ، فقدْ وردَ أنهُ موضعُ القَدمينِ[١]، وهُوَ كُرسيٌّ بلغَ مِنْ عَظمتِهِ وسعتهِ أنهُ وَسِعَ السَّماوات

---

(١) عن ابن عباس قال: (الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره).
أخرجه الحاكم (٢/ ٢٨٢) والدارمي في «الرد على بشر المريسي» (ص٧١، ٧٣، ٧٤) وابن خزيمة في «التوحيد» (ص١٠٧-١٠٨) وابن جرير في «تفسيره» (٣/ ١٠) والطبراني في «الكبير» (١٢٤٠٤) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٣٥٤) والخطيب في «تاريخه» (٩/ ٢٥١-٢٥٢) و«العظمة» رقم (٢١٦) طبعة دار العاصمة، وكتاب «السنة» لعبدالله بن الإمام أحمد (٣٠١) ت: القحطاني.
وانظر: «مختصر العلو» للذهبي (١٢٤) وقال الألباني: وإسناده موقوف صحيح.

....

والأرضَ ﴿وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أيْ: لا يكرِثُهُ ولا يشقُّ عليهِ ولا يثقلُهُ حفظُ العالمِ العلويِّ والسُّفليِّ، لكمالِ قُدرتِهِ وقوتِهِ.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ أي: لَهُ العلوُّ المُطلقُ علوُّ الذاتِ، بكونِهِ فوقَ جميعِ المَخلُوقاتِ ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وعلوُّ القَدرِ فلهُ كُلُّ صفاتِ الكَمالِ ونُعوتِ الجَلالِ، وعلوُّ القَهرِ، فهو القَادرُ على كُلِّ شيءٍ، المُتصرفُ في كُلِّ شيءٍ لا يمتنعُ عليهِ شَيءٌ ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي لهُ جَميعُ صِفاتِ العَظمةِ، ولهُ التَّعظيمُ الكاملُ فِي قُلوبِ أنبيائِهِ ومَلائِكتهِ وعِبادِهِ المُؤمنينَ، فحَقيقٌ بآيةٍ تَحْتَوي عَلى هَذِهِ المَعاني أنْ تَكُونَ أعظمَ آيةٍ في القُرآنِ، وأنْ تَحفَظَ قارئَها من الشُّرورِ والشَّياطينِ.

والشَّاهِدُ مِنهَا:

أنَّ اللهَ جمعَ فيها فيمَا وَصفَ وَسمَّى به نَفسَهُ بينَ النَّفيِ والإثْباتِ، فقدْ تضمَّنتْ إثباتَ صِفاتِ الكمالِ ونفيَ النَّقصِ عنِ اللهِ، ففي قولِهِ: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ نفيُ الإلهيةِ عمَّا سِواهُ وإثباتُها لهُ. وفي قَولِهِ: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ إثباتُ الحياةِ والقَيوميَّةِ لهُ، وفي قولِهِ: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ نفيُ السِّنَةِ والنَّومِ عنهُ، وفي قولِهِ: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ إثباتُ ملكيَّتِهِ الكَاملةِ للعالَمَيْن العُلويِّ والسُّفليِّ، وفي قَولِهِ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ نَفيُ الشَّفاعةِ عِندَهُ بغَيرِ إذنِهِ؛ لِكَمالِ عَظَمتِهِ وغِناهُ عن خَلقِهِ، وفي قولِهِ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ إثباتُ كمالِ علمِهِ

....

بكلِّ شَيءٍ مَاضياً أوْ مُستقبلاً، وفي قولِهِ: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ بيانُ حاجةِ الخلقِ إليهِ وإثباتُ غِناهُ عنهمْ، وفي قولِهِ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ إثباتُ كُرسيِّهِ وإثباتُ كمالِ عظمتِهِ وجلالتِهِ، وصغرُ المَخلوقاتِ بالنِّسبةِ إليهِ: وفي قولِهِ: ﴿وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ نفيُ العجزِ والتَّعبِ عنهُ سُبحانَهُ، وفي قَولِهِ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ إثْبَاتُ العلوِّ وَالعَظمةِ لهُ سُبْحانَهُ.

وقَولُ المُصنِّفِ رَحمهُ اللهُ: (وَلِهذَا كَانَ مَنْ قَرأَ هَذهِ الآيَةَ فِي لَيلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَليهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلا يَقْربُهُ شَيْطَانٌ حتَّى يُصبِحَ) يُشيرُ إلى ما رواهُ البُخاريُّ في «صَحيحهِ»[١] عن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عَنهُ وفيهِ: «**إذا أويتَ إلى فِراشِكَ فاقرأ آيةَ الكُرسي ﴿اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، حتَّى تختمَ الآيةَ، فإنكَ لَنْ يَزَالُ عَليكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلا يَقْرِبُكَ شَيْطَانٌ حتَّى تُصْبِحَ**» الحديث. والشَّيطانُ: يُطلقُ على كُلِّ متمردٍ عاتٍ مِن الجنِّ والإنسِ، من (شطن) إذا بَعُدَ، سُمِّي بذلك؛ لبُعدِهِ من رحمةِ اللهِ، أوْ من شَاطَ يشيطُ إذا اشتدَّ[٢].

(١) في باب صفة إبليس وجنوده (٦/ ٤٠٤) معلقاً، ووصله النَّسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٥٩) والإسماعيلي وغيرهما، انظر «فتح الباري» (٤/ ٦١٤).
(٢) انظر «النِّهاية» لابن الأثير (٤٧٥) بعناية رائد ابن أبي علفة.

٢ـ الجمعُ بينَ
علوّه وقربه وأزليّته وأبديّته

وقَولُهُ سُبحانَهُ: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: ٣].

الشرح:

قولُهُ: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾ الآية، هَذهِ الآيةُ الكَريمةُ قد فَسَّرها النَّبيُّ ﷺ في الحَديثِ الذي رواهُ مُسلمٌ[١] أنَّهُ ﷺ قالَ: «اللهُمَّ أنتَ الأوَّلُ فَليسَ قبلَكَ شَيءٌ، وأنتَ الآخرُ فليسَ بعدَكَ شَيءٌ، وأنتَ الظاهرُ فليسَ فوقَكَ شَيءٌ، وأنتَ الباطِنُ فليسَ دونَكَ شيءٌ».

فقد فسَّرَ النَّبيُّ ﷺ هذهِ الأسماءَ الأربعةَ بهَذا التَّفسيرِ المُختصرِ الواضِحِ، وفي هَذهِ الأسماءِ المُباركةِ إحاطَتُهُ سُبحانَهُ مِنْ كُلِّ وجهٍ، ففي اسمِهِ الأولِ والآخرِ إحاطتُهُ الزمانيةُ، وفي اسمِهِ الظاهرِ والباطِنِ إحاطتُهُ المكانيةِ.

قالَ الإمامُ ابنُ القَيمِ رحمهُ اللهُ: (فَهذهِ الأسماءُ الأربعةُ متقابلةٌ: اسمانِ لأزليتِهِ وأبديتِهِ سُبحانَهُ، واسمانِ لعلوِّهِ وقربِهِ، فأوَّليتُهُ سُبحانَهُ سابقةٌ على أوَّليةِ كُلِّ ما سِواهُ، وآخريَّتُهُ سُبحانَهُ ثابتةٌ بعدَ آخريَّةِ كُلِّ ما سِواهُ، فأوليتُهُ: سبقُهُ لكُلِّ شَيءٍ، وآخريتُهُ: بقاؤُهُ بعدَ كُلِّ شَيءٍ، وظاهريتُهُ: فوقيَّتُهُ وعلوُّهُ على كُلِّ شيءٍ. ومعنى الظُّهورِ يَقتضي العُلوَّ، وظاهرُ الشَّيءِ: ما عَلا مِنهُ.

---

(١) قطعة من حديث رواه مسلم برقم (٢٧١٣).

....

وبطونُهُ سبُحانَهُ: إحاطتُهُ بكلِّ شيءٍ بحيثُ يكونُ أقربَ إليهِ مِنْ نَفسِهِ، وهَـذا قربُ الإحاطةِ العامةِ)[١]. اهـ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾أي: قد أحاط علمُهُ بكُلِّ شـيءٍ من الأمورِ الماضيةِ والحَاضِرةِ والمُستقبلةِ، ومن العالمِ العلـويِّ والسُـفليِّ، ومن الظواهرِ والبواطِنِ لا يَعزُبُ عن علمِهِ مثقـالُ ذرةٍ فـي الأرضِ ولا فـي السَّماءِ.

والشَّاهدُ من الآيةِ الكَريمةِ:

إثباتُ هذهِ الأسماءِ الكَريمةِ للهِ المُقتضيةِ لإحاطتـهِ بكُـلِّ شـيءٍ زمانـاً ومكاناً واطلاعاً وتقديراً وتدبيراً تَقدَّسَ وَتَعَالى عُلُواً كَبيراً.

---

(١) انظر «الصواعق المرسلة» (٤١٢).

وقولُهُ سُبحانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾ [سورة الفرقان: ٥٨]، وقولُهُ: ﴿وهُوَ الحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة سبأ: ١].

الشرح:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾ أبداً، أي: فوِّضْ أُمورَكَ إليهِ، فالتَّوكلُ[1] لغةً: التَّفويضُ، يُقالُ: وَكلتُ أمري إلى فُلانٍ، أي: فوَّضتُهُ.

ومعناهُ شَرعاً: *اعتمادُ القَلبِ على اللهِ في جَلبِ ما يَنفعُ ودَفعِ ما يضرُّ، والتوكُّلُ على اللهِ نوعٌ من أنواعِ العِبادَةِ، وَهو وَاجبٌ ولا يُنافي الأخذَ بالأسبابِ، بل يَتفِقُ معهُ تماماً.*

وخصَّ صفةَ الحياةِ إشارةً إلى أنَّ الحيَّ هو الذي يوثقُ بهِ في تَحصيلِ المَصالِحِ. ولا حَياةَ على الدَّوامِ إلا للهِ سُبحانهُ، وأما الأحياءُ المُنقَطِعةُ حياتُهم فإنهم إذا ماتُوا ضاعَ من يَتوكَّلُ عَليهِم.

والشاهِدُ مِنَ الآيةِ الكَريمةِ: *أنَّ فيها إثباتَ الحَياةِ الكَامِلةِ للهِ سُبحانَهُ، ونَفيَ الموتِ عنهُ*، ففيها الجَمعُ بينَ النَّفيِ والإثباتِ في صِفاتِ اللهِ تَعالى.

وَقولُهُ: ﴿وهُوَ الحَكِيمُ﴾ لَهُ مَعنيان[2]:

أحدُهما: أنَّه الحاكمُ بينَ خلقِهِ بأمرِهِ الكَوني وأمرِهِ الشَّرعي في الدُّنيا

---

(١) «النَّهج الأسمى» (٤٥٥) و«تهذيب مدارج السالكين» (٥٣٣) و«معالم التوحيد» لمروان القيسي (٧٦) وانظر بحثاً لطيفاً في «بصائر ذوي التمييز» للفيروزأبادي (٢٦٦/٥).

(٢) «النَّهج الأسمى» (٢٢٨).

....

والآخِــرة.

وَالثَّاني: أنَّه المُحكمُ المُتقن للأشياءِ مأخُوذٌ مِن الحِكمةِ، وهيَ وَضــع الأشْياءِ في مَواضِعِها، فهو سُبحانَهُ الحَاكِمُ بينَ عِبادهِ الذي لَـهُ الحِكمـة فـي خَلقِهِ وأمرِه، لم يَخْلق شَـيئاً عَبثـاً، ولَـمْ يُشـرِّع إلا مـا هُـو عَيـنُ المَصْلحـةِ ﴿الْخَبِيرُ﴾[1]: مِنَ الخِبرةِ وَهِيَ الإحاطةُ ببواطِنِ الأشـياء وَظواهِرهـا، يُقـالُ: خبرْتُ الشَّيءَ إذا عَرفتُهُ على حَقيقتِهِ. فَهُو سُبحانَهُ الخَبيرُ: أي: الذي أحـاطَ ببواطِنِ الأشياءِ وخَفاياها، كَما أحاطَ بِظواهِرِها.

والشَّاهِدُ من الآيةِ:

أنَّ فِيها إثبات اسمينِ مــن أسْـمائِهِ سُـبحانهُ: الحَكيـمُ، الخَبـيرُ، وهمـا يَتَضمَّنانِ صِفتينِ من صِفاته، وهُمَا: الحِكمةُ، والخِبرةُ.

---

(١) «معالم التوحيد» للقيسي (١٣٦).

٣ـ إحاطة علمه بجميع مخلوقاته

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سورة سبأ: ٢]، ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الأنعام: ٥٩].

الشرح:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾ أي: ما يَدخلُ فيها من القَطر والبُذورِ والكُنوزِ والمَوتى وغَيرِ ذَلك، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: مِن الأرضِ من النَّباتِ والمَعادِنِ وغيرِ ذلكَ، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أيْ: مِنَ المَطرِ والمَلائكةِ وغيرِ ذلك، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أيْ: يصْعَدُ في السَّماءِ من مَلائكةٍ وأعمالٍ وَغيرِ ذلكَ.

والشاهِدُ من الآيةِ الكَريمةِ: أنَّ فيهَا إثباتَ عِلمِ اللهِ سُبحانَهُ المُحيطِ بِكلِّ شَيءٍ.

وقولُهُ: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ أيْ: عندَ اللهِ وحَدهُ خَزائنُ الغَيبِ، أو ما يتوصَّلُ به إلى عِلمِهِ، ﴿لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ فمن ادَّعى علمَ شيءٍ منها فقدْ كَفرَ، وقد وَردَ تَفسيرُ مفاتِحِ الغَيبِ في الحديثِ الذي رَواهُ ابنُ عُمرَ كما في

....

«الصَّحيحين»[1] عَنهُ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «مفاتحُ الغَيبِ خَمسٌ لا يَعلمهُنَّ إلاَّ اللهُ»، ثُمَّ قَرأ هَذهِ الآيةَ: ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ﴾ أيْ: اليابس المَعمور والقِفار من السُّكان والنَّباتِ والدَّوابِّ وغيرِ ذَلك، ﴿وَالْبَحْرِ﴾ أيْ: يعلمُ ما فيهِ مِنَ الحَيواناتِ والجَواهِرِ ونحوِ ذلكَ، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ أيْ: مِنْ أشجارِ البرِّ والبَحرِ وغيرِ ذَلك ﴿إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾ أيْ: يَعلَمُها ويَعلمُ زمانَ سُقوطِها ومَكانَهُ، ﴿وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ﴾ أيْ: ولا تَكونُ حبةٌ في الأمْكِنةِ المُظلمَةِ أوْ في بَطنِ الأرْضِ، ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ﴾ من جَميعِ المَوجوداتِ، عمومٌ بَعدَ خُصوص ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ايْ: لا يَحْصُلُ شيءٌ من ذلكَ إلا وَهُوَ مَكتوبٌ في اللَّوحِ المَحفوظِ.

وَجهُ الشَّاهِدِ مِنَ الآيةِ: أن فيها إثباتَ أنه لا يَعلمُ الغَيبَ إلاَّ اللهُ، وأنَّ عِلمَهُ مُحيطٌ بِكلِّ شَيءٍ، وفِيها إثباتُ القَدرِ والكِتابَةِ فِي اللَّوحِ المَحفوظِ.

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٧٧٨) ومسلم برقم (٩).

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ [سورة فاطر: ١١]، ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [سورة الطلاق: ١٢]، وقَولُهُ: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات: ٥٨].

الشرح:

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ أيْ: لا يَكونُ حَملٌ ولا وَضعٌ إلاَّ واللهُ عَالمٌ بهِ، فلا يَخرجُ شَيءٌ عنْ عِلمهِ وتَدبيرِهِ، فيعلَمُ سُبحانَهُ في أيِّ يَومٍ تَحمِلُ الأُنْثى، وفي أيِّ يَومٍ تَضعُ، ونَوعَ حملِها هلْ هُوَ ذَكرٌ أوْ أُنثى.

﴿لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اللامُ متعلِّقةٌ بقولِهِ تَعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أيْ: فَعَلَ ذلكَ لتعلَموا كمالَ قُدرتِهِ، ﴿وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ أي: ولتَعلمُوا إحاطَةَ علمِهِ بالأشياءِ، فلا يَخرجُ عنِ عِلمهِ شَيءٌ مِنهَا كائِناً ما كانَ، و﴿عِلْماً﴾ منصوبٌ على التَّمييزِ[1] أو عَلى المَصْدريَّةِ[2]؛ لأن أحاطَ بمعنى عَلِمَ.

الشاهدُ من الآيتينِ:

أنَّ فيهما إثباتَ عِلمِ اللهِ المُحيطِ بكلِّ شَيءٍ، وإثباتَ قُدرتِهِ على كُلِّ شَيءٍ.

---

(١) وهو محولٌ عن فاعل والتقدير (أحاط علمه كل شيء).

(٢) يعني المفعول المطلق.

....

وقولُهُ تَعَالى: ﴿إنَّ الله هُوَ الـرَّزَّاقُ﴾ أيْ: لا رازقَ غـيرُهُ، الـذي يَـرزُقُ مَخلوقاتِهِ ويَقومُ بما يُصلِحُهُم، فَهو كَثيرُ الـرزقِ واسِـعُهُ فـلا تَعبـدوا غـيرَه، ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾ أي: صاحِبُ القوةِ التَّامةِ الذي لا يَعتريـهِ ضَعـفٌ ﴿الْمَتِيـنُ﴾، أيْ: البالِغُ في القُوَّةِ والقُدرةِ نِهايَتَهما، فلا يَلحقُهُ في أفعالِهِ مشَـقةٌ ولا كلفـةٌ ولا تَعبٌ. والمتانةُ مَعناها الشدةُ والقوَّةُ.

الشَّاهدُ منَ الآيةِ الكَريمةِ:

أنَّ فيهَا إثباتَ اسـمِهِ الـرزاق، وَوَصفَـهُ بـالقوةِ التامَّـةِ التـي لا يَعتريهـا ضَعفٌ ولا تَعبٌ سُبحانهُ وتَعـالى، وفِيهـا الاسـتِدلالُ علـى وُجـوبِ عِبادتِـهِ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ.

٤ـ إثبات
السمع والبصر لله سبحانه

وقَولُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: ١١] وقَولُهُ: ﴿إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [سورة النِّساء: ٥٨].

الشرح:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أولُ الآيةِ قولُهُ تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْواجاً﴾.

قَالَ الإمامُ ابنُ كَثيرٍ فِي «تَفسيره»[(١)]: أيْ: ليسَ كَخالِقِ الأزواجِ كلِّها شَيءٌ؛ لأنَّهُ الفردُ الصَّمدُ الذي لا نَظيرَ لهُ. اهـ.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ الذي يَسمعُ جَميعَ الأصْواتِ ﴿الْبَصِيرُ﴾ الذي يَرى كُلَّ شَيءٍ ولا يَخفَى عَليهِ شَيءٌ في الأرْضِ وَلا فِي السَّماء.

قال الإمامُ الشَّوكانيُّ في «تَفسيره»[(٢)]: ومَنْ فَهِمَ هَذهِ الآيةَ الكَريمةَ حقَّ فهمِها وتدبَّرَها حقَّ تدبُّرِها مَشى بِها عندَ اختِلافِ المُختَلفينَ في الصِّفاتِ على جَادةٍ بيضَاءَ وَاضِحةٍ، ويَزدادُ بَصيرةً إذا تأمَّلَ مَعنى قولِهِ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فإنَّ هَذا الإثباتَ بعدَ ذلكَ النَّفيِ للمماثِلِ قد اشْتَملَ على بَردِ اليَقينِ وشِفاءِ الصُّدورِ وانثِلاجِ القُلوبِ فاقْدُرْ يا طالبَ الحقِّ قَدْرَ هذه

---

(١) (٥/٤٩٣).

(٢) (٤/٥٠٧).

....

الحُجَّةِ النَّـيِّرةِ والبُرهانِ القَويِّ، فإنكَ تُحطِّمُ بها كثيراً مِنَ البِدعِ، وتهشمُ بها رُؤوساً مِنَ الضَّلالةِ، وتُرْغِمُ بها أُنوفَ طَوائِفَ مِنَ المُـتَكلمينَ، ولا سِيما إذا ضَممتَ إليهِ قَولَ اللهِ تَعالى: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾. اهـ.

وقولُهُ: ﴿إنَّ اللهَ نِعِمَّا﴾ قبلَهُ قولُهُ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَـاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِـالْعَدْلِ﴾ (نِعْـمَ) مـن ألفـاظِ المَدحِ، و(ما) قيلَ: نَكرةٌ مَوصوفةٌ، كأَنَّهُ قيلَ: نِعْمَ شَيئاً يَعِظُكم به، وقيلَ: إنَّ (ما) موصولة[1]، أي: نِعمَ الشَّيءُ الذي يَعظُكُم بهِ، وقولُهُ: ﴿يَعِظُكُـمْ﴾ أيْ: يأمُركم بهِ منْ أداءِ الأماناتِ والحُكمِ بيـنَ النَّـاسِ بـالعَدلِ، وقولُـهُ: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ أيْ: أنه سُبحانهُ سَميعٌ لما تَقُولونَ، بَصيرٌ بما تَفْعَلونَ.

الشَّاهِدُ من الآيتَينِ الكَريمتَينِ:

أنَّ فيهِما إثباتَ السَّمعِ والبَصـرِ للهِ، وفـي الآيـةِ الأولـى نَفـيُ مُماثَلـةِ المَخلوقاتِ، ففي ذَلك الجَمـعُ فيمـا وَصـفَ وسَـمَّى بـهِ نفسَـهُ بيـنَ النَّفـيِ والإثباتِ.

---

(١) انظر «مغني اللبيب» لابن هشام (٣٩١).

٥- إثبات
المشيئة والإرادة لله سبحانه

وقَولُهُ: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ﴾ [سورة الكهف: ٣٩]، ﴿وَلَوْ شَاءَ الله مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣]، وقَولُهُ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ الله يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة المائدة: ١].

الشرح:

قولُهُ: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ أيْ: هَلا إذْ دَخلتَ بُستانَك ﴿قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ﴾ أيْ: إنْ شَاءَ أبقَاها، وإنْ شَاءَ أفنَاها؛ اعْتِرافاً بالعَجزِ، وأن القُدرةَ للهِ سُبحانَه، قالَ بعضُ السَّلفِ(١): مَنْ أعجَبهُ شَيءٌ فلْيَقلْ: ما شَاءَ اللهُ لا قُوةَ إلاَّ باللهِ.

وقولُهُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ الله مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أيْ: لَوْ شَاءَ سُبحانَهُ عدمَ اقتِتالِهم لم يَقتَتِلوا؛ لأنه لا يَجري في مُلكِهِ إلا ما يُريدُ، لا رادَّ لحُكمهِ، ولا مُبدِّلَ لقَضائِهِ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ﴾ أيْ: أُبيحَتْ، والخِطابُ للمُؤمنينَ، ﴿بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾ أيْ: الإبلُ والبَقرُ والغَنمُ، ﴿إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ استِثناءٌ مِن ﴿بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾، والمُرادُ بهِ المَذكورُ في قولِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢١٤).

....

الْمَيْتَةُ﴾ الآية [المائدة: ٣]، التي بعدَهَا بقليلٍ.

وقولُهُ: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ اسْتِثناءٌ آخرُ مِن بَهيمةِ الأنْعامِ.

والمَعنَى: أُحِلَّتْ لكمُ بَهيمةُ الأنعامِ كلُّها إلاَّ ما كانَ مِنها وَحشِياً، فإنَّهُ صيدٌ لا يَحلُّ لكمْ في حَالِ الإحْرامِ، فقَوْلُه: ﴿وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ في مَحلٍّ نَصبٍ على الحَالِ(١)، والمُرادُ بالحُرمِ: مَنْ هُوَ مُحرِمٌ بِحجٍّ أو عُمرةٍ أو بِهِمَا، ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ مِنَ التَّحليلِ والتَّحريمِ، لا اعْتِراضَ عَليهِ.

الشَّاهدُ مِنَ الآياتِ:

أنَّ فِيهَا إثباتَ المَشيئةِ والقُوَّةِ وَالحُكمِ والإرادةِ، صِفاتٌ للهِ تَعالى عَلى ما يَليقُ بِجَلالِهِ.

(١) أي الجملة الاسمية و(الواو) واو الحال.

وقَولُهُ: ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٥].

الشرح:

﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ﴾ أيْ: مَنْ شَاءَ اللهُ سُبحانَهُ أنْ يُوفِّقَهُ يَجْعَل قَلْبَهُ قابِلاً للخَيْرِ. و(من): اسمُ شَرطٍ جازِمٌ، ويُرِدِ: مَجزومٌ عَلى أنَّهُ فِعلُ الشَّرطِ[١]، ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾ مَجْزومٌ بجوابِ الشَّرطِ، والشَّرحُ: الشَّقُّ، وأصلُهُ التَّوسِعةُ، وشَرحتُ الأمرَ: بيَّنتُهُ ووضَّحتُهُ. والمَعنى: يوسعُ اللهُ صدْرَهُ للحَقِّ الذي هو الإسلامُ حتَّى يَقبَلَهُ بِصدرٍ مُنشَرِحٍ، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ﴾ أيْ: ومنْ شَاءَ سُبحانَهُ أن يَصرِفَهُ عنْ قَبولِ الحَقِّ ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً﴾ أيْ: لا يَتَّسِعُ لِقبولِ الحَقِّ، ﴿حَرَجاً﴾ أيْ: شَديد الضِيقِ فلا يَبقى فيهِ مَنفذٌ للخَيرِ، وهُو تَأكيدٌ لمَعنى ﴿ضَيِّقاً﴾. ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ أصلُه: يتصعَّدُ، أي: كأنما تكلَّفَ ما لا يُطيقُ مرةً بعدَ مَرةٍ، كما يَتكلَّفُ مَن يُريدُ الصُّعودَ إلى السَّماءِ، شبَّه[٢] الكَافِرَ في ثِقلِ الإيمانِ عَليهِ بمنَ يتكلَّفُ ما لا يُطيقُهُ كَصُعودِ السَّماءِ.

الشَّاهِدُ مِنَ الآيةِ الكَريمةِ:

أنَّ فِيهَا إثباتَ الإرادَةِ للهِ سُبحانه، وأنَّها شَامِلةٌ للهِدايةِ والإضْلالِ، أي:

---

(١) وحُرك آخره بالكسر لالتقاء الساكنين.

(٢) نوع التشبيه تمثيلي.

....

يُريدُ الهدايةَ ويُريدُ الإضْلالَ كَوناً وقدراً لِحكمةٍ بالغةٍ.

فالإرادَةُ الرَّبانيَّةُ[1] نَوعان:

النَّوعُ الأوَّلُ: إرادةٌ كَونيةٌ قدريَّةٌ، وهَذِهِ مُرادفَةٌ للمَشيئةِ، ومن أمْثِلَتِهَا:

قولُهُ تَعَالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]، وقولُهُ تَعَالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ الله بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾.

النَّوعُ الثَّاني: إرادةٌ دينيَّةٌ شَرعيةٌ، ومِن أمثِلتِها قولُهُ تَعَالى: ﴿وَالله يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٢٧]، وقولُهُ: ﴿مَا يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وقولُهُ تَعَالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

الفرقُ بينَ الإرادتَين:

١ - الإرادَةُ الكَونيَّةُ قدْ يُحبُّها الله ويَرضاها، وقد لا يُحبُّها ولا يَرضاها، والإرادَةُ الشرعيةُ لا بُدَّ أنَّه يُحبُّها ويَرضاها. فالله أرادَ المَعصيةَ كَوناً ولا يَرْضَاها شَرعاً.

٢- والإرادةُ الكونيَّةُ مقصودَةٌ لِغيرها، كَخلقِ إبْليسَ وسَائرِ الشُّرورِ؛ لتحصلَ بسببِ ذلكَ المُجاهَدةُ والتَّوبةُ والاسْتِغفارُ وغيرُ ذلكَ من المَحابِّ،

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (٥٠٥) و«مجموع الفتاوى» (٨/ ١٥٧-١٦٥).

....

والإرادةُ الشَّرعيةُ مقصودَةٌ لذاتِها، فاللهُ أرادَ الطاعةَ كوناً وشَرعاً وأحبَّها ورَضِيَها.

٣- الإرادةُ الكَونيةُ لا بُدَّ من وُقوعِها، والإرادةُ الشَّرعيةُ لا يلزَمُ وُقوعُها فقدْ تَقَعُ وقَدْ لا تَقعُ.

تنبيهٌ: تَجتَمعُ الإرادتانِ الكَونيةُ والشَّرعِيةُ في حَقِّ المُخْلصِ المُطيعِ، وتنفَردُ الإرادَةُ الكَونيَّةُ في حَقِّ العَاصي.

تنبيهٌ آخرُ: مَن لم يُثبتِ الإرادَتينِ ويفرِّقْ بينَهما فقدْ ضلَّ؛ كالجَبريةِ والقَدريةِ[1]. فالجَبريةُ: أثبتوا الإرادةَ الكَونيةَ فقطْ، والقَدريةُ: أثبتوا الإرادةَ الشَّرعِيةَ فقطْ، وأهلُ السُّنَّةِ: أثبتُوا الإرادَتينِ وفرَّقُوا بينَهُما.

(١) انظر تعريف هذه الفرق (ص١٥٨) من هذا الكتاب.

٦- إثبات
محبةِ اللهِ ومودته لأوليائه على ما يليقُ بجلالِه

وقَولُهُ: ﴿وَأَحْسِنُواْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩٥]، ﴿وَأَقْسِطُواْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الحجرات: ٩]، ﴿فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة التوبة: ٧]، ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٢]، وقَولُهُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾ [سورة آل عمران: ٣١]، وقَولُهُ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [سورة المائدة: ٥٤] وقَولُهُ: ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [سورة الصف: ٤]، وقَولُهُ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [سورة البروج: ١٤].

الشرح:

لما ذكرَ الشَّيخُ -رَحِمهُ اللهُ- الآياتِ التي تَدلُّ على إثْباتِ المَشيئةِ والإرادةِ ذكرَ الآياتِ التي تَدلُّ على إثباتِ المَحبةِ للهِ سُبحانَهُ. وفي ذلكَ الرَّدُّ على من سَوَّى بينَ المَشيئةِ والمَحبةِ، وَقالَ: إنهما مُتَلازمان، فكلُّ ما شَاءَ اللهُ فقدْ أحبَّهُ. وقد قَدَّمنا أنَّ في ذلك تَفصيلاً، فقدْ يشاءُ اللهُ ما لا يُحبُّه؛ كَكُفرِ الكافِرِ وسائرِ المَعاصي، وقد يَشاءُ ما يحبُّ؛ كالإيمانِ وسائِرِ الطَّاعَاتِ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿وَأَحْسِنُواْ﴾ هَذا أمرٌ من اللهِ تَعالى بالإحْسانِ، وهو:

....

الإتيانُ بالعملِ على أحْسنِ أحوالِهِ وأكمَلِها، والإحسانُ هو أعلى مَقاماتِ الطَّاعةِ[1]. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ هَذا تَعليلٌ للأمرِ بالإحْسانِ، فهو أمرٌ بِهِ؛ لأنَّهُ يُحبُّه ويحبُّ أهلَهُ، فيكونُ ذلك حافِزاً على امتِثالِ الأمرِ بِهِ. وقولُهُ تَعالى: ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ أمرٌ بالإقْساطِ، وهو: العَدلُ في المُعامَلاتِ والأحكَامِ مع القَريبِ والبَعيدِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ تَعليلٌ للأمرِ بالإقْساطِ، فهُو أمرٌ بهِ؛ لأنَّهُ ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أيْ: العادِلينَ، ومحبَّتُهُ سُبحانَهُ لَهم تَستلزِمُ أنْ يَجزيَهُمْ أحسنَ الجَزاءِ.

وَقولُهُ تَعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أيْ: ما اسْتقامَ لَكُمُ المُشرِكُونَ على العَهدِ فلمْ يَنقُضوهُ فاستَقيمُوا على الوَفاءِ لَهمْ فَلا تُقاتِلوهُمْ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ تَعليلٌ للأمرِ بالاسْتِقامةِ على العَهدِ، فهو أمرٌ بِها؛ لأنَّها مِنْ أعمالِ المُتَّقينَ الذينَ يُحبُّهم الله، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ الوَفاءَ بالعَهدِ والاستِقامةِ عليهِ من أعمالِ المُتَّقينَ، والتَّقوى[2]: هي التَّحرُّزُ بطاعَةِ اللهِ عن مَعصيتِهِ رَجاءَ ثوابِهِ وخوفاً مِنْ عِقابِهِ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ التَّوابينَ: جَمعُ تَوَّابٍ صيغةُ مبالغةٍ من التَّوبةِ، وهي لغةً: الرُّجوعُ. وشَرعاً: الرُّجوعُ عنِ الذَّنبِ، هذا تَفسيرُها في حقِّ العبدِ، وأمَّا في حقِّ اللهِ فالتوابُ من أسماءِ اللهِ تَعالى،

---

(١) انظر «معارج القبول» (١١٦٩) دار ابن الجوزي.

(٢) للاستزادة، انظر «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤١٣) تحقيق طارق عوض الله.

....

قالَ ابنُ القيمِ[١]: العَبدُ توابٌ، واللهُ تَوابٌ، فتَوبةُ العَبدِ رُجوعُهُ إلى سَيِّدِهِ، وتوبةُ اللهِ نَوعان: إذنٌ وتوفيقٌ، وقبُولٌ واعتِدادٌ. ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ﴿الْمُتَطَهِّرِينَ﴾: جمعُ مُتطهِّرٍ، اسمُ فاعلٍ من الطَّهارَةِ، وهي النَّزاهَةُ والنَّظافَةُ عَنِ الأقذارِ حِسيةً كانتْ أوْ مَعنويةً، وَفي الآيةِ الكَريمةِ إخبارٌ مِنَ اللهِ سُبحانَهُ عَنْ مَحبَّتِهِ لهَذينِ الصِّنفَينِ منْ عِبادِهِ التَّوابينَ والمُتطَهرينَ.

وقولُهُ تَعَالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾.

سَببُ نُزولِ هذهِ الآيةِ الكَريمةِ كما ذكرَهُ ابنُ كَثيرٍ[٢] وغيرُهُ: أنَّ قوماً زَعَمُوا أنَّهمْ يُحبونَ اللهَ فابتَلاهُمُ اللهُ، أيْ: اختَبرَهُم، بِهذهِ الآيةِ فهيَ حاكِمةٌ على كُلِّ من ادَّعى محبةَ اللهِ وليسَ هو على الطَّريقةِ المُحمديَّةِ بأنَّه كاذِبٌ في دَعواهُ. وقولُهُ: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ أيْ: يَحصلُ لَكمْ فوقَ مَا طَلبْتُمْ من مَحبَّتكُمْ إيَّاهُ وهو مَحبَّتُهُ إياكُم، وهو أعظَمُ من الأول.

وقولُهُ تَعَالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ هَذا جوابُ الشَّرطِ في قولِهِ: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾، يَقولُ تَعالى مُخبراً عن قُدرتِهِ العَظيمةِ أنه من تَولَّى عَنْ نُصرةِ دينهِ وإقَامَةِ شَريعتِهِ أنه يَسْتبدِلُ بِهِ مَنْ هُوَ خيرٌ منهُ. وهم قومٌ مُتَّصِفُونَ بصِفَاتٍ عَظيمةٍ من أعْظَمِها: أنَّ اللهَ يَحبُّهم وهُمْ يُحبونَهُ، والمُرادُ بِهمْ: أبو بَكرٍ الصِّديقُ وجيشُهُ من الصَّحابةِ والتَّابعينَ

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣١٣) وانظر «التنبيهات السنية» (ص٧٢).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٩).

....

رَضيَ اللهُ عَنهُمْ الذينَ قاتَلوا أهلَ الرِّدَّةِ، ثُمَّ كُلُّ مَنْ جَاءَ بَعدَهُم من المُقاتِلينَ للمُرتدينَ إلى يَومِ القِيامَةِ.

وقولُهُ تَعَالى: ﴿إنَّ الله يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾ إخبارٌ منهُ مُؤكَّدٌ أنَّهُ سبُحانَهُ يُحبُّ من اتَّصفَ بهذهِ الصِّفةِ ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾ أيْ: يُجاهِدونَ بأموالِهِم وأنفُسِهم لإعْلاءِ كلمةِ اللهِ ﴿صَفًّا﴾ أيْ: يَصُفُّون أنفُسَم عندَ القِتالِ ولا يَزولونَ عن أماكِنهم ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ قَدْ رُصَّ بعضُه ببعضٍ، وأُلزِقَ بعضُهُ ببعضٍ فليسَ فيهِ فرجةٌ ولا خَلَلٌ. وقولُهُ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ أيْ: كَثير المغفرةِ، والغَفرُ: السَّترُ، فهوَ سُبحانهُ يغفِرُ لمنْ تابَ إليهِ، أيْ: يَستُر ذنوبَه ويَتجاوَزُ عنْ خَطاياهُ ﴿الْوَدُودُ﴾ من الودِّ وهو خالِصُ الحُبِّ، فَهُو سُبحانه (وَدودٌ) بِمَعنى: أنه يُحبُّ أهلَ طاعَتهِ، وفي ذكرِ هذينِ الاسمينِ الكَريمَينِ مُقتَرنينَ سرٌّ لَطيفٌ، وهُو: أنَّه يُحبُّ عبدَهُ بعدَ المَغفرةِ، فيغفِرُ لهُ ويُحبُّه بعَدَ ذلِكَ.

الشَّاهِدُ مِن هَذِهِ الآياتِ الكَريمةِ:

أنَّ فيها إثباتَ المَحبةِ والمَودَّةِ للهِ سُبحانَهُ، وأنَّه يُحبُّ ويودُّ بعضَ الأشخاصِ والأعْمالِ والأخلاقِ، فَهو يُحبُّ بعضَ الأشياءِ دونَ بعضٍ على ما تَقتَضيهِ حِكمتُهُ البالِغةُ، فَهو يُحبُّ المُحْسِنينَ، ويُحِبُّ المُقسِطينَ، ويُحبُّ المُتَّقينَ، ويحبُّ المُتَّبعينَ لرسولِهِ ﷺ، ويحبُّ المُجاهِدينَ في سَبيلِهِ، ويحبُّ التَّوابينَ والمُتطَهِّرينَ.

....

وفيها إثباتُ المحبَّةِ مِنَ الجَانبين، جانِبِ العَبدِ وجانِبِ الرَّبِّ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ففي ذَلكَ الرَّدُّ على من نَفى المَحبةَ من الجَانِبين: كالجَهميةِ والمُعتزلةِ[1] فَقالوا: لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ[2] وأوَّلُوا مَحبةَ العِبادِ لهُ بِمعنى محبَّتهم عِبادَته وطَاعته. ومحبَّتُهُ للعِبادِ بمعنى إحْسانِهِ إليْهِمْ وإثابَتِهم ونَحوَ ذلكَ. وهَذا تأويلٌ باطِلٌ؛ لأنَّ مودَّتهُ ومحبَّتهُ سُبحانهُ وتَعَالى لعبادِهِ عَلى حَقيقتِهما، كما يَليقُ بِجلالِهِ، كسائِرِ صِفاتِهِ ليسَتا كَمودَّةِ ومحَبَّةِ المَخلوق.

---

(١) انظر «التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية» للرشيد (٧٦).

(٢) انظر التعريف بهذه الفرق (ص١٥٨) وما بعدها من هذا الكتاب و«معارج القبول» (١/ ٤٨١).

٧ـ إثبات
اتصافه بالرحمة والمغفرة سبحانه وتعالى

وقَوْلُهُ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً﴾ [سورة غافر: ٧]، ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ [سورة الأحزاب: ٤٣]، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: ٥٤]، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة يونس: ١٠٧]، ﴿فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [سورة يوسف: ٦٤].

الشرح:

وَقولُهُ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ تَقدمَ تَفسيرُها في أولِ الكِتابِ، ومُناسَبةُ ذكرِها هُنا: أنَّ فِيها إثباتَ الرَّحمةِ للهِ تَعالى صِفةً من صِفاتِه، كَما في الآياتِ المَذكُورةِ بَعدَها، قَالَ الإمامُ ابنُ القَيمِ[1]: ﴿الرَّحْمنِ﴾ دالٌّ على الصِفةِ القائِمةِ بِهِ سُبحانَه، و ﴿الرَّحِيمِ﴾ دالٌّ على تَعلُّقِها بالمَرحومِ، كَما قَالَ تَعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ وَلَمْ يَجِئْ قطُّ: رحمنٌ بِهم، وكانَ الأَوَّلُ للوَصفِ، والثَّاني للفِعل، فالأَوَّلُ دالٌّ على أنَّ الرَّحمةَ وصفُهُ. والثاني دالٌّ على أنه يَرحمُ خَلقَهُ برَحمَتِهِ. اهـ.

قولُهُ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً﴾ هَذا حِكايةٌ عنِ المَلائِكةِ الذينَ يَحملونَ العَرشَ ومَنْ حَولَهُ أنهم يَسْتغفِرونَ للذينَ آمَنُوا، فيقُولونَ:

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ٢٤).

....

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً﴾ أي: وسِعَتْ رَحمتُكَ وعِلمُكَ كُلَّ شَيءٍ فـ﴿رَّحْمَةً وَعِلْماً﴾ مَنصوبانِ على التَّمييزِ المُحوَّل عن الفاعِلِ، وفي ذلكَ دليلٌ على سَعَةِ رَحمةِ اللهِ وشُمولِها، فما مِنْ مُسْلِمٍ ولا كَافِرٍ إلا وقد نَالَتْهُ رحمةُ اللهِ في الدُّنيا، وأما في الآخرةِ فتختَصُّ بالمُؤمنينَ.

وقولُهُ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ هذا إخبارٌ مِنَ اللهِ سُبحانَهُ أنهُ رَحيمٌ بالمُؤمِنينَ يَرحمُهم في الدُّنيا والآخِرةِ، أمَّا فِي الدُّنيا فإنهُ هَداهُمْ إلى الحَقِّ الذي جَهِلَهُ غيرُهم، وبصَّرهم الطَّريقَ الذي ضَلَّ عَنهُ غَيرُهم، وأمَّا رَحمتُه بِهم في الآخرةِ فآمَنَهُم مِنَ الفَزَعِ الأكبرِ ويُدخِلُهُم الجَنَّةَ، وقولُهُ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أيْ: أوجَبَها على نَفسِهِ الكَريمةِ تَفضلاً مِنهُ وإحْساناً، وَهَذِهِ الكِتابةُ كَونيةٌ قَدريةٌ لم يوجِبْها عَليهِ أحدٌ.

وقولُهُ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يُخبرُ سُبحانَهُ عنْ نَفسِهِ أنَّهُ مُتَّصِفٌ بالمَغفِرةِ والرَّحمةِ لمَنْ تابَ إليهِ وَتوكَّلَ عَليهِ، ولوْ مِنْ أيِّ ذَنبٍ كانَ كالشِّركِ، فإنَّهُ يَتوبُ عليهِ ويَغفرُ لَهُ ويَرحَمُهُ.

وقولُهُ تَعَالى: ﴿فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً﴾ هَذا مِمَّا حَكاهُ اللهُ تَعالى عن نَبيهِ يَعقُوبَ عَليهِ السَّلامُ حِينمَا طَلَبَ منهُ بَنوهُ أنْ يُرسلَ مَعهم أخاهُمْ، وتَعاهَدوا بِحفظِه، فقالَ لَهمْ: إنَّ حفظَ اللهِ سُبحانَه لهُ خَيرٌ من حِفْظكم. وهذا تَفويضٌ من يَعقُوبَ إلى اللهِ في حِفظِ ابنِهِ. ومن أسْمائِهِ تَعَالى الحَفيظُ: الذي يَحفظُ عِبادَهُ بِحفظِهِ العامِّ من الهَلاكِ وَالعَطبِ، ويَحفظُ عَليهم أعْمالَهم، ويَحفظُ

....

عبادَهُ المُؤمنينَ بحفظِهِ الخاصِّ عمَّا يُفسدُ إيمانَهم وعمَّا يَضرُّهم في دينِهم ودُنياهُم.

الشَّاهدُ منَ الآياتِ الكَريمةِ:

أنَّ فيها وَصفَ اللهِ سُبحانَهُ وتَعالى بالرَّحمةِ والمَغفرةِ عَلى مَا يَليقُ بجلالهِ كسائِرِ صِفاتِهِ، وفِيها الرَّدُّ على الجَهميةِ والمُعتزلةِ ونَحوهم ممَّنْ يَنفونَ عنِ اللهِ اتِّصافَه بالرَّحمةِ والمَغفرةِ فِراراً من التَّشبيهِ بزَعمِهم.

قَالُوا: لأنَّ المَخلوقَ يُوصَفُ بالرَّحمةِ، *وتأوَّلوا هذهِ الآياتِ على المَجازِ*، وهذا باطلٌ؛ لأنَّ اللهَ سبحانَهُ أثبتَ لنفسِهِ هذه الصِّفَةَ، ورحمتُهُ سُبحانَهُ ليستْ كَرحمةِ المَخْلُوقِ حتى يَلزمَ التَّشبيهُ كما يَزْعُمُون، فإنَّ اللهَ تَعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، والاتفاقَ في الاسمِ لا يَقتضي الاتفاقُ في المُسمَّى، فللخالِق صفاتٌ تَليقُ به وتَختصُّ بِه، وللمَخلُوقِ صِفاتٌ تَليقُ بِهِ وتَختَصُّ بِهِ. واللهُ أعلَمُ.

٨ـ ذكرُ رضا اللهِ وغضبِه وسخطِه
وكراهيته في القرآن الكريم وأنه متصف بذلك

وقَولُهُ: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [سورة المائدة: ١١٩]، وقَولُهُ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [سورة النِّساء: ٩٣]، وقَولُهُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُواْ مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ﴾ [سورة محمد: ٢٨]، وقَولُهُ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [سورة الزخرف: ٥٥] وقولُهُ: ﴿وَلَـكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٤٦]، وقَولُهُ: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ [سورة الصف: ٣].

الشرح:

قولُهُ: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ أيْ: رَضيَ عَنهُم بِما عَملوهُ من الطَّاعاتِ الخَالِصةِ لهُ، ورَضوا عنهُ بما جازاهُم بهِ منَ النَّعيمِ، والرِّضا منهُ سُبحانه هو أرفعُ درجاتِ النَّعيمِ، قَالَ تَعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، ورِضاهُم عنهُ هو رِضا كُلٍّ منهُمْ بمنزِلتِهِ حتَّى يظنَّ أنه لَمْ يُؤتَ أحدٌ خيراً ممَّا أوتِيَ.

وقولُهُ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً﴾ احترَزَ بقولِهِ: ﴿مُؤْمِناً﴾ عن قتلِ الكافِرِ، وبقولِهِ: ﴿مُّتَعَمِّداً﴾ عنْ قتلِ الخطأِ، والمُتعمِّدُ: هو الذي يَقصِدُ مَنْ يَعلَمُهُ آدمياً مَعصوماً فيقتُلُهُ بما يَغلبُ على الظَّنِّ مَوتُه بِهِ. وقولُهُ: ﴿فَجَزَاؤُهُ﴾ أيْ: عِقابُه في الآخِرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ طَبقةٌ من طَبقاتِ النَّارِ ﴿خَالِداً

....

فِيهَا﴾ أيْ: مُقيماً في جَهنَّمَ، والخُلودُ: هو المُكثُ الطَّويـلُ ﴿ وَغضِبَ اللهُ عَلَيْـهِ﴾ مَعطوفٌ على مُقدرٍ دلَّ عليـهِ السِّياقُ، أيْ: جعلَ جَزاءَهُ جهنَّمَ وغَضِبَ عليهِ ﴿وَلَعَنَهُ﴾ أيْ: طَرَدَهُ عن رَحمتِهِ، واللعنُ: هو الطَّردُ والإبْعادُ عنْ رَحمةِ اللهِ.

وقولُهُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ ايْ: مَا ذَكَرَ في الآيـةِ قبلَها مِن شِدَّةِ تُوفِّي المَلائكةِ للكُفارِ من أجلِ أنهم ﴿اتَّبَعُواْ مَا أَسْخَطَ اللهَ﴾ مِن الانْهماكِ في المَعاصي والشَّهواتِ المُحرَّمةِ ﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ﴾ أيْ: كَرِهوا ما يُرضيهِ من الإيمانِ والأعمَالِ الصَّالِحةِ، وقولُهُ: ﴿فَلَمَّا ءاسَفُونَا﴾ أي: أغْضَبونا ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أيْ: عَاقبناهم، والانتقام هُوَ أشدُّ العُقوبةِ.

وقولُهُ: ﴿وَلَـكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ أيْ: أبغضَ اللهُ خُروجَهُم مَعكُم للغَزو ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أيْ: حَبَسَهم عَنِ الخُروجِ مَعك، وخذَّلهم قَضاءً وَقَدراً، وإن كان قَدْ أمَرَهم بالغَزوِ شَرعاً، وأقدَرَهُم عليهِ حِسًّا، لكنَّهُ لم يُعِنهم عَليهِ؛ لحكمةٍ يعلمُها، وقد بيَّنَها في الآيةِ التي بَعدَها في قولِهِ: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ الآية.

وقولُهُ: ﴿كَبُرَ مَقْتاً﴾ أيْ: عَظُمَ ذلكَ في المَقتِ وهو البُغضُ، ومَقتاً مَنصوبٌ على التَّمييزِ ﴿أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ أيْ: تَعِدُوا من أنفُسِكم خيراً ثم لا تَفُوا بما وَعَدتُم. وقد وَرَدَ في سَببِ نُزولِهَا أنَّ ناساً من المُؤمِنينَ قَبلَ أنْ يُفرَضَ الجِهادُ يقولونَ: وَددنا لو أنَّ اللهَ أخبرَنا بأحبِّ الأعمالِ

....

فَنَعْمَلُ بهِ، فأخبَرَ اللهُ نبيَّه ﷺ أنَّ أحبَّ الأعمالِ إيمانٌ باللهِ لا شكَّ فِيهِ، وجهادُ أهلِ مَعصيتِهِ الذين خالَفُوا الإيمانَ ولَمْ يُقرّوا بهِ، فلما نَزلَ الجهادُ كرِهَ ذلكَ أناسٌ مِنَ المُؤمِنينَ وشقَّ عليهِمْ أمرُهُ، فقالَ اللهُ: ﴿يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[1].

الشَّاهدُ منَ الآياتِ:

أنَّ فيها وَصفَ اللهِ بالغَضبِ والرِّضا واللَّعنِ والانتِقَامِ والكَراهيةِ والأسفِ والمَقتِ، وهَذهِ كُلُّها مِنْ صِفاتِ الأفعالِ التي يَفعلها جلَّ وعَلا متى شَاء، إذا شَاءَ، كيفَ يشاءُ. وأهلُ السُّنَّةِ يُثبتونَ ذلكَ للهِ كما أثبتَهُ لِنفسِه على ما يَليقُ بِجلالِهِ.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٠٣).

٩- ذكر مجيء الله سبحانه لفصل القضاء بين عباده على ما يليق بجلاله

وقَولُـهُ: ﴿هَـلْ يَنظُـرُونَ إِلاَّ أَن يَـأْتِيَهُمُ اللهُ فِـي ظُلَـلٍ مِّـنَ الْغَمَـامِ وَالْمَلاَئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ [سورة البقرة: ٢١٠]، وقَولُهُ: ﴿هَـلْ يَنظُـرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [سـورة الأنعام: ١٥٨]، وقَولُهُ: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً * وَجَـاءَ رَبُّـكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ [سورة الفجر: ٢١-٢٢]، ﴿وَيَـوْمَ تَشَـقَّقُ السَّـمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [سورة الفرقان: ٢٥].

الشرح:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ هَذا تَهديدٌ للكُفارِ التَّارِكينَ للدُّخُولِ فـي السِّـلمِ -أي: الإِسْلامِ- المُتَّبعينَ لخطواتِ الشَّيْطان، ومَعنى، ﴿يَنظُرُونَ﴾. يَنتظرون، يُقالُ: نَظرتُه وانتظَرتُـهُ بمَعنًـى وَاحـدٍ ﴿إِلاَّ أَن يَـأْتِيَهُمُ اللهُ﴾ ذاتُـهُ سُـبْحَانَهُ لفصـلِ القَضاءِ بَينهم يومَ القِيامَةِ، فَيُجازي كُلَّ عامِلٍ بعمَله ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَـامِ﴾ الظلل: جَمعُ ظلةٍ، وهي ما يُظلُّك، والغَمامُ: السَّحابُ الرقيقُ الأبيضُ، سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يَغُمُّ، أيْ: يَسـتُرُ[1] ﴿وَالْمَلاَئِكَـةُ﴾ أي: والمَلائكـةُ يَجيئـونَ فـي ظُلَلٍ من الغَمامِ، ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ أيْ: فرغَ من الأمرِ الذي هُوَ إهلاكُهُم.

وقولُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلاَئِكَةُ﴾ أيْ: لِقبـضِ أرواحِهـم، ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أيْ: بِذاتِـهِ سُبحانـهُ لِفصـلِ القَضاءِ بيـنَ العِبـادِ، ﴿أَوْ يَأْتِيَ

---

(١) «لسان العرب» (١٢/ ٤٤٤).

....

بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ وهُو طُلوعُ الشَّمسِ مِن مَغربِها، وذلكَ أحدُ أشراطِ السَّاعةِ الكِبارِ، إذا وَقع أُغلِقَ بابُ التَّوبةِ فَلا تُقبلُ.

وقولُهُ: ﴿كَلاَّ﴾ حَرفُ ردعٍ وزجرٍ عمَّا ذُكِرَ قَبلها، أي: ما هكَذا يَنبغي أنْ يَكونَ عَملُكُم من عَدمِ إكرامِ اليَتيمِ وعَدمِ الحَضِّ عَلى طَعامِ المِسْكينَ، وَأكلِ التُّراثِ، وحُبِّ المال بِكَثرةٍ شَديدةٍ ﴿إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً﴾ أيْ: زُلْزِلَتْ وحُرِّكَتْ تَحريكاً بَعدَ تَحريكٍ، حتَّى انهدَمَ كلُّ ما عَليها من بِناءٍ، وعادَ هباءً مُنْبثاً، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ بذاتِهِ سُبحانهُ لفصلِ القَضاءِ بينَ عِبادِهِ، ﴿وَالْمَلَكُ﴾ أيْ: جنسُ الملائِكةِ، ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ مَنصوبٌ على الحال[1]، أيْ: مُصطَفين صفاً بعدَ صَفٍّ، قدْ أحدقُوا بالجِنِّ والإنسِ، كلُّ أهلِ سَماءٍ يَكونونَ صفاً واحِداً بالأرضِ ومَن فِيهَا فيكُونونَ سَبعةَ صُفوفٍ.

وقولُهُ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ﴾ أي: يَوم القِيامةِ، ﴿تَشَقَّقُ السَّمَاءُ﴾ أيْ: تَنْفَطر وتَنفرجُ، ﴿بِالْغَمَامِ﴾ الذي هُوَ ظُللُ النُّورِ العَظيمِ الذي يُبهِرُ الأبصارَ، ﴿وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلاً﴾ إلى الأرضِ فيُحيطونَ بالخَلائِقِ فِي مَقامِ المَحشَرِ، ثُمَّ يَجيءُ الرَّبُّ لفَصلِ القَضاءِ بين عَبادِهِ.

الشَّاهدُ مِنَ الآياتِ:

أنَّها أفادتْ إثباتَ المَجيءِ والإتيانِ للهِ يَومَ القِيامةِ بذاتِهِ على ما يَليقُ بجلالِهِ لِفصلِ القَضاءِ بينَ عِبادِهِ، ومَجيئُه وإتيانُه سُبحانَه مِنْ صِفاتِهِ الفِعليةِ

---

(١) وهي حال جامدة مؤولة بمشتق تدل على ترتيب.

....

يَجبُ إثباتُهما على حَقيقتِهما، ولا يَجوزُ تأويلُهما بمَجيءِ أو إتيانِ أمرِهِ كما يَفعلهُ نفاةُ الصِّفاتِ، فيقُولونَ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أيْ: جاءَ أمرُهُ، وهذا مِنْ تَحريفِ آياتِ اللهِ.

قَالَ الإمامُ ابنُ القيِّم رَحمهُ اللهُ[1]: والإتيانُ والمَجيءُ المُضافُ إليهِ سُبحانَهُ نَوعان: مُطلقٌ ومُقيَّدٌ، فَإذا كانَ المُرادُ مَجيءَ رَحمتِهِ أو عَذابه ونَحوِ ذلكَ قُيِّدَ بذلك، كما في الحَديثِ «حَتى جاءَ اللهُ بالرَّحمةِ والخَيرِ»، وقولِه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾. النَّوعُ الثَّاني: الإتيانُ والمَجيءُ المُطلقُ فهذا لا يَكونُ إلا مَجيئَهُ سُبحانهُ، كقَولِهِ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ وقولِهِ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾. اهـ.

---

(١) في «مختصر الصواعق المرسلة» (ص٤٢٧). وانظر «التنبيهات السنية» (ص٨٨).

١٠ـ إثبات
الوجه لله سبحانه

وقولُهُ: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن: ٢٧]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [سورة القصص: ٨٨].

الشرح:

﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ هَذِهِ الآيَةُ جاءتْ بعدَ قَولِهِ تَعَالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ يُخبرُ تَعَالى أنَّ جَميعَ أهلِ الأرضِ سَيذهَبونَ ويَموتونَ ولا يَبقى أحدٌ سِوى وَجْهِهِ الكَريمِ، فإنَّ الرَّبَّ سبحانَهُ لا يَموتُ، بلْ هُوَ الحَيُّ الذِي لا يَموتُ أبداً. ﴿ذُو الْجَلاَلِ﴾ أيْ: العَظمة والكِبرياء، ﴿وَالإِكْرَامِ﴾ أيْ: المُكرِم لأنبيائِهِ وعِبادِهِ الصَّالحينَ، وقيلَ: المُستحِقُّ أن يُكرمَ عن كلِّ شَيءٍ لا يَليقُ بِهِ.

وقولُهُ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ أيْ: كُلُّ مَن في السَّماءِ ومَنْ فِي الأرضِ سَيذْهَبونَ ويَموتونَ ﴿إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ مَنصوبٌ على الاسْتِثناء، وهَذَا إخْبارٌ بأنَّهُ الدائِمُ الباقي الذي تَموتُ الخَلائِقُ ولا يَموتُ.

الشَّاهدُ من الآيتينِ:

أنَّ فيهِمَا إثباتَ الوَجهِ للهِ سُبحانَهُ، وهو من صِفاتِهِ الذاتيةِ، فهو وَجهٌ على حَقيقتِهِ يَليقُ بجلالِهِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، لا كَما يَزعُمُ مُعطلةُ الصِّفاتِ أن الوَجهَ ليسَ عَلى حَقيقتِه، وَإنَّما المُرادُ بهِ الذاتُ أو الثَّوابُ أو

....

الجهةُ أو غيرُ ذلكَ، وهذهِ تأويلاتٌ باطلةٌ من وجوهٍ[١]:

مِنهَا: أنه جَاءَ عطفُ الوَجهِ على الذّاتِ، كما في الحَديث: «أعوذُ باللهِ العَظيمِ وبوجهِهِ الكَريم»[٢] والعَطفُ يقتَضي المُغايرةَ.

ومنهَا: أنه أضافَ الوَجهَ إلى الذاتِ فقالَ: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾، ووصَفَ الوجهَ بقولِهِ: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾ فَلو كانَ الوَجهُ هو الذاتَ لكانَ لفظُ الوجهِ في الآيةِ صلةٌ، ولَقال: (ذي الجَلال والإكرام)، فلمَّا قالَ: ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ تَبينَ أنَّهُ وَصفٌ للوَجهِ لا للذَّاتِ، وأن الوجهَ صِفةٌ للذاتِ.

ومنهَا: أنَّهُ لا يُعرف في لُغةِ أمةٍ مِنَ الأُممِ أن وَجهَ الشيءِ بمعنَى ذاتِهِ أو الثَّوابِ، والوَجهُ في اللُّغةِ[٣]: مُستقبلُ كلِّ شَيءٍ؛ لأنَّه أولُ ما يُواجه مِنهُ، وهو في كُلِّ شَيءٍ بحسبِ ما يُضافُ إليهِ.

---

(١) انظر «مختصر الصواعق المرسلة» (٣٣٩، ٣٨٦) ففيه تفصيل وبيان.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٦) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وإسناده صحيح.

(٣) انظر «مختصر الصواعق المرسلة» (٣٨٨).

١١ـ إثبات
اليدين لله تعالى في القرآن الكريم

وقَولُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص: ٧٥]، وقَولُهُ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [سورة المائدة: ٦٤].

الشرح:

﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ الخِطابُ لإبليسَ -لعنَهُ اللهُ- لما امتَنَع عَنِ السُّجودِ لآدمَ عَليهِ السَّلامُ، أيْ: أيُّ شَيءٍ صرَفَكَ وصدَّكَ عنِ السُّجودِ؟ ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي: باشَرْتُ خلقَهِ بيديَّ من غيرِ واسِطَةٍ، وفي هَذا تَشريفٌ وتَكريمٌ لآدمَ. قولُهُ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ اليَهودُ في الأصلِ من قولِهم: ﴿هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ وكانَ اسمَ مدحٍ ثمَّ صارَ بعدَ نسخِ شَريعتِهم لازماً لَهم، وإن لم يَكنْ فيهِ مَعنى المَدحِ، وقيلَ: سُمّوا بذلكَ نسبةً إلى يَهودا بنِ يَعقوبَ عليهِ السَّلامُ.

﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ يُخبرُ تَعالى عَنهم بأنَّهُم وَصُفوهُ بأنَّه بَخيلٌ، كما وَصفوهُ بأنَّهُ فَقيرٌ وهمْ أغْنياءُ، لا أنَّهم يَعنونَ أنَّ يَدهُ مُوثقةٌ، ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ هذا رَدٌّ عَليهم من اللهِ تَعالى بما قَالُوهُ، ومُقابلةٌ لَهمْ بما افتَروهُ واختلقُوهُ. وهكذا وقَعَ لَهم، فإنَّ فيهمْ مِنَ البُخلِ والحَسدِ الشيءَ الكَثيرَ، فلا تَرى يَهودياً إلاَّ وهو منْ أبْخَلِ خَلقِ اللهِ، ﴿وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ مَعطوفٌ على ما قَبله، والباءُ سَببيةٌ، أيْ: أُبعدوا من رَحمةِ اللهِ بسببِ هَذِهِ المَقالةِ.

....

ثُمَّ رَدَّ عليهِمْ سُبحانَهُ بقولِهِ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أيْ: بَلْ هُوَ في غايةِ ما يَكُونُ من الجُودِ والعَطاء، فيداهُ مَبسوطَتانِ بذلِكَ، ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ جُملةٌ مُستأنفةٌ مؤكدةٌ لِكَمالِ جودِهِ. فإنفاقُهُ على ما تَقتَضيهِ مَشيئتُه، فإنْ شاءَ وسَّعَ، وإنْ شَاءَ ضيَّقَ، فَهُو البَاسِطُ القابِضُ على ما تَقتَضيه حِكمَتُهُ.

الشَّاهِدُ من الآيتَينِ الكَريمتينِ:

أنَّ فيهما إثباتَ اليَدينِ للهِ سُبحانَهُ وتَعَالى، وأنَّهما يَدانِ حَقيقيتَانِ لائِقَتانِ بجلالِهِ وعَظمتِهِ ليسَتا كَيدَي المَخلوقِ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وَفي ذلِكَ الردُّ على مَنْ نَفى اليدَينِ الحَقيقيَّتينِ عنِ اللهِ، وزَعمَ أنَّ المُرادَ باليدِ القُدرةُ أو النِّعمةُ، وهذا تأويلٌ بَاطِلٌ وتَحريفٌ للقُرآنِ الكَريمِ.

فالمُرادُ: يَدُ الذاتِ لا يَدُ القدرَةِ والنِّعْمَةِ[1]، إذْ لَوْ كانَ المُرادُ باليدِ القَدرةَ -كَما يَقُولونَ- لبَطل تَخصيصُ آدم بخَلقِهِ بهما، فإن جَميع المَخلوقَاتِ حتَّى إبْليسَ خلقت بقُدرته، فأيُّ مزيةٍ لآدمَ على إبليسَ في قولِهِ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. فكَانَ يُمكِن لإبليسَ أن يَقولَ: وأنا خَلقْتني بيدَيك! إذا كَانَ المُرادُ بها القُدْرَةَ، وأيضاً لو كانَ المُرادُ باليدِ القُدرَةَ لوجبَ أنْ يَكونَ للهِ قُدرَتانِ، وقدْ أجمعَ المُسْلِمونَ على بُطلانِ ذلكَ، وأيضاً لو

---

(١) قال الشيخ عبدالعزيز الرشيد في «التنبيهات السنية» (٩٢): وقد ردّ ابن القيم على المبتدعة الذين عطلوا صفة اليد وزعموا أن المراد باليد القدرة أو النِّعْمَة أو غير ذلك من التأويلات الفاسدة من وجوه عديدة أنهاها إلى عشرين وجهاً... وانظر «الصواعق المرسلة» (٣٧٠).

....

كانَ المُرادُ باليَدِ النِّعْمَةَ، لكانَ المَعنى أنه خَلَـقَ آدمَ بِنِعمتيـنِ، وهـذا بـاطلٌ؛ لأنَّ نِعَمَ اللهِ كَثيرةٌ لا تُحصى ولَيستْ نِعْمَتَينِ فقَطْ.

١٢ـ إثبات
العينين لله تعالى

وقولُهُ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [سورة الطور: ٤٨]، ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [سورة القمر: ١٣-١٤]، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [سورة طه: ٣٩].

الشرح:

﴿وَاصْبِرْ﴾ الصَّبرُ لُغةً: الحَبسُ والمَنعُ، فهو حَبسُ النَّفسِ عَنِ الجَزعِ، وحَبسُ اللسانِ عَنِ التَّشكي والتَّسخُّطِ، وحَبسُ الجَوارِحِ عن لطمِ الخُدودِ وَشقِّ الجُيوبِ[1] ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لِقضائِهِ الكَونيِّ والشَّرعيِّ ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أيْ: بِمَرأى منا وتحتَ حِفظنا، فلا تُبالِ بأذى الكُفارِ، فإنَّهم لا يَصِلونَ إليكَ.

قوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ أي: نُوحاً عَليهِ السَّلام ﴿عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ أيْ: على سَفينةٍ ذاتِ أخشَابٍ عَريضةٍ، ومَساميرَ شُدَّتْ بِها تلكَ الألواحُ، مفردُها: دِسارٌ. ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أيْ: بِمَنظر ومرأى منا وحفظ لها. ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أيْ: فعَلنا بنوحٍ عليهِ السَّلامُ وبقومِهِ ما فعلنا من إنجائِهِ وإغراقِهِم ثواباً لمن كُفِر به وجُحِدَ أمرُهُ، وهو نُوحٌ عليهِ السَّلامُ.

---

(١) «عدة الصابرين» لابن القيم (٣٣) دار ابن الجوزي، و«التنبيهات السنية» للرشيد. (٩٣).

....

وقولُهُ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ الخِطابُ لِموسى عليهِ السَّلامُ، أيْ: وضَعْتُها عليكَ فأحببتُكَ وحبَّبتُكَ إلى خَلقي. ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أيْ: ولتُربَّى وتُغذَّى بمرأى مني، أراكَ وأحْفَظُكَ.

الشَّاهِدُ منَ الآياتِ:

أنَّ فِيهَا إثباتَ العَينينِ للهِ تَعالى حقيقةً على ما يَليقُ بهِ سُبحانَهُ. فقدْ نَطقَ القُرآنُ بلفظِ العينِ مضافةً إليه مُفردةً ومجموعةً، ونطقتِ السُّنةُ بإضافَتِها إليهِ مثناةً، وقالَ النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ ربَّكُمْ لَيسَ بأعوَرَ»[1]، وذلكَ صريحٌ بأنَّهُ لَيسَ المُرادُ إثباتَ عينٍ واحدةٍ فإنَّ ذلكَ عورٌ ظَاهرٌ تَعالى اللهُ عنهُ.

ولغةُ العَربِ جاءتْ بإفرادِ المُضافِ وتثنيتِهِ وجمعِهِ بحسبِ أحوالِ المُضافِ إليهِ، فإنْ أضافُوا الواحدَ المُتصلَ إلى مُفردٍ أفردوهُ، وإنْ أضافُوا إلى جَمعٍ ظاهراً أو مضمراً فالأحسنُ جَمعُهُ مشاكلةً للَّفظِ، كقولِهِ سُبحانهُ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، وكقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعاماً﴾، وإنْ أضافوهُ إلى اسمٍ مثنىً فالأصحُّ في لغتِهِم جَمعُهُ، كقولِهِ: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، وإنما هما قلبانِ، فلا يَلتبسْ على السَّامعِ قولُ المُتكلِّمِ نراكَ بأعينِنا ونأخذُكَ بأيدينا، ولا يفهمُ منهُ بشرٌ على وجهِ الأرضِ

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٢٧) ومسلم (١٦٩).

....

عيوناً كَثيرةً على وجهٍ واحدٍ. واللهُ أعلمُ[١].

(١) انظر «الرسالة المدنية» لابن تيمية (٦١) و«فتح رب البرية بتلخيص الحموية» للعثيمين (٧١) و«الكواشف الجلية» (٢٥٣) و«شرح العقيدة الواسطية» للعثيمين (١/ ٣١٢).

١٣ـ إثبات
السمع والبصر لله تعالى

وقولُهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُما إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [سورة المجادلة: ١]، وقَولُهُ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [سورة آل عمران: ١٨١]، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٨٠]، ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [سورة طه: ٤٦]، وقولُهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ [سورة العلق: ١٤]، ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ، وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة الشعراء: ٢١٨-٢٢٠]، ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة التوبة: ١٠٥].

الشرح:

﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي﴾ وهي خَولةُ بنتُ ثعلبةَ ﴿تُجَادِلُكَ﴾ أيُّها النَّبيُّ، أيْ: تُراجعُكَ الكلامَ في شأنِ ﴿زَوْجِهَا﴾ وهُو: أوسُ بنُ الصَّامِتِ، وذلكَ حينَ ظاهرَ منهَا ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ﴾ معطوفٌ على ﴿تُجَادِلُكَ﴾، وذلكَ أنَّهُ كلَّما قالَ لها رَسُولُ الله ﷺ: «قدْ حَرُمتِ عَليهِ» قالَتْ: واللهِ ما ذكرَ طلاقاً، ثم تقولُ: أشكو إلى اللهِ فاقتي ووحدتي، وأنَّ لي صِبيةً صِغاراً إن ضَمَمْتُهُم إليه ضَاعُوا، وإن ضَممتُهُم إليَّ جاعُوا، وجعلتْ تَرفعُ رأسَها

....

إلى السَّماءِ وتَقُولُ: اللَّهمَّ إني أشكو إليكَ[1].

﴿وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُما﴾ أي: تراجُعَكما في الكلام ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يسمعُ كلَّ الأصواتِ، ويُبصرُ ويرى كُلَّ المَخلوقاتِ، ومن جملةِ ذلكَ ما جادَلتْكَ بهِ هذه المَرأةُ.

وقولُهُ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ هُمْ قَومٌ مِنَ اليَهودِ قالوا هَذهِ المقالةَ لما أنزلَ اللهُ: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ الآية [البقرة: ٢٤٥]، قالُوا ذلكَ تمويهاً على ضعفائِهم، لا أنَّهُم يَعتقِدونَ ذلكَ؛ لأنَّهم أهلُ كِتابٍ، وإنَّما قَالُوا ذلكَ لِيُشكِّكُوا في دينِ الإسْلامِ، وقولُهُ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ ما يُسرونَ بهِ في أنفُسِهم أوْ ما يتَحادَثونَ بهِ سراً في مكانٍ خالٍ، ﴿وَنَجْوَاهُم﴾ أي: ما يَتناجَونَ بهِ فيما بينَهُم، والنَّجوى: ما يتحدَّثُ بهِ الإنسانُ معَ رفيقِهِ ويُخفيهِ عن غَيرِهِ. ﴿بَلَى﴾ نسمعُ ذلكَ ونعلمُ بهِ ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: الحفظةُ عندَهمْ يَكتُبونَ جَميعَ ما يَصدرُ عنهُمْ من قَولٍ أوْ فِعلٍ.

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ يقولُ تَعالى لمُوسَى وأخيهِ هَارونَ عَليهما

---

(١) أصل القصة ثابت وصحيح، فقد رواها البخاري تعليقاً في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ والنسائي (٣٤٦٠) وابن ماجه (١٨٨) وصححه الألباني، وانظر تفصيل الروايات في «تفسير ابن كثير» بتحقيق عبدالرزاق المهدي.

....

السَّلامُ لما أرْسَلَهُما إلى فِرعونَ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ أيْ: بحفظي وكَلاءتي ونَصْري لكُما ﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ أيْ: أسمعُ كَلامَكُما وكلامَ عدوِّكما، وأرى مَكانَكما، ومكانَه، وما يجري منكُمَا ومنهُ. وهَذا تَعليلٌ لقولِهِ: ﴿لاَ تَخَافَا﴾.

قولُهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ أبو جهلٍ حينَما نَهى رَسولَ اللهِ ﷺ عَنِ الصَّلاةِ ﴿بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ أيْ: أما عَلِمَ أن اللهَ يَراهُ ويَسمعُ كَلامَهُ، وسيُجازيهِ على فعلِهِ أتمَّ الجَزاءِ، والاستفهامُ للتقريعِ والتَّوبيخِ.

قولُهُ: ﴿الَّذِي يَرَاكَ﴾ أيْ: يُبصرُك ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ للصلاةِ وحدَك ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ أيْ: ويراكَ إنْ صليْتَ في الجَماعةِ راكعاً وساجداً وقائِماً ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما تقولُهُ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بهِ.

قولُهُ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ﴾ أيْ: قُل يا مُحمَّدُ لهؤلاءِ المُنافقينَ: اعملُوا ما شِئتُم واستمرُّوا على باطِلكم، ولا تحَسبوا أن ذلكَ سيخفى ﴿فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أيْ: ستظهرُ أعمالُكم للناسِ وتُرى في الدُّنيا ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ بعدَ الموتِ ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيُجازيكمْ على ذَلكَ.

الشَّاهدُ من الآياتِ الكريمةِ:

فِي هَذهِ الآياتِ وصفُ اللهِ سبحانَهُ بالسَّمعِ والبصرِ، وأنَّهُ تَعالى يسمعُ ويُبصرُ حقيقةً على ما يَليقُ بهِ، منزهٌ عن صِفاتِ المَخلوقينَ ومماثلتِهم، فالآياتُ صريحةٌ في إثباتِ السمعِ والبَصرِ حيثُ جَاءَ فيهَا إثباتُ السَّمعِ للهِ

....

بلفظِ الماضي والمُضارِعِ واسمِ الفَاعلِ؛ سَمِعَ ويَسْمَعُ وسَميع. ولا يَصحُّ في كلامِ العَربِ أنْ يُقالَ لشيءٍ: هُو سَميعٌ بَصيرٌ إلا وذلكَ الشيءُ يسمعُ ويُبصرُ، هَذا هُو الأصلُ، فَلا يُقالُ: جبلٌ سَميعٌ بَصيرٌ؛ لأنَّ ذلكَ مُستحيلٌ إلاَّ لمَنْ يسمعُ ويُبصرُ.

١٤ـ إثبات
المكر والكيد لله تعالى على ما يليق به

وقَولُهُ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [سورة الرعد: ١٣]، وقولُهُ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٥٤].

وقَولُهُ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [سورة النَّمل: ٥٠]، وقَولُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً، وَأَكِيدُ كَيْداً﴾ [سورة الطارق: ١٥-١٦].

الشرح:

قولُهُ: ﴿وَهُوَ﴾ أيْ: اللهُ سُبحانَهُ ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ المَحلُ: في اللغةِ: الشدةُ، أيْ: شديدُ الكَيدِ، قالَ الزَّجاجُ: يُقالُ: ماحلته محالاً: إذا قاويته حتى يتبين أيُّكُما أشدُّ. وقالَ ابنُ الأعرابيِّ: المِحالُ: المَكرُ. فهُو سبحانَهُ شَديدُ المَكرِ وشَديدُ الكَيدِ، والمكرُ من اللهِ[1] إيصالُ المَكروهِ إلى مَنْ يستحقُّهُ من حَيثُ لا يشعرُ.

وقولُهُ: ﴿وَمَكَرُواْ﴾ أي: الذينَ أحسَّ عيسى منهم الكُفرَ، وهُمْ كُفارُ بني إسرائيلَ الذينَ أرادوا قَتلَ عيسى وصلبَهُ، والمَكرُ: فعلُ شَيءٍ يُرادُ بهِ ضدُّه. ﴿وَمَكَرَ اللهُ﴾ أيْ: استدرَجَهُم وجازاهُم على مَكرِهِمْ، فألقى شَبهَ عيسى على غَيرِهِ، ورفعَ عيسى إليهِ. ﴿وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أيْ: أقواهُمْ وأقْدَرُهم على إيصالِ الضرر لمَنْ يستحقُّه مِنْ حيثُ لا يشعرُ ولا يحتسِبُ.

---

(١) قول النَّحاس، انظره في «تفسير القرطبي» (٩/ ٢٩٩).

....

وقولُهُ: ﴿وَمَكَرُواْ﴾ أيْ: الكُفارُ الذينَ تَحالفوا على قَتلِ نبي اللهِ صَالحٍ عَليهِ السَّلامُ وأهلِهِ خِفيةً خوفاً من أوليائِهِ ﴿وَمَكَرْنَا مَكْراً﴾ جازيناهُمْ بفعلِهم هذا، فأهلكناهُمْ ونجَّينا نبيَّنا ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ بمكرِنا. وقولُهُ: ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: كُفارُ قُريشٍ ﴿يَكِيدُونَ كَيْداً﴾ أيْ: يمكُرونَ لإبطالِ ما جاءَ بهِ مُحمَّدٌ ﷺ من الدينِ الحقِّ ﴿وَأَكِيدُ كَيْداً﴾ أيْ: أستدرِجُهُم وأُجازيهم على كَيدِهم فآخذُهم على غِرَّةٍ وهم لا يَشْعرونَ.

الشاهدُ مِنَ الآياتِ:

في هذهِ الآياتِ وصفُ اللهِ بالمَكرِ والكيدِ، ونسبةُ ذلك إليهِ سُبحانهُ حقيقةٌ على بابهِ، فإنَّ المَكرَ: إيصالُ الشَّيءِ إلى الغَيرِ بطريقٍ خفيٍّ، وكذلكَ الكيدُ والمُخادعةُ، والمكرُ والكيدُ نوعانِ[1]: قَبيحٌ: وهُو إيصالُ ذلكَ لمَن لا يستَحِقُّه، وحَسنٌ: وهو إيصالُه إلى مَنْ يستحقُّه عقوبةً لهُ، فالأولُ مذمومٌ، والثاني ممدوحٌ. والرَّبُّ تَعالى إنما يفعلُ من ذلكَ ما يُحمدُ عليهِ عدلاً منهُ وحكمةً، وهُو تَعالى يأخذُ الظالمَ والفاجرَ مِنْ حيثُ لا يحتَسبُ، لا كما يَفعلُ الظلمةُ بِعبادِ اللهِ. واللهُ أعلمُ.

واللهُ سُبحانهُ لم يَصِفْ نفسَهُ بالكيدِ والمكرِ والخداعِ إلاَّ على وجهِ الجَزاءِ لمَنْ فعلَ ذلكَ بغيرِ حقٍّ. وقدْ عُلِمَ أنَّ المجازاةَ حسنةٌ من المَخلوقِ فكيفَ بالخَالِقِ سُبحانَهُ وتَعالى؟!

---

(١) انظر «الصواعق المرسلة» لابن القيم (٢٩١) و«التنبيهات السنية» للرشيد (١٠٣).

....

تنبيـــهٌ: نسبةُ الكيدِ والمَكرِ ونحوِهما إليهِ سُـبحانَهُ مـن إطـلاقِ الفِعـلِ عَليهِ تَعالى، والفعلُ أوسعُ مِنَ الاسمِ؛ ولهذا أطلقَ اللهُ على نَفسِهِ أفعالاً لم يَتسَمَّ منها بأسماء الفاعلِ، كأرادَ وَشاءَ فلم يُسَمَّ بالمريدِ والشائي. وكذا مَكرَ ويمكُرُ، وأكيدُ كَيْداً، فلا يُقالُ: الماكرُ والكـائِدُ؛ لأنَّ مُسـمَّياتِها تنقسـمُ إلـى ممدوحٍ ومذْمومٍ.

١٥ـ وصف الله بالعفو والمغفرة والرحمة والعزة والقدرة

وقَولُهُ تَعَالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوء فَإِنَّ الله كَانَ عَفُوًّا قَدِيراً﴾ [سورة النِّساء: ١٤٩]، وقَولُهُ: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُواْ أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ الله لَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة النُّور: ٢٢]، وقَولُهُ: ﴿وَلله الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [سورة المنافقون: ٨]، وقَولُهُ عَن إبليسَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة ص: ٨٢].

الشرح:

﴿إِن تُبْدُواْ خَيْراً﴾ أيْ: تُظْهروهُ ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فتعمَلُوهُ سِراً. ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوءٍ﴾ أيْ: تتجاوزوا عمَّنْ أساءَ إليكمْ ﴿فَإِنَّ الله كَانَ عَفُوّاً﴾ عن عِبادِهِ يَتجاوزُ عنهُم ﴿قَدِيراً﴾ على الانتقامِ منهُم بِمَا كَسبتْ أيديهم، فاقْتَدُوا به سُبحانَهُ فإنَّه يعفو معَ القدرةِ.

قولُهُ: ﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ أيْ: ليسْتُر ويتجاوزْ أولو الفضلِ والسَّعةِ المَذكورون في أولِ الآيةِ ﴿وَلْيَصْفَحُواْ﴾ بالإعراضِ عن الجَاني والإغماضِ عن جِنايتهِ ﴿أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ الله لَكُمْ﴾ بسببِ عفوكِم وصفحِكم عن المسيئينَ إليكمْ ﴿وَالله غَفُورٌ﴾ كَثيرُ المَغفرةِ ﴿رَحِيمٌ﴾ كَثيرُ الرحمةِ.

قولُهُ: ﴿وَلله الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ هذا رَدٌّ عَلى المُنافقينَ الذين زَعمُوا أنَّ العزةَ لهمْ على المُؤمنينَ، والعزةُ: هي القُوةُ والغَلَبةُ، وهي للهِ وحدَهُ ولمن أفاضَها عليه مِنْ رُسلِهِ وصالحي عَبيدِهِ لا لغيرِهم.

....

وقولُهُ عن إبليسَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ أقسمُ بعزةِ اللهِ تعالى: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأُضِلَّنَّ بني آدمَ بتزيينِ الشَّهواتِ لهمْ وإدخالِ الشُّبهاتِ عليهم حتى يَصيروا غاوينَ جَميعاً. ثمَّ لمَّا عَلِمَ أن كيدَه لا ينجحُ إلا في أتباعهِ من أهلِ الكُفرِ والمَعاصي استثنى فقالَ: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

الشاهدُ من الآياتِ:

أنَّ فيها وصف اللهِ بالعَفوِ والقُدرةِ والمَغفرةِ والرحمةِ والعزةِ، وهي صِفاتُ كمالٍ تليقُ بهِ.

١٦ـ إثبات الاسم لله ونفي المثل عنه

وقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن: ٧٨]، وقَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [سورة مريم: ٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: ٤]، وقَوْلُهُ: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لله أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٢]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله ِ﴾ [سورة البقرة: ١٦٥].

الشرح:

﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ البركةُ لغةً: النَّماءُ والزِّيادةُ، والتَّبريكُ: الدُّعاءُ بالبَركةِ، ومعنى ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ : تَعاظَمَ أو علا وارتفَعَ شأنه، وهذا اللفظُ لا يُطلقُ إلا على اللهِ[1] ﴿ذِي الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾ تقدَّمَ تفسيرُه في آياتِ إثباتِ الوجهِ.

قولُهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ أيْ: أفرِدْهُ بالعِبادةِ، ولا تعبدْ معهُ غيرَهُ، والعبادةُ لُغةً: الذُّلُّ والخُضوعُ، وشرعاً[2]: اسمٌ جامعٌ لما يُحبُّهُ اللهُ ويرضاهُ مِنَ الأعمالِ

(١) قال الراغب الأصفهاني في «مفردات ألفاظ القرآن» (١٢٠): [وكل موضعٍ ذُكر فيه لفظ «تبارك» فهو تنبيه على اختصاصه تعالى بالخيرات المذكورة].

(٢) «العبودية» (٣٨) طبعة المكتب الإسلامي و«بدائع التفسير» لابن القيم (١/ ٢٠١-٢٠٢).

....

والأقوال الظاهرةِ والباطِنةِ ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أيْ: اثبتْ على عِبادتِهِ ولازِمها واصبرْ على مَشاقِّها ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ الاستفهامُ للإنكارِ، والمَعنى: أنهُ ليسَ لهُ مثلٌ ولا نَظيرٌ حتى يُشاركَهُ في العِبادةِ.

وقولُهُ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ الكفءُ في لُغةِ العَربِ: النَّظيرُ، أيْ: ليسَ له نَظيرٌ ولا مَثيلٌ ولا شَريكٌ من خَلقِهِ. وقولُهُ: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لله أندَاداً﴾ النِّدُّ في اللغةِ: المثلُ والنَّظير والشَّبيهُ، أيْ: لا تتخذوا للهِ أمثالاً ونظراءَ، تعبدونَهم معهُ، وتساوونَهم به في الحبِّ والتَّعظيمِ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنهُ ربُّكمْ وخالقُكُم وخالقُ كُلِّ شَيءٍ، وأنه لا ندَّ له يشاركُهُ في الخَلقِ.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أندَاداً﴾ لما فَرغَ سبحانهُ من ذكرِ الدليلِ على وحْدانيتهِ في الآيةِ التي قَبلها أخبرَ أنَّهُ معَ هذا الدليلِ الظاهرِ المُفيدِ لعظيمِ سُلطانِهِ وجليلِ قُدرتِهِ وتفرُّده بالخَلق، أخبرَ أنَّهُ مع ذلك قد وُجِدَ في النَّاسِ مَنْ يتَّخذُ معهُ سُبحانهُ نداً يعبدُهُ منَ الأصْنامِ العَاجزةِ ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله﴾ أيْ: أنَّ هؤلاءِ الكُفارَ لم يَقتصروا على مُجرَّدِ عبادةِ تلكَ الأندادِ، بلْ أحبُّوها حباً عَظيماً، وأفرطوا في حُبِّها كما يُحبونَ اللهَ، فقدْ سوَّوْهم باللهِ في المَحبةِ، لا في الخَلقِ والرزقِ والتَّدبيرِ.

الشاهدُ من الآياتِ:

أنَّ فيها إثباتَ اسمِ اللهِ وتعظيمِه وإجلالِه، وفيها نَفيُ السَّميِّ والكفءِ

....

والنِّـدِّ عَنِ اللهِ سُبحانَهُ، وهو نفيٌ مجملٌ، وهذهِ هـي الطَّريقـةُ الـواردةُ فـي الكِتابِ والسُّنَّةِ فيما يُنفى عن اللهِ تعالى، وهي أن يُنفى عن اللهِ عـزَّ وجـلَّ كُلُّ ما يُضادُّ كمالَهُ الواجبَ من أنواعِ العُيوبِ والنَّقائِصِ.

١٧ـ نفي
الشريك عن الله تعالى

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ [سورة الإسراء: ١١١]، ﴿يُسَبِّحُ لله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة التغابن: ١]، وقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [سورة الفرقان: ١-٢]، ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٩١-٩٢]، ﴿فَلاَ تَضْرِبُواْ لله الأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النَّحل: ٧٤]، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٣٣].

الشرح:

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ﴾ الحمدُ: هو الثَّناءُ، و(أل) فيه للاستغراق[١]، أي:

---

(١) والاستغراق: هو الشمول لجميع الأفراد بحيث لا يخرج عنه شيء. «التعريفات» =

....

الحمدُ كلُّهُ للهِ ﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ أيْ: لَيسَ لهُ ولدٌ، كما تقولُـهُ اليهـودُ والنَّصارى وبعضُ مُشركي العَربِ. ﴿وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْـكِ﴾ أيْ: ليسَ له مُشاركٌ في ملكِهِ وربوبيتِهِ، كما تقولُ الثنويةُ[(١)] ونحوهم ممن يَقُـولُ بتعددِ الآلهةِ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ أيْ: ليسَ بذَليلٍ فيحتاجَ إلـى أنْ يَكونَ له وَلـيٌّ أوْ وَزيـرٌ أو مُشـيرٌ، فـلا يُحـالِفُ أحـداً، ولا يَسـتنصرُ بـأحدٍ ﴿وَكَـبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ أيْ: عظِّمهُ وأجلَّهُ عمَّا يقولُهُ الظالِمونَ.

قولُهُ: ﴿يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أيْ: تُنزهُهُ جميـعُ مخلوقاتِهِ التي في سَماواتِهِ وأرضِهِ عنْ كُلِّ نقصٍ وعَيـبٍ ﴿لَـهُ الْمُلْـكُ وَلَـهُ الْحَمْدُ﴾ يَختصانِ به ليسَ لغيرِهِ منهما شَيءٌ، وما كـانَ لِعبـادِهِ مـن المُلكيـةِ فهو من عَطائِهِ ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يُعجزُهُ شَيءٌ.

﴿تَبَارَكَ﴾ فعـلٌ مـاضٍ مـأخوذٌ مـن البَركـةِ[(٢)]، وهـي: النَّمـاءُ والزيـادةُ المستقرةُ الثابتةُ الدائمةُ، وهـذه اللفظـةُ لا تُسـتعملُ[(٣)] إلاَّ للهِ سـبحانهُ، ولا تُستعملُ إلاَّ بلفظِ الماضي ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ أيْ: القرآنَ، سُمِّيَ

= (٢٨) وانظر «التنبيهات السنية» (١١١).

(١) وهي ديانات مجوسية تقـول بـأن العـالم مصنـوع ومركـب مـن أصليـن قديميـن أحدهما نور والآخـر ظلمـة، وأنهمـا أزليـان مثـل الديانـة الزرادشـتية والمرقونيـة والماثونية والإيصانية والمزدكية. «الملل والنِّحل» (٢/ ٧٢).

(٢) «التنبيهات السنية» للرشيد (١٠٧).

(٣) «بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/ ١٨٥).

....

فرقاناً[1]؛ لأنَّه يفرقُ بينَ الحقِّ والباطِلِ ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ يَعني: محمداً ﷺ، وهذه صفةُ مدحٍ وثناء؛ لأنَّه أضافهُ إليـهِ إضافـةَ تشـريفٍ وتكريمٍ فـي مقـامِ إنزالِ القُرآنِ عليهِ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ﴾ الإنسِ والجِنِّ، وهذا من خُصوصياتِهِ ﷺ ﴿نَذِيراً﴾ أيْ: منذراً، مأخوذٌ من الإنذارِ وهو الإعلامُ بأسبابِ المخافـةِ.

وقولُهُ: ﴿لِيَكُونَ﴾ تعليلٌ لإنزالِ الفُرقانِ عليهِ، أيْ: يخصُّهُ بالرسالةِ العامةِ.

ثم وصفَ نفسَهُ سبحانهُ بأربعِ صفاتٍ:

الأولى: قولُهُ: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ دونَ غـيرِهِ، فهُـو المتصرفُ فيهما وحدَهُ.

الصفةُ الثانية: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ كما تزعمُ النَّصارى واليهـودُ؛ وذلـكَ لكمالِ غناه وحاجةِ كلِّ مخلوقٍ إليهِ.

الصفةُ الثالثة: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ فيه ردٌّ علـى طوائـفِ المُشركينَ من الوثنيةِ والثنويةِ وغيرِهم.

الصفةُ الرابعة: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من المَخلوقاتِ.

ويدخلُ في ذلكَ أفعالُ العبـادِ فهـي خلـقُ اللهِ وفعـلُ العَبـدِ ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾، أيْ: قدَّر كُـلَّ شـيءٍ ممـا خلـقَ مِـنَ الآجـالِ والأرزاقِ والسَّعادةِ والشقاوةِ، وهيَّأ كُلَّ شيءٍ لما يصلحُ لهُ.

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٨١) و«بصائر ذوي التمييز» للفيروز أبادي (١/ ٨٣).

....

قالَ ابنُ كثيرٍ[١]: نزَّهَ نفسَهُ عنِ الوَلدِ وعنِ الشريكِ، ثم أخبرَ أنَّهُ خلقَ كلَّ شيءٍ فقدَّرهُ تقديراً، أيْ: كُلُّ شيءٍ مما سِواهُ مَخلوقٌ مربوبٌ، وهو خالقُ كلِّ شَيءٍ وربُّه ومليكُه وإلهُهُ، وكلُّ شيءٍ تحتَ قهرِهِ وتَدبيرِهِ وتَسخيرِهِ وتقديرِهِ. انتهى.

قولُهُ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـهٍ﴾ فِي هَذهِ الآيةِ ينزهُ تعالى نفسَهُ عن أن يَكونَ لهُ ولدٌ أوْ شَريكٌ في المُلكِ والتَّصرفِ والعِبادةِ، و﴿مِنْ﴾ في الموضعينِ لتأكيدِ النَّفيِ، ﴿إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ هذا استدلالٌ لما سبقَ في أول الآيةِ من نفيِ الولدِ والشَّريكِ في الألوهيةِ، أيْ: لو قُدِّرَ تعددُ الآلهةِ لانفردَ كُلٌّ منهمْ عن الآخرِ بما خلَقَ، وحينئذٍ لا ينتظمُ الكونُ لوجودِ الانقسامِ. والواقعُ المُشاهدُ أنَّ الكَونَ منتظمٌ أتمَّ انتظامٍ لم يَحصلْ فيهِ تعددٌ ولا انقسامٌ. ﴿وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أيْ: ولَوْ كانَ معهُ إلهٌ آخرُ لكانَ كُلٌّ منهم يطلبُ قهرَ الآخرِ ومخالفَتَه، فيعلو بعضُهُم على بعضٍ كحالِ ملوكِ الدُّنيا، وحينئذٍ فذلك المغلوبُ الضعيفُ لا يستحقُّ أنْ يَكونَ إلهاً.

وإذا تقررَ بُطلانُ المُشاركِ تعيَّنَ أنْ يَكونَ الإلَهُ واحداً هو اللهُ وحدَه؛ ولهذا قالَ: ﴿سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ﴾ مِنَ الشَّريكِ والولدِ ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أيْ: هو المُختصُّ بعملِ ما غابَ عن العِبادِ وعلمِ ما يشاهدونَهُ،

---

(١) في «التفسير» (٤/ ٥٨٢).

....

وأما غيرُه فهو وإنْ عَلِمَ شيئاً من المشاهدِ فإنَّـهُ لا يعلـمُ الغيـبَ ﴿فَتَعَـالَى﴾ أيْ: تنزَّهَ اللهُ وتقدَّسَ ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بهِ، فهو سُبحانَهُ متعالٍ عن أن يكونَ لهُ شريكٌ في المُلكِ.

قولُهُ: ﴿فَلاَ تَضْرِبُواْ للهِ الأَمْثَالَ﴾ ينهى سُبحانه عنْ ضَربِ الأمثـالِ لـه. وضَربُ المَثلِ هو تَشبيهُ حالٍ بحالٍ، وكانَ المُشركونَ يَقولونَ: إنَّ اللهَ أجـلُّ مِنْ أن يعبُدَهُ الواحدُ منــا، فـلا بُـدَّ مـن اتخـاذِ واسـطةٍ بيننـا وبينَـهُ، فكـانوا يتوسَّلونَ إليه بالأصنامِ وغيرِها، تشبيهاً لهُ بملوكِ الدُّنيا، فنهَـى سُـبحانَهُ عـن ذلكَ؛ لأنَّهُ سبحانهُ لا مثـلَ لـهُ، فـلا يُمثَّـلُ بخلقِـهِ ولا يُشـبَّهُ بهـمْ ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ﴾ أنهُ لا مثلَ لهُ ﴿وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُـونَ﴾ ففعلُكُـم هـذا صـدرَ عَـنْ توهُّـمٍ فاسدٍ وخاطرٍ باطلٍ، ولا تَعلمــونَ أيضـاً مـا فـي عِبـادةِ الأصنـامِ مِـنْ سُـوءِ العاقِبةِ.

وقولُهُ: ﴿قُلْ﴾ الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ، وفـي ذلـكَ دليـلٌ علـى أنَّ القُـرآنَ كلامُ اللهِ، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ مبلغٌ عن اللهِ[1]. ﴿إِنَّمَا﴾ أداةُ حصرٍ ﴿حَـرَّمَ رَبِّـيَ الْفَوَاحِشَ﴾ أيْ: جَعَلها حراماً، والفَواحِش: جَمعُ فاحِشة، وهـي مـا تَنـاهى قُبحُه مِنَ المَعاصي ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أيْ: ما أُعلِـنَ منهـا ومـا أسـرَّ ﴿وَالإِثْمَ﴾ كلُّ معصيةٍ يتسببُ عنهَا الإثمُ، وقيلَ: هو الخَمرُ خاصةً ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أيْ: الظُّلمُ المجَاوزُ للحـدِّ والتَّعدي على النَّاسِ ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ

(١) انظر «التنبيهات السنية» (١٢٠).

....

بالله﴾ أيْ: تَجعلوا لهُ شَريكاً في العِبادةِ. ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ أيْ: حُجَّةً وبُرهاناً. وهذا موضعُ الشاهدِ منَ الآيةِ ﴿وَأن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ من الافتراء والكَذبِ من دَعوى أنَّ لهُ ولداً، ونحو ذلكَ ممَّا لا عِلمَ لكمْ بهِ، ومِثلَ ما كانوا يَنسبونَ إليهِ منَ التحليلاتِ والتَّحريماتِ التي لم يأذنْ بهَا.

الشاهدُ من هذهِ الآياتِ الكريمةِ:

أنَّ فيها نَفي الشَّريكِ عن اللهِ تَعالى، وإثباتَ تفردهِ بالكمال، ونفيَ الولدِ والمثلِ عنهُ سُبحانه، وأنَّ جميعَ مخلوقاتهِ تُنزِّهُهُ عن ذلك وتُقدِّسُهُ، كما أنَّ فيهَا إقامةَ الحجةِ على بُطلانِ الشركِ، وأنهُ مبنيٌّ على جهلٍ وخيالٍ. وأنَّهُ سُبحانه لا مثلَ لهُ ولا شَبيهَ لهُ. واللهُ أعلمُ.

١٨ـ إثبات
استواء الله على عرشه

وقَولُهُ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، في سَبعِ مَواضِع، في سُورةِ الأعرافِ قَولُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [سورة الأعراف: ٥٤] وقالَ في سُورةِ يُونسَ عَليهِ السَّلامُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [سورة يونس: ٣]، وقالَ في سُورةِ الرَّعدِ: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [سورة الرعد: ٢] وقالَ في سُورةِ طه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه: ٥]، وقالَ في سُورةِ الفُرقانِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحمَنِ﴾ [سورة الفرقان: ٥٩]، وقالَ في سُورةِ الم السَّجدَةِ: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [سورة السجدة: ٤]، في سُورةِ الحَديدِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [سورة الحديد: ٤].

الشرح:

أيْ: قد وردَ إثباتُ استواءِ اللهِ على عَرشِهِ في سَبعِ آياتٍ من كِتابِ اللهِ، كُلُّها قد وردَ فيها إثباتُ الاستواءِ بلفظٍ واحدٍ هو: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ فهوَ نصٌّ في معناه الحَقيقيِّ، لا يحتملُ التأويلَ بمعنًى آخرَ،

....

والاستواءُ: صفةٌ فعليةٌ ثابتةٌ للهِ سُبحانهُ على ما يَليقُ بجلالِهِ كسائرِ صفاتِهِ، ولهُ في لغةِ العَربِ أربعةُ معانٍ[١]: هيَ: علا، وارتفعَ، وصعدَ، واستقرَّ، وهذه المعاني الأربعةُ تدورُ عليها تفاسيرُ السلفِ للاستواءِ الواردِ في هذه الآياتِ الكريمةِ.

فقولُهُ في الآيةِ الأُولى والثَّانيةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ﴾ أيْ: هو خالقُكُم ومُربِّيكُم بنعمِهِ، والذي يجبُ عليكُم أنْ تَعبدُوهُ وحدَه ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أيْ: هو خالقُ العَالمِ؛ سماواتِهِ وأرضِهِ وما بينَ ذلكَ ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هي: الأحدُ والاثنينِ والثُلاثاءُ والأربعاءُ والخَميسُ والجُمعةُ، ففي يَومِ الجُمعةِ اجتمعَ الخلقُ كلُّهُ وفيهِ خُلِقَ آدمُ[٢] عَليهِ السَّلامُ، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أيْ: علا وارتفعَ على العرشِ كما يَليقُ بجَلالِهِ، وهذا محلُّ الشاهِدِ منَ الآيةِ، والعَرشُ: فِي اللغةِ: هو سريرُ المَلكِ[٣]، والمُرادُ بهِ هنا -كما يدلُّ عليهِ مجموعُ النُّصوصِ- سريرٌ ذو قوائِمَ تحمِلُهُ

(١) أفرد ابن القيم -رحمه الله- باباً في كتابه «اجتماع الجيوش الإسلامية» حول أقوال أئمة اللغة العربية الذين يحتج بقولهم في معاني الاستواء (١٦٧)، وكذا أسامة القصاص في كتابه «إثبات علو الله على خلقه والرد على المخالفين» (١/ ١٣٧) واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٣٩٩-٤٠٠).

(٢) كما ورد في الحديث الذي رواه ابن ماجه (١٠٨٤) وأحمد (٢٤١٨٧)، وحسَّن إسناده الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (حديث رقم ٦٩٢).

(٣) انظر «كتاب العرش» لمحمد بن عثمان بن أبي شيبة (٢٥)، و«التنبيهات السنية» (١٢٧).

....

المَلائكةُ، وهو كالقبةِ علىالعالمِ وهو سقفُ المَخلوقاتِ.

وقولُهُ في الآيةِ الثَّالثةِ: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ﴾ أيْ: رَفعَها عنِ الأرضِ رفعاً بعيداً لا يُنالُ ولا يُدرَكُ مداه ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ العمدُ: هي الأساطينُ جمعُ عمادٍ، أيْ: قائمةٌ بغيرِ عمدٍ تعتمدُ عليهَا، بل بقدرتِهِ سُبحانه. وقولُهُ: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيدٌ لنفي العمدِ، وقيلَ: لها عمدٌ ولكنْ لا نراها، والأوَّلُ أصحُّ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ هذا محلُّ الشاهدِ مِنَ الآيةِ الكَريمةِ لإثباتِ الاستواءِ. والكلامُ على بقيةِ الآياتِ كالكلامِ على هذهِ الآيةِ.

ويُستفادُ منهَا جميعاً:

إثباتُ استواءِ اللهِ على عَرشهِ على ما يَليقُ بجلالِهِ، وفيها الردُّ على منْ أوَّلَ الاستواءَ بأنَّه: الاستيلاءُ والقَهرُ، وفسَّرَ العرشَ بأنَّهُ: المُلكُ، فقالَ: استوى على العرشِ معناه: استولى على المُلكِ وقهرَ غيرَهُ(١)، وهذا باطلٌ

---

(١) قال داود بن علي الأصبهاني: كنتُ عند ابن الأعرابي فأتاه رجلٌ فقال: ما معنى قول الله عز وجل: ﴿الرَّحْمَـنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾؟ فقال ابن الأعرابي: هو على عرشه كما أخبر، فقال: يا أبا عبدالله إنما معناه استولى، فقال ابن الأعرابي: ما يُدريك؟ العرب لا تقول: استولى على الشيء حتى يكون له مُضادٌّ فأيهما غلب فقد استَولى، أما سمعت قول النَّابغة:

إلا لمثلك أو من أنت سابقُه   سبقَ الجواد إذا استولى على الأمدِ

«لسان العرب» (١٤/ ٤١٤)، وانظر «مختصر العلو» (١٩٥).

....

من وجوهٍ كثيرةٍ منهَا[1]:

أولاً: أن هذا تَفسيرٌ محدثٌ مخالفٌ لتفسيرِ السلفِ من الصحابةِ والتَّابعينَ وأتباعِهم، وأوَّلُ منْ قالَ به الجَهميةُ والمُعتزلةُ، فهو مردودٌ.

ثانياً: لو كانَ المُرادُ بالاستواءِ على العَرشِ الاستيلاءَ على المُلكِ لم يكُن هناكَ فرقٌ بينَ العَرشِ والأرضِ السابعةِ السُّفلى والدَّوابِ وجميعِ المَخلوقاتِ؛ لأنَّهُ مُستولٍ على الجَميعِ ومالكٌ للجَميعِ، فلا يكونُ لِذِكرِ العَرشِ فائدةٌ.

ثالثاً: أن هذا اللفظَ ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ قدْ اطَّردَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ ولمْ يأتِ في لفظٍ واحدٍ (استولى على العَرش) حتى تُفسَّرَ به بقيةُ النُّصوص

رابعاً: أنه أتى بـ﴿ثُمَّ﴾ التي تُفيدُ الترتيبَ والمهلةَ، فلو كانَ معنى الاستواءِ الاستيلاءَ على العَرشِ والقدرةَ عليهِ لم يتأخرْ ذلك إلى ما بعدَ خلقِ السَّماواتِ والأرضِ فإنَّ العَرشَ كانَ موجوداً قبلَ خلقِ السَّمواتِ وَالأرضِ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، كما ثَبتَ في «صحيح مسلم»[2] فكيفَ يَجوزُ أن يكونَ غيرَ قادرٍ ولا مُستولٍ عليهِ إلى أنْ خلقَ السَّمواتِ والأرضَ؟! هذا مِنْ أبطلِ الباطلِ. واللهُ أعلمُ.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ١١٦) و«التنبيهات السنية» (١٢٦).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٣) ورواه الترمذي (٢١٥٦) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ١١٤) وغيرهم.

١٩ـ إثبات
علو الله على مخلوقاته

وقَولُهُ: ﴿يا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [سورة آل عمران: ٥٥]، ﴿بَل رَّفَعَهُ الله إِلَيْهِ﴾ [سورة النِّساء: ١٥٨]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [سورة فاطر: ١٠]، ﴿يا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ [سورة غافر: ٣٦-٣٧]، ﴿ءَأَمِنتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [سورة الملك: ١٦-١٧].

الشرح:

﴿يا عِيسَى﴾ خطابٌ مِنَ اللهِ تَبارَكَ وتَعالى لِعيسَى ابنِ مَريمَ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ الذي عَليهِ الأكثرُ أنَّ المُرادَ بالوفاةِ هُنا: النَّومُ[(١)]، كَما قَال تَعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقالَ تَعالى: ﴿الله يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مِوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أيْ: رَفعهُ اللهُ إليهِ في السَّماءِ وهُو حيٌّ، وهذا مَحلُّ الشاهِدِ مِنَ الآيةِ، وهو إثباتُ العلوِّ للهِ؛ لأنَّ الرفعَ يكونُ إلى أعلى.

وقولُهُ: ﴿بَل رَّفَعَهُ الله إِلَيْهِ﴾ هذا ردٌّ على اليَهودِ الذينَ يَدعُونَ أنَّهم

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٢).

....

قتلُوا المسيحَ عيسَى ابنَ مَريمَ، فقالَ تَعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾ [النِّساء: ١٥٧]، ﴿بَل رَّفَعَهُ الله إِلَيْهِ﴾ أيْ: رفعَ اللهُ سُبحانَهُ وتَعَالى المسيحَ عليهِ السَّلامُ إليهِ وهُو حيٌّ لم يُقتَلْ، وهذا مَحلُّ الشَّاهِدِ؛ لأنَّ فيهِ إثباتَ علوِّ اللهِ على خَلقِهِ؛ لأنَّ الرفعَ يكونُ إلى أعْلى.

وقولُهُ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ أيْ: إلى اللهِ سُبحَانهُ لا إلى غَيرِهِ يَرتَفعُ ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ أيْ: الذِّكرُ والتِّلاوةُ والدُّعاءُ ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أيْ: العملُ الصَّالحُ يُرفعُ الكلمَ الطيبَ، فإنَّ الكلمَ الطيبَ لا يُقبلُ إلاَّ معَ العملِ الصالِحِ، فمَنْ ذكرَ اللهُ تَعالى ولم يُؤدِّ فرائضَهُ رُدَّ كَلامُهُ، قالَ إياسُ بنُ مُعاويةَ[1]: لولاَ العَملُ الصالِحُ لم يُرفَعِ الكلامُ. وقالَ الحَسنُ وقَتادةُ: لا يقبلُ قولٌ إلا بِعَملٍ. والشَّاهدُ من الآيةِ: أن فيها إثباتَ علوِّ اللهِ على خلقِهِ؛ لأنَّ الصُّعودَ والرفعَ يكونانِ إلى أعلى.

وقولُهُ تَعَالى: ﴿يا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً﴾ هَذا مِنْ مَقُولةِ فِرعونَ لوزيرهِ هَامانَ يأمرُهُ أن يَبنيَ له قَصراً مُنيفاً عَالياً ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ أيْ: طَرقَ السَّمواتِ أو أبوابَها ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَـهِ مُوسَى﴾ بنصبِ ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بأنْ مُضمَرةً بعدَ فاءِ السَّببيةِ، ومعنى مَقالَتِهِ هذهِ: تكذيبُ مُوسى عليهِ السَّلامُ في أنَّ اللهَ أرسَلهُ أو أنَّ له إلهاً في السَّماءِ؛ ولذلكَ قالَ:

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧٧).

....

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ أيْ: فيما يدَّعيهِ من الرِّسالةِ أو فيما يدَّعيهِ بأنَّ لـه إلهـاً في السَّماء، والشَّاهِدُ منَ الآيةِ: أنَّ فيها إثباتَ علوِّ اللهِ على خلقِهِ، حيثُ إنَّ مُوسى عليهِ السَّلامُ أخبرَ بذلكَ وحاولَ فِرعونُ تكذيبَهُ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿ءَأَمِنتُمْ﴾ الأمنُ: ضِدُّ الخَوفِ ﴿مَّن فِـي السَّـمَاءِ﴾ أيْ: عُقوبةَ مَنْ فِي السَّماءِ وهُوَ اللهُ سُبحانهُ، ومعنـى ﴿فِـي السَّـمَاءِ﴾ أي: علـى السَّماء، كقولِهِ تَعالى: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُـذُوعِ النَّخْـلِ﴾[1] وَهـذا إن أُريـدَ بالسَّماءِ السَّماءُ المبنيةُ، وإن أُريدَ بالسَّماء مُطلقُ العُلـو فــ﴿فِـي﴾ للظرفيـةِ، أيْ: في العُلوِّ ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾ أيْ: يَقْلَعُهَا بكم كما فعلَ بقارونَ ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أيْ: تَضطَرِبُ وتتحرَّكُ.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبـاً﴾ أيْ: حجـارةً مـن السَّماء كما أرسلَها على قومِ لُوطٍ وأصحــابِ الفِيـلِ، وقيـلَ: سـحابٌ فيهـا حجارةٌ، وقيلَ: ريحٌ فِيهَا حجارةٌ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيـرِ﴾ أيْ: إنـذاري إذا عاينْتُمُ العذابَ ولا ينفعُكُم حينَذاكَ هذا العِلمُ.

والشاهدُ من الآيتينِ:

أنَّ فيهما إثباتَ عُلـوِّ اللهِ عَلـى خَلقِـهِ، حيـثُ صرَّحتـا أنـه سُبحانه فـي السَّماء فقدْ دلَّتْ هذه الآياتُ التي ذكرَها المُؤلفُ رحمةُ اللهِ عليهِ على إثباتِ العلو، كما دلتْ الآياتُ التي قَبلَها على إثباتِ استواءِ اللهِ عَلى العَرشِ.

---

(١) انظر «إثبات علو الله على خلقه» لأسامة القصاص (١/ ١١٩) ففيه زيادة تفصيل.

....

والفَرقُ بينَ الاستواءِ والعُلوِّ:

١- أنَّ العلوَّ من صِفاتِ الذاتِ، والاستواءَ من صفاتِ الأفعالِ، فعلوُّ اللهِ على خلقِهِ وصفٌ لازمٌ لذاتِهِ، والاستواءُ فعلٌ من أفعالِهِ سُبحانه، يفعلُهُ سبحانَهُ وتَعالى بمشيئتِهِ وقدرتِهِ إذا شَاءَ؛ ولذا قالَ فيهِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ وكانَ ذَلكَ بعدَ خلقِ السَّماواتِ والأرضِ.

٢- أنَّ العلوَّ مِنَ الصِفاتِ الثابتةِ بالعقلِ والنَّقلِ. والاستواءُ ثابتٌ بالنَّقلِ لا بالعَقلِ.

٢٠ـ إثبات
معية الله لخلقه

وقَولُهُ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحديد: ٤]، وقَولُهُ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة المجادلة: ٧]، وقَولُهُ: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: ٤٠]، ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [سورة طه: ٤٦]، ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [سورة النحل: ١٢٨]، ﴿وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٤٦]، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٩].

الشرح:

قولُهُ تَعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ إلى قَولِهِ: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ تَقدَّمَ تفسيرُه[1]، وقولُهُ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أيْ: هو مَعَكُمْ بعلمِهِ، رقيبٌ عليكُمْ شَهيدٌ على أعمَالِكُم حيثُ كُنتُمْ، وأينَ مَا كُنتُم في بَرٍّ

---

(١) في موضع إثبات العلم (ص٣٤)، وإثبات العلو (ص٧٣).

....

أو بَحرٍ، في لَيلٍ أو نَهارٍ، في البُيوتِ أو القِفارِ، الجَميعُ في علمِهِ عَلى السَّواءِ، وتحتَ سمعِهِ وبصَرِهِ، يسمَعُ كلامَكُم ويرى مَكانَكم، وهذا مَحلُّ الشاهدِ من الآيةِ الكَريمةِ ففيهِ إثباتُ المَعيةِ العَامةِ، ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عَليه شيءٌ مِن أعمالِكم.

وقولُهُ تَعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ﴾ النَّجْوى: السِّر، والمَعنى: ما يوجدُ مِنْ تَناجي ثَلاثَةٍ ﴿إلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ أيْ: جاعِلُهم أربعة، وجاعلُهم ستة مِنْ حيثُ إنهُ سُبحانهُ يشاركُهُم في الاطلاعِ على تلكَ النَّجوى، وتخصيصِ هذينِ العَددينِ بالذكرِ؛ لأنَّ أغلبَ عاداتِ المُتناجينَ أنْ يَكُونوا ثلاثةً أو خمسةً، أو أنَّ سببَ النُّزولِ تناجي ثلاثةٍ في واقعةٍ وخمسةٍ في واقعةٍ أخرى، وإلا فهو سُبحانهُ مَعَ كُلِّ عددٍ قلَّ أو كَثُرَ؛ ولهذا قالَ تَعالى: ﴿وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إلاَّ هُوَ مَعَهُمْ﴾ أيْ: ولا أقلَّ من العَددِ المذكُورِ كالواحدِ والاثنينِ، ولا أكثرَ منهُ، كالستةِ والسَّبعةِ ﴿إلاَّ هُوَ مَعَهُمْ﴾ بعلمهِ يعلمُ ما يتناجَونَ به ولا يَخفى عليهِ شَيءٌ منهُ.

قالَ المُفسرونَ: إنَّ[1] المنافقينَ واليَهودَ كانوا يَتناجَونَ فيما بينَهُم ويوهمونَ المُؤمنينَ أنهم يتناجَونَ فيمَا يَسُوؤهم فيحزنونَ لذلكَ، فلمَّا طَالَ ذلكَ وكثُرَ شكَوْا إلى رَسُول اللهِ ﷺ، فأمرَهُم ألاَّ يتناجَوْا دونَ المُسلمينَ، فلم ينتَهوا عَن ذَلكَ وعادُوا إلى مناجاتِهم؛ فأنزلَ اللهُ هَذهِ الآياتِ.

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٤٨) و«تفسير الشوكاني» (٥/ ١٨٤).

....

وقولُهُ تَعالى: ﴿أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ معناهُ: إحاطةُ علمِهِ سُبحانهُ بكُلِّ تناجٍ يقعُ منهمْ في أيِّ مكانٍ ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ أيْ: يخبرُهُم سبحانه ﴿بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ويجازيهم على ذَلكَ، وفي هذا تهديدٌ لهم وتَوبيخٌ ﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يَخفى عليه شَيءٌ.

والشاهدُ من الآيةِ:

أنَّ فيها إثباتَ معيةِ اللهِ لخلقِهِ، وهي معيةٌ عامةٌ مُقتَضَاها الإحاطةُ والعلمُ بجميعِ أعمالِهم؛ ولهذا يَقُولُ الإمامُ أحمدُ[1] رَحمهُ اللهُ: افتتحَ الآيةَ بالعلمِ واختَتَمها بالعِلمِ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ هَذا خِطابٌ من النَّبيِّ ﷺ لصاحِبِهِ أبي بَكرٍ رَضي اللهُ عنهُ حينما كانا في الغَارِ وقتَ الهجرةِ وقد لحِقَ بهما المُشركونَ، فحَزِنَ أبو بَكرٍ رَضيَ اللهُ عنهُ خوفاً على النَّبيِّ ﷺ من أذَى الكُفّارِ، فقالَ لهُ النَّبيُّ ﷺ: ﴿لاَ تَحْزَنْ﴾ أي: دَعِ الحُزن ﴿إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ بنصرِهِ وعونِهِ وتأييدِهِ، ومَنْ كانَ اللهُ مَعهُ فلَنْ يُغلبَ، ومَنْ لا يُغلَبُ لا يَحِقُّ لهُ أنْ يحزنَ.

والشَّاهدُ من الآيةِ:

أنَّ فيها إثباتَ المَعيةِ الخَاصةِ بالمُؤمنينَ التي مُقتَضاها النَّصرُ والتأييدُ.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٦/١٤٨) والذهبي في «العلو» (١٩٠- مختصره) واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٤٠٢).

....

وقولُهُ تَعَالى لمُوسى وهَارونَ عليهِمَا السَّلامُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ أي: لا تَخَافا مِنْ فِرعونَ ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ تعليلٌ للنهي، أيْ: معكُما بالنَّصرِ لكُما وَالمعونةِ على فِرعونَ ﴿أَسْمَعُ﴾ كَلامَكما وكلامَهُ ﴿وَأَرَى﴾ مكانَكم ومكانَهُ لا يخفى عليّ مِنْ أمرِكم شَيءٌ.

والشاهدُ من الآيةِ:

أنَّ فيها إثباتَ المَعيةِ الخاصةِ في حَقِّ اللهِ تَعَالى لأوليائِهِ بالنَّصرِ والتأييدِ، كما أنَّ فيهَا إثباتَ السَّمعِ والبَصرِ له سُبحانهُ وتَعَالى، وقولُهُ تَعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ﴾ أيْ: تَرَكوا المحرَّماتِ والمَعاصي على اختلافِ أنواعِها ﴿وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ بتأديةِ الطَّاعاتِ والقِيامِ بما أُمروا بهِ، فهوَ سُبحانهُ مع هَؤلاءِ بتأييدِهِ ونصرِهِ ومعونتِهِ، وهذه معيةٌ خاصةٌ، وهي محلُّ الشاهدِ من الآيةِ الكَريمةِ.

وقولُهُ: ﴿وَاصْبِرُوا﴾ هَذا أمرٌ بالصَّبرِ، وهو حبسُ النَّفسِ، والمُرادُ بهِ هنا الصَّبرُ على شدائدِ الحَربِ التي بينَ المُسلمينَ وبينَ الكُفارِ، ثمَّ علَّلَ هَذا الأمرَ بقولِهِ: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فهُو سُبحانهُ مع الصَّابرينَ في كُلِّ أمرٍ ينبغي الصبرُ فيهِ.

والشاهدُ من الآيةِ الكَريمةِ:

أنَّ فيها إثباتَ معيةِ اللهِ للصَّابرينَ على طاعتِهِ والمُجاهدينَ في سَبيلِهِ، قالَ الإمامُ الشَّوكانيُّ: ويا حَبذا هذهِ المعيةُ التي لا يَغلبُ من رُزِقَها غالبٌ ،

....

ولا يُؤتى صاحبُها من جهةٍ من الجهاتِ وإنْ كَانتْ كثيرةً. اهـ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ الفئةُ: الجَماعة والقطعةُ منهم ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ أيْ: بإرادتِهِ وقضائِهِ ومشيئتِهِ ﴿وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ هذا محلُّ الشَّاهدِ من الآيةِ الكَريمةِ، وهو إثباتُ معيةِ اللهِ سُبحانهُ للصَّابرينَ عَلى الجهادِ في سَبيلِهِ، وهي معيةٌ خاصةٌ مقتضاها النَّصرُ والتأييدُ.

ما يُستفادُ من مجموعِ الآياتِ السابقةِ:

أفادتْ إثباتَ المعيةِ، وأنها نَوعان(١):

النَّوعُ الأوَّلُ: معيةٌ عامةٌ، كما في الآيتينِ الأولَيينِ، ومقتضى هَذهِ المَعيةِ إحاطتُهُ سبحانهُ بخلقِهِ، وعلمُهُ بأعمالِهم خيرِها وشرِّها، ومجازاتُهم عَليهَا.

النَّوعُ الثَّاني: معيةٌ خاصةٌ بعبادِهِ المُؤمنينَ، ومقتضاها النَّصرُ والتأييدُ والحفظُ، وهذا النَّوعُ تدلُّ عليهِ الآياتُ الخَمسُ الباقيةُ التي أوردَها المُؤلفُ رحمهُ اللهُ. ومعيتُهُ سبحانَهُ لا تُنافي علوَّهُ على خلقِهِ واستواءَهُ على عرشِهِ، فإنَّ قُربَهُ سبحانَهُ ومعيَّتَهُ ليسَتْ كقربِ المَخلوقِ ومعيةِ المَخلوقِ للمَخلوقِ، فإنَّهُ سُبحانهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]،

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٧٩) و«مختصر الصواعق المرسلة» (٤٥٦)، و«معارج القبول» (١/ ٢٦٧)، و«التنبيهات السنية» للرشيد (١٣٥-١٣٦).

....

ولأنَّ المعيةَ مطلقُ المُقارنةِ لا تَقتَضي مماسةً ولا محاذاةً، تقولُ العَربُ: (ما زِلنا نَمشي والقَمرُ معنَا) مع أنَّهُ فوقَهم والمَسافةُ بينهمْ وبينَهُ بعيدةٌ، فعلوُّ اللهِ جلَّ جلالهُ ومعيتُهُ لخلقِهِ لا تنافي بينَهُما. وسيأتي لهـذا مَزيـدُ بيـانٍ إنْ شَـاءَ اللهُ.

٢١ـ إثبات
الكلام لله تعالى

وقَولُهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً﴾ [سورة النِّساء: ٨٧]،﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ [سورة النِّساء: ١٢٢]، وقَولُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [سورة المائدة: ١١٦]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ [سورة الأنعام: ١١٥]، ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [سورة النِّساء: ١٦٤]، ﴿مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللهُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣]، ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٣]، ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾ [سورة مريم: ٥٢]، ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الشعراء: ١٠]، ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [سورة الأعراف: ٢٢]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة القصص: ٦٥]، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ﴾ [سورة التوبة: ٦]، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٥]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلاَمَ اللهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ﴾ [سورة الفتح: ١٥]، ﴿وَاتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [سورة الكهف: ٢٧]، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [سورة النمل: ٧٦].

....

الشرح:

قولُهُ تَعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ﴾ أيْ: لا أحدَ أصدقُ منهُ سُبحانهُ، فهو استفهامٌ إنكاريٌّ ﴿حَدِيثاً﴾ أيْ: في حديثِهِ وخبرِهِ وأمرِهِ ووعدِهِ ووعيدِهِ؛ وقولُهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ القيلُ: مصدرُ قالَ كالقَولِ، أيْ: لا أحدَ أصدقُ قولاً من اللهِ عزَّ وجلَّ.

والشاهدُ من الآيتينِ الكَريمتينِ:

أنَّ فيهما إثباتَ الحَديثِ والقِيلِ للهِ سُبحانَهُ، ففيهما إثباتُ الكلامِ لهُ سُبحانَهُ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أيْ: اذكُرْ ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ﴾ جمهورُ المُفسرينَ[1] ذهبَ إلى أنَّ هَذا القولَ منهُ سُبحانهُ يكونُ يومَ القِيامةِ، وهو تَوبيخٌ للذينَ عَبدُوا المَسيحَ وأمَّهُ من النَّصارى، وهي كالآيتينِ السَّابقتينِ، فِيها إثباتُ القَولِ للهِ تَعالى وأنَّهُ يقولُ إذا شَاءَ.

وقولُهُ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ المُرادُ بالكلمةِ كلامُهُ سبحانَهُ. وقولُهُ: ﴿صِدْقاً﴾ أيْ: في أخبارِهِ سُبحانَهُ ﴿وَعَدْلاً﴾ أيْ: في أحكامِهِ، و﴿صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ منصوباً على التمييزِ، وفي الآيةِ إثباتُ الكَلامِ للهِ تَعالى. وقولُهُ: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ هَذا تَشريفٌ لمُوسى عليهِ السَّلامُ بأنَّ اللهَ كلَّمَهُ، أيْ: أسمَعَهُ كلامَهُ؛ ولهذا يُقالُ لهُ: الكَليمُ، و﴿تَكْلِيماً﴾ مصدرٌ مُؤكدٌ لدفعِ كونِ التَّكليمِ مَجازاً. ففي الآيةِ إثباتُ الكلامِ للهِ، وأنَّهُ كلَّمَ مُوسى عَليهِ السَّلامُ.

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٢/ ٦٥١) و«فتح القدير» (٢/ ٩٥).

....

وقولُهُ تَعالى: ﴿مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللهُ﴾ أيْ: مِنَ الرُّسُلِ عليهِمْ الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿مَّن كَلَّمَ اللهُ﴾ أيْ: أسمَعَهُ كلامَهُ بلا واسِطةٍ، يعني: مُوسَى ومُحمداً عليهِمَا الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكذا آدمُ، كما وردَ بهِ الحَديثُ في «صحيحِ ابنِ حِبانَ»[1]، ففي الآية: إثباتُ الكلامِ للهِ تَعالى، وأنَّهُ كلَّم بعضَ الرُّسُلِ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ أيْ: حَصلَ مجيئُهُ في الوَقتِ الذي واعدَهُ اللهُ فيهِ ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ أيْ: أسمَعَهُ كلامَهُ من غيرِ واسطةٍ، فالآياتُ فِيهَا إثباتُ الكلامِ للهِ، وأنَّهُ يتكلَّمُ متى شَاءَ سُبحانهُ، وأنَّه كلَّمَ مُوسى عليهِ السَّلامُ بِلا واسِطةٍ.

وقولُهُ تَعَالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ أي: نادى اللهُ تَعَالى مُوسى عليهِ السَّلامُ، والنِّدَاءُ: هُوَ الصَّوتُ المُرتفعُ ﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾ الطُّورُ: جبلٌ بينَ مِصرَ ومدينَ ﴿الْأَيْمَنِ﴾ أيْ: الجَانب الأيْمن من مُوسى حينَ ذهبَ يبتغي من النَّارِ التي رآها جَذْوةً، وليسَ المُرادُ أيمنَ الجبلِ نفسِهِ، فإنَّ الجبالَ لا يَمينَ لها ولا شِمالَ. ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ أيْ: أدْنيناه حتَّى كلمناهُ ﴿نَجِيّاً﴾ أيْ: مناجياً، والمُناجاةُ ضِدُّ المُناداةِ.

---

(١) كتاب التاريخ، باب بدء الخلق، رقم (٦١٦٢)، ورواه البخاري (٣٣٢٦) ومسلم (٢٨٤١).

....

وفي الآيةِ الكَريمةِ:

إثباتُ الكَلامِ للهِ تَعالى، وأنَّهُ يُنادي ويُناجي، وهُما نَوعانِ من الكَلامِ، فالمُناداةُ: بصوتٍ مُرتفعٍ، والمُناجاةُ: بصوتٍ غيرِ مُرتفعٍ.

وقولُهُ: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ أي: واتلُ، أو: اذكر ذلكَ ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ النِّدَاءُ: هُو الدُّعاءُ ﴿أَنِ ائتِ﴾: ﴿أَنْ﴾ يجوزُ أن تكونَ مُفسِّرةً[1]، وأنْ تَكونَ مصدريةً[2]، أيْ: اذهبْ إلى ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وصَفَهُم بالظُّلمِ؛ لأنَّهم جَمعوا بينَ الكُفرِ الذي ظَلموا به أنفسَهُم وبينَ المَعاصي التي ظلموا بهَا غيرَهم؛ كاستعبادِهِم بني إسرائيلَ وذبحِ أبنائِهم. وفي الآيةِ الكَريمةِ: إثباتُ الكلامِ للهِ تَعالى، وأنَّهُ يُنادي من شَاءَ مِن عِبادِهِ ويُسمِعُهُ كلامَهُ.

وقولُهُ: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ أيْ: نادى اللهُ تَعَالى آدمَ وحواءَ عليهما السَّلامُ قائِلاً لَهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ أيْ: عَنِ الأكلِ مِنهَا، وهذا عِتابٌ من اللهِ لهُما وتوبيخٌ حيثُ لم

---

(١) (أنْ) التفسيرية أو المفسرة، حرف غير عامل، وتكون بمنزلة (أي التفسيرية) لتوضيح المراد، ويغلب بعدها مجيء فعل الأمر نحو قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٣]. و«المعجم الوافي» صنفه د. علي الحمد ويوسف الزعبي (٧٧).

(٢) انظر «معجم حروف المعاني في القرآن الكريم» صنفه محمد حسن الشريف (١/ ٣٧٤)، و«تفسير الشوكاني» (٤/ ٩٣).

....

يَحْذَرا ما حَذَّرَهُما منهُ. وفي الآية الكَريمةِ: إثباتُ الكلامِ للهِ تَعالى والنِّداءِ منهُ لآدمَ وزوجِهِ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أيْ: يُنادي اللهُ سُبحانَهُ هؤلاءِ المُشركينَ يومَ القِيامةِ ﴿فَيَقُولُ﴾ لهُمْ ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ أيْ: ما كانَ جوابُكُم لمَنْ أُرْسِلَ إليكمْ من النَّبيينَ لما بَلَّغوكُم رِسالاتِي، والشَّاهدُ من الآيةِ: إثباتُ الكلامِ للهِ، وأنَّهُ ينادي يومَ القِيامةِ.

وقولُهُ تَعَالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذينَ أُمرتَ بقِتالِهِم ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ يا مُحمَّدُ، أيْ: طلبَ جوارَك وحمايتَكَ وأمانَكَ ﴿فَأَجِرْهُ﴾ أيْ: كُنْ له جاراً ومؤمناً ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ﴾ مِنكَ ويتدبرَهُ ويقفَ على حَقيقةِ ما تَدعو إليهِ.

والشَّاهدُ من الآيةِ:

أنَّ فيها إثباتَ الكَلامِ للهِ تَعالى، وأنَّ الذي يُتلَى هُوَ كلامُ اللهِ، وقولُهُ: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أيْ: اليَهودُ، والفَريقُ[١]: اسمُ جمعٍ لا واحدَ لهُ مِنْ لفظِهِ: ﴿يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ﴾ أي: التَّوراة ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ أيْ: يتأولونَهُ على غَيرِ تأويلِهِ ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: فَهِمُوهُ، ومع هذا يُخالفونَهُ على بَصيرةٍ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّهم مخطئون فيما ذهبوا إليهِ من تحريفِهِ وتأويلِهِ.

---

(١) انظر «معجم علوم اللغة العربية عن الأئمة» د. محمد سليمان الأشقر (٤٠).

....

والشَّاهدُ مِنَ الآيةِ الكَريمةِ:

أنَّ فيها إثباتَ الكَلامِ للهِ تَعالى، وأنَّ التوراةَ من كلامِهِ تَعالى. وأنَّ اليَهودَ حرَّفوها، وغيَّروا فِيهَا وبدَّلوا.

وقولُهُ تَعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَامَ اللهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ﴾ ﴿يُرِيدُونَ﴾ أيْ: المُخلَّفون من الأعرابِ الذينَ اختاروا المُقامَ في أهليهم وشُغْلِهم وتركوا المَسيرَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حينَ خرجَ عامَ الحُديبيةِ ﴿أَن يُبَدِّلُواْ كَلَامَ اللهِ﴾ أيْ: يُغيِّروا كلامَ اللهِ الذي وعدَ اللهُ به أهلَ الحُديبيةَ خاصةً بغنيمةِ خيبرَ ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ هذا نفيٌ في مَعنى النَّهيِ، أيْ: لا تتَّبِعُونا ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ﴾ أيْ: وعدَ اللهُ أهلَ الحُديبيةَ أن غنيمةَ خَيبرَ لهُمْ خاصَّةً[1].

والشَّاهدُ من الآيةِ الكَريمةِ:

أنَّ فيهَا إثباتَ الكَلامِ للهِ وإثباتَ القولِ لهُ، وأنَّ اللهَ سُبحانَهُ يتكلَّمُ ويَقولُ متَّى شَاءَ إذا شَاءَ، وأنَّهُ لا يجوزُ تبديلُ كَلامِهِ سُبحانه، بلْ يجبُ العَملُ بهِ واتباعُهُ.

وقولُهُ: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ أمرَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ أنْ يُواظِبَ على تلاوةِ الكِتَابِ المُوحَى إليهِ، والوَحيُ هو الإعلامُ بسرعةٍ وخفاء، وله كيفياتٌ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٦٢٠).

....

مذكورةٌ في كُتبِ أصولِ التفسيرِ[١] ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ بيانٌ للذي أوحِيَ إليهِ ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أيْ: لا مُغيِّرَ لهَا ولا مُحرِّفَ ولا مُزيلَ.

والشاهدُ من الآيةِ:

إثباتُ الكَلماتِ للهِ تَعَالى.

قولُهُ: ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهُـمْ حملـةُ التَّـورَاةِ والإنجيلِ ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كـاختِلافِهم فـي عيسَـى، فـاليَهودُ افتروا في حقِّهِ، والنَّصارى غَلَوا فيهِ. فجاءَ القُرآنُ بالقَولِ الوَسطِ الحَقِّ: أنَّـهُ عبدُاللهِ ورَسُولُهُ وكلِمَتُهُ، ألقاها إلى مَريمَ وروحٌ منهُ.

والشَّاهدُ من الآيةِ الكَريمةِ:

أنَّ فيها إثباتَ أنَّ القُـرآنَ كـلامُ اللهِ تَعـالى لمـا تضَمَّنَـهُ مـن الإحاطـةِ بالكُتبِ السابقةِ، والحُكمِ في الخِلافِ بينَ طَوائِـفِ أهـلِ الكِتـابِ بالقسـطِ، وهذا لا يَكونُ إلاَّ من عِندِ اللهِ.

ويُستفادُ من مَجموعِ الآياتِ التي ساقَها المؤلِّفُ:

إثباتُ الكلامِ للهِ، ومذهبُ أهلِ السُّـنَّةِ والجَماعةِ: إثباتُ مـا دلَّ عليـهِ الكِتـابُ والسُّـنَّةُ من أنَّ اللهَ موصوفٌ بالكـلامِ، وكلامُهُ سُبحانَهُ من صفاتِـهِ

---

(١) انظر في تفسير معنى الوحي وكيفياته «مفردات ألفاظ القـرآن» للأصفهـاني (٨٠٨) و«بصائر ذوي التمييز» للفيروز أبادي (٥/ ١٧٧) و«مباحث في علوم القرآن» لمناع القطان (ص٣٠).

....

الذاتيةِ لقيامِهِ به واتصافِهِ بِهِ. ومن صفاتِهِ الفِعليةِ الواقِعةِ بمشيئتِهِ وقدرتِهِ، فيتكلمُ إذا شَاءَ، كيفَ شَاءَ، بما يَشاءُ، ولم يزلْ مُتكلماً، ولا يَزالُ مُتكلماً؛ لأنَّهُ لم يَزَلْ ولا يَزالُ كامِلاً والكَلامُ من صفاتِ الكَمالِ، ولأنَّ اللهَ وصفَ بِهِ نفسَهُ ووصفَهُ بِهِ رَسولُهُ.

وسيأتي ذكرُ مذهبِ المُخالفينَ في هَذِهِ المسألةِ معَ الرَّدِّ عليهِ إنْ شَاءَ اللهُ[1].

---

(١) انظر (ص١٧٤) من هذا الكتاب.

٢٢ـ إثبات
تنزيل القرآن من الله تعالى

وقولُهُ: ﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٥]، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ الله﴾ [سورة الحشر: ٢١]، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَالله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة النَّحل: ١٠١-١٠٣].

الشرح:

لما أوردَ المُؤلفُ رحِمهُ اللهُ الآياتِ الدالةِ على إثباتِ الكَلامِ للهِ تَعالى، وأنَّ القُرآنَ العَظيمَ من كلامِهِ سُبحانهُ شَرعَ في سِياقِ الآياتِ الدالةِ علىأنَّ القُرآنَ منزلٌ منْ عِندِ اللهِ، فقولُهُ تَعالى: ﴿وَهَـذَا﴾ الإشارةُ إلى القُرآنِ الكَريمِ، واسمُ الإشارةِ مبتدأٌ خبرُهُ ﴿كِتَابٌ﴾ و﴿أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ صِفتانِ لكِتابٌ، وقدَّمَ صفةَ الإنزالِ؛ لأنَّ الكفارَ يُنكرُونَها. والمُباركُ كثيرُ البَركةِ لما هو مُشتَمِلٌ عليهِ مِنَ المَنافِعِ الدينيةِ والدنيويةِ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ هَذا إخبارٌ عن عظمةِ القُرآنِ وأنه حقيقٌ بأنْ تخشعَ لهُ القُلوبُ -فإنَّهُ لو أُنزِلَ على جبلٍ مع كونِهِ في غايةِ القسوةِ وشدةِ الصَّلابةِ لو

....

فَهِمَ هذا القُرآنَ لخشعَ وتصدَّعَ من خوفِ اللهِ؛ حذراً من عِقابِهِ، فكيفَ يليقُ بكم أيُّها البَشرُ ألاَّ تَلينَ قلوبُكم وتَخشعَ. وقد فهمتُمْ عنِ اللهِ أمرَه وتدبَّرتُمْ كِتابَه؟!

وقولُهُ تَعَالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ هذا شُروعٌ منهُ سُبحانهُ في ذِكرِ شبهةٍ كُفريةٍ حَولَ القُرآنِ الكَريمِ مع الرَّدِّ عَليهَا. وقولُهُ: ﴿بَدَّلْنَآ﴾ معنى التَّبديل[1] رَفعُ الشيءِ معْ وضعِ غيرِهِ مكانَهُ وتبديلُ الآيةِ: رفعُهـا بأخرى غَيرِها. وهو نسخُها بآيةٍ سِواها ﴿قَالُوٓاْ﴾ أيْ: كُفارُ قُريشٍ الجاهلونَ للحكمةِ في النَّسخِ ﴿إِنَّمَا أَنتَ﴾ يا مُحمَّدُ ﴿مُفْتَرٍ﴾ أي: كاذِبٌ مختلقٌ متقوِّلٌ على اللهِ حيثُ تزعمُ أنهُ أمرَكَ بشيءٍ، ثُمَّ تزعُمُ أنه أمركَ بخلافِهِ، فردَّ اللهُ عليهِم بما يُفيدُ جهلَهُم، فقالَ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً مِنَ العِلمِ أصلاً، أو لا يعلمونَ الحِكمةَ في النَّسخِ، فإنه مبنيٌّ على المَصالِحِ التي يَعلَمُها اللهُ سُبحانه، فقدْ يَكُونُ في شَرعِ هَذا الشَّيءِ مَصلحةٌ مؤقتةٌ بوقتٍ، ثم تكونُ المَصلحةُ بعدَ ذلكَ الوقتِ في شَرعِ غيرِهِ. ولَو انكشفَ الغِطاءُ لهؤلاءِ الكَفرةِ لعلموا أنَّ ذلكَ وجهُ الصَّوابِ ومنهجُ العدلِ والرِّفقِ واللطفِ.

ثُمَّ ردَّ عليهمْ في زعمِهِم أنَّ هَذا التَّبديلَ من عندِ مُحمَّدٍ، وأنهُ بذلكَ

---

(١) انظر ما يتعلق بتعريف النَّسخ ومذاهب النَّاس فيه وَحَدَّه وأنواعه وما يجوز نسخُهُ وغيرها من مباحث النَّسخ في «بصائر ذوي التمييز» للفيروز أبادي (١/ ١١٧).

....

مفترٍ على اللهِ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ﴾ أيْ: القُرآن ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي: جبريلُ، والقُدُس: الطُّهْر، والمعنى نزَّلَـهُ الـروحُ المُطَهَّـرُ، فهـو مِـنْ إضافـةِ المَوصوفِ إلى صفتِهِ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أي: ابتَداء تنزيلِهِ مـن عنـدِ اللهِ سُبحانه ﴿بِالْحَقِّ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحَـالِ، أيْ: متصفـاً بكونِـهِ حقـاً ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على الإيمانِ فيقُولونَ: كلٌّ مـن النَّاسِـخِ والمَنسـوخِ مـن عنـدِ ربِّنا، ولأنَّهمْ إذا عَرفـوا مـا فـي النَّسـخِ من المَصالِحِ ثَبتـوا علـى الإيمـان ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ معطوفانِ على محلِّ (لِيُثَبِّت)، أيْ: تثبيتـاً لهـمْ وهدايةً وبُشرى.

ثُمَ ذكرَ سُبحانهُ شبهةً أخـرى مـن شُبَهِهِم فقـالَ: ﴿وَلَقَـدْ نَعْلَـمُ أَنَّهُـمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ أيْ: ولقدْ نعلمُ أنَّ هؤلاءِ الكُفارَ يقولونَ: إنما يعلمُ محمداً القرآن بشرٌ من بني آدمَ وليسَ ملكاً من المَلائكةِ، وهذا البَشرُ الـذي يعلِّمُهُ كانَ قد درسَ التوراةَ والإنجيلَ والكُتبَ الأعجميةَ؛ لأنَّ محمداً رجـلٌ أُميٌّ لا يمكنُ أن يأتي بما ذُكِرَ في القُرآنِ من أخبارِ القُرونِ الأُولى.

فردَّ اللهُ عليهمْ بقولِهِ: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أي: لسـانُ الذي يميلونَ إليهِ، ويزعمونَ أنه يعلِّمُك يا محمَّدُ أعجَميٌّ، أي: غيرُ عَربـيٍّ، فهو لا يَتكلمُ العَربيةَ ﴿وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أيْ: وهذا القُرآنُ ذو بلاغةٍ عربيةٍ وبيانٍ وَاضحٍ، فكيفَ تزعمونَ أنَّ بشـراً يعلِّمُـه النَّبـيَّ ﷺ مـن العجـمِ وقد عَجَزْتُمْ أنتمْ عن معارضتِهِ أو مُعارضةِ سورةٍ أو سورٍ منـهُ، وأنتـمْ أهـلُ اللسانِ العَربيِّ ورجالُ الفصاحةِ وقادةُ البَلاغةِ؟!

....

ما يُستفادُ من الآيات:

يُستفادُ من هذِهِ الآياتِ الكَريمةِ: إثباتُ أنَّ القُرآنَ منزلٌ مِنْ عندِ اللهِ تَعالى، وأنَّه كلامُهُ جلَّ وعَلا، لا كَلامُ غيرِهِ من المَلائكةِ أو البَشرِ، والردُّ على مَنْ زعمَ أنهُ كلامٌ مَخلوقٌ، وفي الآياتِ أيضاً إثباتُ العُلوِّ للهِ سُبحانَهُ؛ لأنَّ الإنْزالَ لا يكونُ إلاَّ من أعلى. واللهُ أعلمُ.

٢٣ـ إثبات
رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة

وقَولُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [سورة القيامة: ٢٢-٢٣]، ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [سورة المطففين: ٢٤]، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [سورة يونس: ٢٦]، ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [سورة ق: ٣٥].

وهذَا البَابُ فـي كِتابِ الله تَعالى كَثيرٌ، مَن تَدَبَّرَ القُرآنَ طَالِباً لِلهُدَى، تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الحَقِّ.

الشرح:

قولُهُ تَعَالى: ﴿وُجُوهٌ﴾ أيْ: وجوهُ المُؤمنينَ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ القيامةِ ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ بالضَّادِ: من النَّضَارةِ، وهي البَهاءُ والحُسْنُ، أي: ناعمةٌ غضةٌ حسنةٌ مضيئةٌ مشرقةٌ ﴿إِلَى رَبِّهَا﴾ أي: خالقِها ﴿نَاظِرَةٌ﴾ أيْ: تنظُرُ إليهِ بأبصارِها، كما تواتَرتْ بهِ الأحاديثُ الصحيحةُ، وأجمعَ عليهِ الصَّحابةُ والتَّابعونَ وسلفُ الأمةِ واتفَقَ عليهِ أئمةُ الإسلامِ[1].

---

(١) يقول العلامة الشيخ حافظ الحكمي في «معارج القبول» (١/ ٣٩٣): وقد تواترت الأحاديث بمعنى ما تضمنته هذه الآيات، رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، رواها أئمة السنة والحديث في دواوين الإسلام عن فضلاء الصحابة وأجلائهم: كأبي بكر الصديق، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وجرير بن عبدالله، وصهيب، وابن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وأبي موسى، وأنس، وبريدة بن الحصيب، وأبي رزين، وجابر بن عبدالله، وأبي أمامة، وزيد بن ثابت، وعمار بن ياسر، وعائشة، وعبدالله=

....

فالشاهدُ من الآيةِ الكريمةِ:

إثباتُ رؤيةِ المؤمنينَ لربِّهم يومَ القيامةِ، وقولُهُ: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جَمْع أريكة، وهي السُّرُرُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وأما الكُفارُ فقدْ تقدَّمَ فِي الآياتِ التي قبلَ هذهِ الآيةِ أنَّهم ﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾، والشَّاهدُ من الآيةِ: إثباتُ رؤيةِ المُؤمنينَ لربِّهم عزَّ وجلَّ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ بالقِيامِ بما أوجَبَهُ اللهُ عليهمْ منَ الأعمالِ والكَفُّ عمَا نَهَاهُم عنهُ من المَعاصي ﴿الْحُسْنَى﴾ أي: المَثُوبة الحُسنى، وقيلَ: الجنَّة. ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي النَّظرُ إلى وجهِ اللهِ الكَريمِ، كما ثبتَ تفسيرُها بذلكَ عن رَسُولِ اللهِ ﷺ في «صحيحِ مُسلم»[1] وغيره، وكما فَسرَها بذلك سلفُ هذهِ الأمة، وعلى ذلك يكونُ الشَّاهدُ من الآيةِ الكَريمةِ: إثباتُ رؤيةِ المُؤمنينَ لربِّهم يومَ القيامةِ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي: للمُؤمنينَ في الجَنةِ ما

= ابن عمر، وعمار بن رويبة، وسلمان الفارسي، وحذيفة بن اليمان، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وعبادة بن الصامت، وأُبي بن كعب، وكعب ابن عُجرة، وأبي الدرداء، وفضالة بن عبيد، وعدي بن أرطاة -وهو من التابعين-، وأبي موسى الأشعري، وغيرهم رضي الله عنهم.

ثم يورد -رحمه الله- الأحاديث تباعاً وينقل أقوال الصحابة والتابعين والأئمة في مسألة الرؤية. وانظر «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٢١٠).

(١) برقم (١٨١) وابن ماجه (١٨٧).

....

تَشتَهي أنفُسهم وتلذُّ أعينُهم من فُنونِ النَّعيمِ وأنواعِ الخيرِ ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي: زيادةٌ على ذلكَ وهو النَّظرُ إلى وجهِ اللهِ الكريمِ، وهذا هُو الشَّاهدُ من الآيةِ الكَريمةِ، وهو إثباتُ النَّظرِ إلى وجهِ اللهِ الكريمِ في الجنَّةِ.

ما يُستفادُ من الآياتِ الكريمةِ:

يُستفادُ منها إثباتُ رؤيةِ المُؤمنينَ لربِّهم يومَ القِيامةِ، وأنها أعظمُ النَّعيمِ الذي ينالُونَهُ. وهذا هُو قَولُ الصَّحابةِ والتَّابعينَ وأئمةِ المُسلمينَ، خلافاً للرافضةِ والجهميةِ والمُعتزلةِ الذين ينفونَ الرؤيةَ ويُخالفونَ بذلكَ الكتابَ والسُّنَّةَ وإجماعَ سلفِ الأمةِ وأئمَّتِها، ويعتمدونَ على شبهٍ واهيةٍ وتعليلاتٍ باطلةٍ منها[1]:

١- قولُهُم: إنَّ إثباتَ الرؤيةِ يلزمُ منهُ إثباتُ أنَّ اللهَ في جهةٍ ولو كانَ في جهةٍ لكانَ جسماً واللهُ منزَّهٌ عن ذلكَ.

والجوابُ عن هذهِ الشُّبهةِ أنْ نَقولَ: لفظُ الجهةِ فيهِ إجمالٌ. فإنْ أُريدَ بالجهةِ أنه حالٌّ في شيءٍ من مخلوقاتِهِ فهذا باطلٌ والأدلةُ تردُّهُ وهذا لا يَلزمُ من إثباتِ الرؤيةِ، وإن أُريدَ بالجهةِ أنه سُبحانَهُ فوقَ مخلوقاتِهِ فهذا ثابتٌ للهِ سُبحانَهُ ونفيُهُ باطلٌ، وهو لا يتنافى مع رؤيتهِ سُبحانَهُ.

٢- استدلُّوا بقولِهِ تعالى لمُوسى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

---

(١) انظر «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٢٣٠).

....

والجَوابُ عن هذا الاستدلال: أنَّ الآيةَ الكريمةَ واردةٌ في نفي الرؤيةِ في الدُّنيا، ولا تَنفي ثبوتَها في الآخرةِ كما ثبتَ في الأدلةِ الأُخرى. وحالةُ النَّاسِ في الآخرةِ تختلفُ عَن حالتِهم في الدُّنيا.

٣- استدلُّوا بقولِهِ تَعَالى: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣][١].

والجوابُ عن هذا الاستدلال: أنَّ الآيةَ إنَّما فيها نفيُ الإدراكِ، وليسَ فيها نفيُ الرُّؤيةِ. والإدراكُ معناهُ: الإحاطةُ، فاللهُ سُبحانهُ وتَعالى يَراهُ المُؤمنونَ ولا يُحيطونَ بهِ، بل نَفيُ الإدراكِ يلزمُ منهُ وجودُ الرؤيةِ، فالآيةُ من أدلةِ إثباتِ الرؤيةِ. واللهُ تَعالى أعلمُ.

وقولُ المُؤلفِ رَحِمهُ اللهُ: (وهذَا البَابُ في كِتابِ الله كَثيرٌ) أي: بابُ إثباتِ أسماءِ اللهِ وصفاتِهِ في القُرآنِ كَثيرٌ، وإنما ذكرَ المُؤلفُ بعضَهُ، فقدْ وردَ في آياتٍ كثيرةٍ من كِتابِ اللهِ إثباتُ أسماءِ اللهِ وصفاتِهِ على ما يَليقُ بهِ، (ومَن تَدَبَّرَ القُرآنَ) أيْ: تفكَّرَ فيهِ وتأمَّلَ ما يدلُّ عليهِ من الهُدى، (تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الحَقِّ) أي: اتَّضَحَ له سَبيلُ الصَّوابِ، وتدَبُّرُ القُرآنِ هو المَطلوبُ من تِلاوتِهِ، قالَ تعَالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩]، وقالَ تَعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقَالَ تَعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (٦/ ٢٤٣) و«الكواشف الجلية عن معاني الواسطية» (٥٤٠).

الاستدلال على إثبات أسماء الله وصفاته من السنة

فصل

ثُم فِي سُنَّةِ رَسولِ الله ﷺ، فَالسُّنَةُ تُفَسِّرُ القُرآنَ، وَتُبَيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَليهِ، وَتُعَبِّرُ عَنهُ.

الشرح:

قولُهُ: (ثُمَّ فِي سُنَّةِ رَسولِ الله ﷺ) هذا عَطفٌ على قولِهِ فيما سَبقَ: (وقدْ دَخلَ في هَذِهِ الجملةِ ما وصفَ اللهُ بهِ نفسه في سُورةِ الإخلاص...) إلخ، أي: ودخلَ فيها ما وصفَ بهِ الرسُولُ ﷺ ربَّهُ فيما وردَتْ بهِ السُّنَّةُ الصحيحةُ؛ لأنَّ السُّنَّةَ هي الأصلُ الثَّاني الذي يجبُ الرُّجوعُ إليهِ بعدَ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النِّساء: ٥٩]، والرَّدُّ إلى اللهِ: هُو الرُّجوعُ إلى كِتابهِ، والرَّدُّ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ بعدَ وفاتِهِ: هُو الرجوعُ إلى سُنَّتِهِ، والسُّنَّةُ: لغةً: الطريقةُ، واصطلاحاً: هي ما وردَ عن رَسولِ اللهِ ﷺ من قَولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ[1].

مكانةُ السنةِ:

قالَ: (فَالسُّنَةُ تُفَسِّرُ القُرآنَ) أيْ: تُبيِّن معانيَهُ ومَقاصِدَهُ، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ يبينُ للناسِ ما أُنزلَ إليهِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النَّحل: ٤٤].

---

(١) وقد ورد تعريف السنة في هذا الكتاب (ص١٥).

....

والسُّنَّةُ أيضاً (تبينُ القُــرآنَ)أيْ: تُوضِّـحُ مُجملَـهُ؛ كـالصلاةِ والصَّـوم والحجِ والزكاةِ، وغالبِ الأحكامِ التي تأتي مجملةً في القُرآنِ تُبيِّنُهـا السُّـنَّةُ النَّبويةُ.

والسُّنَّةُ أيضاً (تَدُلُّ عَلى القُرآنِ وَتُعَبِّرُ عَنهُ)أي: تدلُّ على مـا دلَّ عليـهِ القُرآنُ وتُعبرُ عما عبَّرَ عنهُ القُرآنُ، فتكونُ موافقةً للقُرآنِ فيكونُ الحكمُ ممـا دلَّ عليه الكِتابُ والسُّنَّةُ، كأسماءِ اللهِ وصفاتِهِ.

وَمَا وَصَفَ الرَّسولُ بِهِ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الأَحاديثِ الصِّحَاحِ الَّتي تَلَقَّاهَا أهلُ المَعرفةِ بِالقبولِ، وَجَبَ الإيمانُ بِها كَذلِكَ.

الشرح:

قولُهُ (وَمَا وَصَفَ...) إلخ مبتدأٌ خبرُهُ قولُه: (وَجَبَ الإيمانُ بِها كَذلِكَ) أيْ: كما يَجبُ الإيمانُ بما وصفَ اللهُ بهِ نفسَهُ في القُرآنِ الكَريمِ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ كما وصفَهُ ربُّهُ عزَّ وجلَّ بقولِهِ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النَّجم: ٣-٤]، فالسُّنَّةُ التي نَطقَ بها الرَّسولُ ﷺ وحيٌ مِنَ اللهِ، كما قَالَ تَعَالى: ﴿وَأَنزَلَ الله عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النِّساء: ١١٣]، فالكتابُ: هو القُرآنُ، والحكمةُ: هي السُّنَّةُ. فيجبُ الإيمانُ بما وردَ في السُّنَّةِ، لا سيَّما في بابِ الاعتقادِ، قالَ تَعَالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

لكنْ لا بُدَّ فِي قُبولِ الحَديثِ والإيمانِ بهِ من ثبوتِهِ عن النَّبيِّ ﷺ؛ ولهَذا قالَ الشَّيخُ رحِمهُ اللهُ: (مِنَ الأَحاديثِ الصِّحَاحِ) والصِّحاحُ: جمعُ صحيحٍ، والحَديثُ الصَّحيحُ[1]: هو ما نقلَهُ راوٍ عدلٌ تامُّ الضبطِ عَنْ مثلِهِ مِنْ غيرِ شذوذٍ ولا علةٍ، فهو ما اجتمعَ فيهِ خمسةُ شُروطٍ:

١- عدالةُ الرُّواةِ.

٢- ضبطُهُم.

٣- اتِّصالُ السندِ.

---

(١) «تدريب الراوي» (٦١) و«الباعث الحثيث» (١٩).

....

٤- سلامتُهُ من العِلةِ.

٥- سلامتُهُ من الشُذوذِ.

وقولُهُ: (تَلَقَّاهَا أهلُ المَعرفةِ)أي: قبِلَها وأخذَ بها أهلُ العلمِ بالحديثِ، فلا عبرةَ بغيرهِم.

ثم ذكرَ الشَّيخُ أمثلةً مما وردَ في السُّنَّةِ من صفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ فقالَ:

١ـ ثبوت
النزول الإلهي إلى سماء الدنيا على ما يليق بجلال الله

فَمن ذَلكَ مِثلُ قَولِهِ ﷺ: «يَنزِلُ ربُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

الشرح:

قولُهُ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا» أي: نزولاً يَليقُ بجلالِهِ نُؤمِنُ به ولا نُشبِّهُهُ بنزولِ المَخلوقِ؛ لأنَّهُ سُبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ «﴿إلى السَّماء الدُّنيا﴾» أي: السَّماءُ الدُّنيا من إضافةِ المَوصوفِ إلى صفتِهِ «حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ» برفعِ الآخرِ صفةً لثلثٍ، وفِي هَذا تعيينٌ لوقتِ النُّزولِ الإلهيِّ. قولُهُ: «فَأَسْتَجِيبَ لَهُ» بالنَّصبِ على جوابِ الاستفهامِ[2]، وكذا قولُهُ: «فَأُعْطِيَهُ» و«أَغْفِرَ لَهُ»، وقولُهُ: «فَأَسْتَجِيبَ لَهُ» أي: أجيبُ دَعوتَهُ.

والشَّاهدُ من الحَديثِ:

أنَّ فيهِ ثبوتَ النُّزولِ الإلهيِّ، وهو من صفاتِ الأفعالِ، وفي الحديثِ أيضاً إثباتُ العلوِ للهِ تعالى، فإن النُّزولَ يكونُ من العلوِّ، وفيهِ الردُّ على مَنْ أوَّلَ الحَديثَ بأنَّ معناهُ: نزولُ رحمتِهِ أو أمرِهِ؛ لأنَّ الأصلَ الحقيقةُ وعدمُ الحذفِ، ولأنَّهُ قالَ: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ» فهل يُعقلُ أنْ تقولَ رحمتُهُ

---

(١) رواه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨).

(٢) انظر «فتح الباري» (٣/ ٤١).

....

أو أمرُهُ هذا المَقالَ؟![1]

وفي الحديثِ إثباتُ الكلامِ للهِ تَعالى حيثُ جاءَ فيهِ: «فَيَقُولُ...» إلـخ، وفيه إثباتُ الإعطاءِ والإجابةِ والمغفرةِ للهِ سُـبحانه، وهـي صفـاتُ أفعـالٍ. وقوله «مُتَّفَقٌ عَلَيهِ» أي: بينَ البُخاريِّ ومُسلمٍ.

(١) انظر تفصيل الرد على هذه الشبهة في «مختصر الصواعق المرسلة» (٤٢٠).

٢ـ إثبات
أن الله يفرح ويضحك

وقَولُهُ ﷺ: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ...» الحديث. متفق عليه(١). وقَولُهُ ﷺ: «يَضْحَكُ الله إِلَى رَجُلَيْن يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ؛ كِلاَهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ» متفق عليه(٢).

الشرح:

«للهُ» اللامُ لامُ الابتداءِ «أَشَدُّ فَرَحًا» منصوبٌ على التَّمييزِ، والفرحُ في اللغةِ: السُّرورُ ولذةُ القلبِ «بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ» التوبةُ: هي الإقلاعُ عن الذنبِ والرُّجوعِ إلى الطاعةِ «بِرَاحِلَتِهِ» الراحِلةُ: النَّاقةُ التي تصلح أن تَرحلَ (الحَديث) منصوبٌ بفعلٍ مقدَّرٍ، أي: أكملِ الحَديثَ؛ لأنَّ المصنفَ اقتصرَ على الشَّاهدِ منهُ، وهو إثباتُ الفرحِ للهِ سبحانَهُ على ما يليقُ بجلالِهِ وهو صفةُ كمالٍ لا يُشبِهُهُ فرحُ أحدٍ مِنْ خلقِهِ، بل هو كسائِرِ صفاتِهِ، وهو فرحُ إحسانٍ وبرٍّ ولُطفٍ لا فرحُ محتاجٍ إلى توبةِ عَبدِهِ ينتفعُ بها، فإنَّهُ سبحانهُ لا تنفَعُهُ طاعةُ المُطيعُ ولا تضُرُّهُ مَعصِيةُ العَاصي.

وقولُهُ ﷺ: «يَضْحَكُ الله إِلَى رَجُلَيْن...» إلخ، قد بيَّنَ النَّبيُّ ﷺ في آخرِ الحديثِ سببَ ذلكَ في قولِهِ: «يُقاتل هذا في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ فيستشهد ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيقاتل في سبيل الله عزَّ وجلَّ

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨) ومسلم (٢٧٤٤).

(٢) رواه البخاري (٢٨٢٦).ومسلم (١٨٩٠).

....

فيستشهد»، وهذا مِنْ كَمالِ إحسانِ اللهِ سبحانَهُ وسعةِ رحمتِهِ، فإنَّ المُسلمَ يقاتلُ في سَبيلِ اللهِ فيقتلُهُ الكافرُ، فيُكرِمُ اللهُ المسلمَ بالشهادةِ، ثم يَمُنُّ اللهُ على ذلكَ الكَافِرِ القاتلِ فيَهديهِ للإسلامِ فيدخلانِ الجنةَ جميعاً، فهذا أمرٌ عجيبٌ، والضَّحكُ يكونُ من الأمورِ المعجبةِ التي تخرجُ عن نظائِرها.

والشَّاهدُ منَ الحَديثِ: إثباتُ الضَّحكِ للهِ سُبحانهُ، وهو صفةٌ من صفاتِهِ الفعليةِ، التي نُثبتُها له على ما يليقُ بجلالهِ وعظمتِهِ ليسَ كضحكِ المخلوقِ.

٣ـ إثبات
أن الله يعجب ويضحك

وقَولُهُ: «عَجِبَ رَبُّنا مِن قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُربِ غَيرِهِ؛ يَنظُرُ إلَيكُم أزِلينَ قَنِطينَ، فَيَظَلُّ يَضحَكُ يَعلَمُ أنَّ فَرَجَكُم قَرِيبٌ» حديث حسن[١].

الشرح:

«عَجِبَ رَبُّنا» قالَ في «المصباح»: التَّعجبُ يستعملُ على وجهينِ:

أحدُهما: ما يَحمَدُهُ الفاعلُ، ومعناه: الاستحسانُ والإخبارُ عن رضاهُ بهِ.

والثاني: ما يَكرههُ، ومعناهُ: الإنكارُ والذمُّ له «مِن قُنُوطِ عِبَادِهِ» القنوطُ: شدةُ اليأسِ من الشيءِ، والمرُادُ هنا: اليأسُ من نزولِ المطرِ وزوالِ القَحطِ «وَقُربِ غَيرِهِ» غِيرَه بكسر الغين وفتحِ الياء أي: تَغييره الحال مِنْ شدةٍ إلى رخاء «يَنظُرُ إلَيكُم أزِلينَ» الأزلُ بسكون الزاي: الضيقُ. وقد أزِلَ الرجلُ يأزِلُ أزْلاً صارَ في ضيقٍ وجدبٍ[٢].

«فَيَظَلُّ يَضحَكُ» هذا من صفاتِهِ الفعليةِ التي لا يُشبِهُهُ فيهَا شيءٌ من مَخلوقاتِهِ. ففي الحَديثِ إثباتُ صفتينِ من صِفاتِ اللهِ الفعليةِ هما: العَجَبُ، والضحكُ، وهما صِفتانِ تليقانِ بجلالِهِ ليستا كعجبِ المَخلوقِ وضَحِكِ المَخلوقِ، وفي الحديثِ أيضاً إثباتُ النَّظرِ للهِ سُبحانَهُ، وهو من

---

(١) رواه أحمد برقم (١٦٣٠٢) وابن ماجه (١٨١) وغيرهما.

(٢) «المعجم الوسيط» (١/ ١٦).

....

صفاتِهِ الفعليةِ أيضاً، فإنَّه ينظرُ إلى عبادِهِ، ولا يخفَى عليهِ شيءٌ فـــي الأرضِ ولا في السَّماءِ.

٤ـ إثبات
الرِّجلِ والقدم لله سبحانه

وقَولُهُ ﷺ: «لاَ تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجلَهُ»، وفي رواية: «عليها قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ» متفق عليه[1].

الشرح:

قَولُهُ: «لاَ تَزَالُ جَهَنَّمُ» جهنَّمُ[2] اسمٌ من أسماءِ النَّار، قيلَ: سُمِّيت بذلكَ؛ لبُعدِ قعْرِها، وقيلَ: لِظُلمَتِها، من الجهومةِ، وهي: الظُّلْمَةُ «يُلْقَى فِيهَا» أي: يُطرَحُ فيها أهلُها «وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» أي: تطلُبُ الزِّيادَةَ لسَعَتِها، وقد وعَدَها اللهُ أن يملأها «حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجلَهُ» لما كَانتِ النَّارُ في غايةِ الكِبرِ والسَّعةِ، وقد وعدَها اللهُ ملأها، وكانَ مقتضى رحمتِهِ سُبحانَهُ، أن لا يُعذبَ أحداً بغيرِ جُرمٍ - حقَّقَ وعدَهُ ووضَعَ عليها رِجْلَهُ «فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ» أي: ينضَمُّ بعضُها إلى بَعضٍ ويتلاقَى طرفَاهَا ولا يَبقَى فيها فضلٌ عن أهلِها «فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ» أي: حَسبي ويَكفِيني.

---

(١) رواه البخاري (٦٦٦١) ومسلم (٢٨٤٨).

(٢) اختلف في أصلها، فيرى يونس بن حبيب وأكثر النَّحويين بأنها أعجمية، وقال آخرون بأنها عربية... انظر «لسان العرب» (١٢/ ١١٢).

....

والشَّاهدُ من الحَديثِ:

أنَّ فيهِ إثباتَ الرِّجلِ والقَدَمِ للهِ تَعالى على الوجهِ اللائـقِ بـهِ سُـبحانهُ، وهو من صِفاتِ الذاتِ كالوجهِ واليَدِ. واللهُ تَعالى أعلَمُ.

وقَد غَلِطَ في تَفسيرِ هذا الحَديثِ المُعطلةُ حيثُ قالُوا: «قَدَمَهُ» نوعٌ من الخَلقِ، وقَالُوا: «رِجلَهُ» جماعةٌ مِنَ النَّاسِ، كما يُقـالُ: رجـلُ جـرادٍ، والـرَّدُّ على هذا: أنْ يُقالَ: إن النَّبيَّ ﷺ قالَ: حتَّى «يَضَعَ» وَلَمْ يقُـلْ: حتـى يُلْقـي، كما قالَ في أولِ الحَديثِ: «يُلْقَى فِيهَا» وأيضاً القدمُ لا يصحُّ تفسيرُه بـالقَومِ لا حقيقةً ولا مَجازاً.

٥- إثبات
النداء والصوت والكلام لله تعالى

وقَولُهُ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعالى: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ» متفق عليه[١]، وقَولُهُ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ»[٢].

الشرح:

قَولُهُ: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ» لبيكَ، أي: أنا مُقيمٌ على طَاعتِكَ، من أَلَبَّ بالمكانِ إذا أقامَ، وهو مَنصوبٌ على المَصدرِ، وثني للتأكيدِ، وسعديك: من المُساعدةِ وهي المُطاوعةُ[٣]، أي: مساعدةٌ في طاعتِكَ بعدَ مُساعدةٍ. قولـه: «فَيُنَادِي» بكسرِ الدالِ، والمُنادي هو اللهُ تعالى «بِصَوْتٍ» تأكيدٌ لقولِهِ: «يُنَادِي»؛ لأنَّ النِّداءَ لا يكونُ إلاَّ بصوتٍ، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾. قولُهُ: «بَعْثًا إِلَى النَّارِ» البعثُ هنا بمعنى: المَبعوثُ الموجَّهُ إليها، ومعنى ذلك: ميِّز أهلُ النَّارِ من غيرِهم.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٣٠) ومسلم (٢٢٢).
(٢) رواه البخاري (٧٤٤٣) ومسلم (١٠١٦).
(٣) وهي أن تريد من الشيء أمراً فيفعله حقيقةً أو مجازاً، وهي عكس التعدية، أي تفقد الفعل قدرته على نصب المفعول به، فتجعل المتعدي لازماً.
انظر «تصريف الأسماء والأفعال» د. فخر الدين قباوة (ص١١٢)، و«معجم المصطلحات النَّحوية والصرفية» (ص١٤٠).

....

والشَّاهدُ من الحَديثِ:

أنَّ فيهِ إثباتَ القَولِ من اللهِ والنِّدَاءِ بصوتٍ يُسمَعُ، وأنَّ ذلك سيحصلُ يومَ القِيامةِ، ففيهِ أنَّ اللهَ يقولُ ويُنادي متى شَاءَ وكما يشاءُ.

وقولُهُ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ» الخطابُ للصَّحابةِ، وهو عامٌّ لجَميعِ المُؤمنينَ «إلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ» أي: بلا واسطةٍ «لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ» التُّرجمانُ: من يُعبِّرُ بلغةٍ عن لغةٍ - أي: ينقلُ الكلامَ من لغةٍ إلى لُغةٍ أخرى.

والشَّاهدُ من الحَديثِ:

أنَّ فيهِ إثباتَ تَكليمِ اللهِ سُبحانه لِعبادِهِ، وأنهُ سُبحانَهُ يتكلمُ إذا شَاءَ، فكلامُهُ من صِفاتِهِ الفعليةِ، وأنَّه يكلِّمُ كُلَّ مؤمنٍ يومَ القِيامةِ.

٦ـ إثبات
علو الله على خلقه واستوائه على عرشه

وقَولُهُ فـي رُقيَـةِ المريـض: «رَبَّنَا الله الَّذِي فِي السَّمَاء، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ؛ كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاء، اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ؛ فَيَبْرَأ» حديث حسن، رواه أبو داود وغيره(١).

وقَولُهُ: «ألا تَأمَنُوني وأنَا أمِينُ مَنْ فِي السَّماءِ» حديث صحيح(٢)، وقَولُهُ: «وَالعَرشُ فَوقَ ذَلكَ، وَاللهُ فَوقَ العَرشِ، وَهُوَ يَعلَمُ مَا أَنتُم عَلَيهِ» حديث حسن رواه أبو داود وغيره(٣).

وقَولُهُ للجارية: «أَيْنَ اللهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاء. قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ الله. قَالَ: «أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» رواه مسلم(٤).

الشرح:

(في رُقيَةِ المريض) أي: القراءةُ على المَريضِ طلباً لشفائِهِ، وهي

---

(١) أبو داود (٣٨٩٢) وأحمد (٢٤٤٥٧).

(٢) رواه البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤).

(٣) رواه أبو داود (٤٧٢٦)، وصح موقوفاً على ابن مسعود، انظر «الأسماء والصفات» للبيهقي (٢/ ١٤٥) وانظر تمام تخريجه في «مختصر العلو» (ص١٠٣) و«الرد على الجهمية» للدارمي، تحقيق: بدر البدر (ص٤٦).

(٤) برقم (٥٣٧).

....

مشروعةٌ إذا كانَتْ بالقُرآنِ والأدعيةِ المُباحةِ، وممنوعةٌ إذا كانتْ بألفاظٍ شركيةٍ أو أعمالٍ شركيةٍ «رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ» أي: على السماء[1]، فـ«فِي» هنا بمعنى: على، كقولِهِ تَعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢]، أي: على الأرضِ، ويجوزُ أنْ تكونَ في للظرفيةِ على بَابِها، ويكونُ المُرادُ بالسماءِ: مطلقَ العلوِّ.

«تَقَدَّسَ اسْمُكَ» أي: تقدَّسَتْ أسماؤُكَ عن كُلِّ نقصٍ، فهو مفردٌ مُضافٌ، فيعمُّ جَميعَ أسماءِ اللهِ. «أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ» أي: أمرُكَ الكونيُّ القَدريُّ الذي ينشأُ عنهُ جميعُ المَخلوقاتِ والحَوادثِ، ومنهُ قولُهُ تَعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وأمرُكَ الشرعيُّ المتضمِّنُ للشرائعِ التي شَرَعْتَها لِعبادِكَ.

«كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ، اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ» هذا توسلٌ إليهِ برحمتِهِ التي شَملَتْ أهلَ السَّماواتِ كُلَّهُم أنْ يجعلَ لأهلِ الأرضِ منها نَصيباً «اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا» هذا طلبٌ للمغفرةِ وهيَ السِّترُ ووقايةُ الإثمِ، ومنهُ المِغفرُ الذي يُلبَسُ على الرأسِ لسترِهِ ووقايتِهِ من الضَّربِ، والحَوبُ: الإثمُ، والخَطايا: هي الذُّنوبُ.

«أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ» هذا توسلٌ آخرُ، و«الطَّيِّبِينَ»: جَمعُ طيِّبٍ، وهم النَّبيونَ وأتباعُهُم، وإضافةُ ربوبيتِهِ لهؤلاءِ إضافةُ تَشريفٍ وتَكريمٍ وإلا فهو

(١) إذا أريد بالسماء السماء المبنية.

....

سُبحانَهُ ربُّ كُلِّ شيءٍ ومليكِهِ «أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ» أي: الرَّحمةَ المَخلوقةَ، فإنَّ رحمةَ اللهِ نوعان[1]:

النَّوعُ الأولُ: رحمتُهُ التي هي صفةٌ من صِفاتِهِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

النَّوعُ الثَّاني: رحمةٌ تُضافُ إليهِ سُبحانَهُ من إضافةِ المَخلوقِ إلى خالقِهِ كالمذكورةِ في هذا الحَديثِ، وكما في حديثِ: «خَلَقَ اللهُ مائةَ رحمة» الحديث[2]، فطلبَ ﷺ من ربِّهِ إنزالَ هذهِ الرحمةِ على المَريضِ لحاجتِهِ إليهَا؛ ليشفيهُ بِهَا.

والشَّاهدُ من الحَديثِ:

أنَّ فيهِ إثباتَ العُلوِّ للهِ تَعالى، وأنَّهُ في السَّماءِ، والعُلوُّ صفةٌ ذاتيةٌ كمَا سَبقَ، كمَا أنَّ في الحديثِ التَّوسُّلَ إلى اللهِ تَعالى بالثناءِ عليهِ بربوبيتِهِ وإلهيتِهِ وقُدْسيَّتِهِ وعُلُوِّهِ وعُمومِ أمرِهِ وبرحمتِهِ، ثُمَّ في الحَديثِ طَلبُ المَغفرةِ من اللهِ وشِفاءُ المَرضِ.

وقولُهُ ﷺ: «ألا تَأمَنُوني» هذا خِطابٌ منهُ ﷺ لِمَن اعترَضَ عليهِ في بعضِ قسمتِهِ المالَ، و «ألا» أداةُ استفتاحٍ وتنبيهٍ. وَ«تَأمَنُوني»: من الأمانةِ، وهي عدمُ المحاباةِ والخيانةِ، أي: ألا تأمنوني في قسمةِ المالِ، «وأنَا أمينُ

---

(١) انظر «فتح الباري» (١٠/ ٥٣٢).

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٩) ومسلم (٢٧٥٢) والترمذي (٣٥٤١).

....

مَنْ فِي السَّماءِ» وهو اللهُ سبحانهُ قد ائتَمَنني على وَحيهِ ورسالتِهِ وتبليغِ شَرعِهِ، وكفى بذلكَ شهادةً على أمانتِهِ وصدقِهِ ﷺ.

والشَّاهدُ من الحَديثِ:

أنَّ فيهِ إثباتَ العلوِّ للهِ سُبحانه، حيثُ قالَ: «مَـنْ فِـي السَّـماءِ» وسبقَ شرحُ الجُملةِ قريباً[1].

وقولُهُ: «وَالعَرشُ فَوقَ ذَلِكَ» تقـدَّمَ تفسيرُ العَـرشِ[2]، وقولُـهُ: «فَـوقَ ذَلكَ» أي: فوقَ المَخلوقاتِ التي بيَّنها الرَّسولُ ﷺ لأصحابِهِ فـي الحَديـثِ الذي ذكَرَ فيهِ بُعدَ ما بيـنَ السَّـماءِ والأرضِ، ومـا بيـنَ كُـلِّ سَـماءٍ وسـماءٍ، وكثفَ كُلِّ سماءٍ والبحرَ الذي فوقَ السماءِ السابعةِ وما بيـنَ أسـفلِهِ وأعـلاهُ وما فوقَ ذلكَ البحرِ من الأوعالِ الثَّمانيةِ العظيمةِ، ثـم فـوقَ ذلـكَ العَـرشُ «وَاللهُ فَوقَ العَرشِ» أي: مستوٍ عليهِ استواءً يليقُ بجلالِهِ «وَهُوَ يَعلَمُ مَا أَنتُـم عَلَيهِ» بعلمِهِ المُحيطُ الذي لا يَخفى عليهِ شَيءٌ.

والشَّاهدُ منَ الحديثِ:

إثباتُ علوِ اللهِ على عَرشِهِ، وأنَّ عَرشَـهُ فـوقَ المَخلوقـاتِ كُلِّهـا، وأنَّ علمَ اللهِ سُبحانهُ محيطٌ بأعمالِ العِبادِ، لا يَخفى عليهِ منهَا شيءٌ.

(وقَولُهُ للجارية) أي: أمةُ معاويةَ بنِ الحَكمِ حينَما غَضِبَ عليها سيدُها

---

(١) (ص١٤٤).

(٢) عند تفسير آيات الاستواء (ص٩٩ - وما بعدها).

....

مُعاويةُ فلطمَها، ثُمَّ نَدِمَ وأخبرَ رَسولَ اللهِ ﷺ، وقالَ: أفلا أعتِقُها؟ فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «بَلى جئني بِهَا» فأتى بها رَسُولَ اللهِ ﷺ فقالَ لهَا: «أَيْنَ اللهُ» فيهِ دليلٌ على جوازِ السُّؤالِ عنِ اللهِ بأينَ (قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ) أي: اللهُ سُبحانَهُ في السَّماء. وتقدَّمَ تفسيرُ هذهِ الكلمةِ[1]- (قَالَ) لهَا النَّبيُّ ﷺ أيضاً: «مَنْ أنَا؟» سألَها عن اعتقادِها فيهِ (قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ) فأقرَّتْ لهُ بالرسالَةِ (قَالَ) ﷺ لسيدِها: «أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» فيهِ دليلٌ على أنَّ مَنْ شهِدَ هذهِ الشَّهادةَ أنهُ مؤمنٌ، وأنَّ العتقَ يُشترطُ لهُ الإيمانُ.

والشَّاهِدُ من الحديثِ:

أنَّ فيهِ دَليلاً على عُلوِّ اللهِ على خلقِهِ فوقَ سماواتِهِ، وأنهُ يُشارُ إليهِ في جهةِ العُلوِّ إشارةً حسيَّةً.

---

(١) في أول هذا الباب (ص١٤٤).

٧ـ إثبات
معية الله تعالى لخلقه وأنها لا تنافي علوه فوق عرشه

وقَولُهُ ﷺ: «أفضَلُ الإيمَان أنْ تَعلمَ أنَّ اللهَ معكَ حَيثُما كُنتَ» حديث حسن، أخرجه الطبراني[1] من حديث عبادة بن الصامت، وقَولُهُ: «إذَا قَامَ أحَدُكُمْ إلَى الصَّلاَةِ؛ فَلاَ يَبْصق قبَلَ وَجهِهِ، فَإنَّ الله قِبَلَ وَجهِهِ، ولا عَنْ يَمينِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أوْ تَحْتَ قَدَمِهِ» متفق عليه[2]، وقَولُهُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبعِ وَالأرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيلِ وَالْقُرآنِ، أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفسِي، وَمِن شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِها، أنْتَ الأوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأنْتَ الآخِرُ فَلَيْس بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ» رواه مسلم[3]، وقَولُهُ لمَّا رفع الصحابة أصواتهم بالذكر: «أيُّهَا النَّاسُ ارْبعُوا عَلَى أنْفُسِكُمْ؛ فَإنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أصَماً وَلاَ غَائِبًا؛ إنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعاً بَصِيراً قَرِيباً ؛ إنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أقْرَبُ

---

(١) في «الأوسط» (٨/ ٣٣٦) و«مسند الشاميين» له (٥٣٥، ١٤١٦) ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٢٤) وغيرهم، قال الطبراني: تفرد به عثمان بن كثير. وقال في «مجمع الزوائد» (١/ ٦٠) بعد أن ذكر قول الطبراني، قال: ولم أر من ذكره بثقة ولا جرح.

(٢) البخاري (٤١٦) ومسلم (٥٤٨).

(٣) (٢٧١٣) وقد تقدم ذكره في الشرح (ص٤٤).

إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ» متفق عليه[١].

الشرح:

قولُهُ: «أفضَلُ الإيمَان» أي: من أفضلِ خصالِهِ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الإيمانَ يتفاضلُ «أنْ تَعلمَ أنَّ اللهَ معكَ» أي: بعلمِهِ واطلاعِهِ «حَيثُما كُنتَ» أي: في أيِّ مكانٍ وُجدتَ، فمنْ عَلِمَ ذلك استوَتْ علانيتُهُ وسريرتُهُ فهابَهُ في كُلِّ مكانٍ (أخرجهُ الطبراني) أبو القَاسمِ سليمانُ اللخميُّ أحدُ الحُفاظِ المُكثرينَ، وقد رَوَى هذا الحَديثَ في «المُعجمِ الكَبيرِ»[٢].

وفي الحديثِ دليلٌ على إثباتِ معيةِ اللهِ لخلقِهِ بعلمِهِ وإحاطتِهِ بأعمالِهم، وأنهُ يجبُ على العَبدِ أنْ يتذكرَ ذلكَ دائِماً فيُحسِّنُ عمَلَهُ.

وقولُهُ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ» أي: إذا شرعَ فيهَا، «فَلاَ يَبْصُقْ» أي: لا يَتفِلُ «قِبَلَ وَجهِهِ» أي: أمامَهُ، «قِبَلَ». بكسرِ القافِ وفتحِ الباءِ «فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجهِهِ» هذا تَعليلٌ للنَّهي عن البُصاقِ في قبلةِ المُصلِّي بأن اللهَ سُبحانه «قِبَلَ وَجهِهِ» أي: مُواجهه، وهذه المُواجهةُ كما يَليقُ باللهِ سبحانَهُ لا يلزَمُ منها أنَّه سُبحانهُ مختلطٌ بخلقِهِ، بَلْ هُوَ فَوقَ سماواتِهِ مستوٍ على عَرشِهِ وهو قَريبٌ من خلقِهِ محيطٌ بهِمْ. «وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ» أي: ولا يبصقُ المُصلِّي عن يَمينِهِ؛ تشريفاً لليَمينِ، ولأنَّ المَلكينِ عن يمينِهِ، كما في روايةٍ

---

(١) رواه البخاري (٢٩٩٢) ومسلم (٢٧٠٤).

(٢) كما عزاه له الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٦٠)، إلا أنني لم أجده في المطبوع من «المعجم الكبير» للطبراني، فلعله في الجزء المفقود منه، وقد تقدم آنفاً أنه رواه في «الأوسط» و«مسند الشاميين» وكلاهما للطبراني.

....

للبُخاريِّ «وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ» أي: ولكِنْ لِيَبصُقِ المُصلي في جهةِ يَسارِهِ أو يَبصُقْ تحتَ قدمِهِ.

والشاهدُ من الحَديثِ:

أنَّ فيهِ إثباتَ قُربِ اللهِ سُبحانه من عبدِهِ المُصلِّي وإقبالِهِ عليهِ وهو سُبحانَهُ فوقَهُ.

وقولُهُ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبعِ» اللَّهُمَّ أصلهُ: يا اللهُ، فالميمُ عوضٌ عن ياءِ النِّداءِ[1]، «رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبعِ» أي: خَالِقها ومَالِكها، «وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» أي: الكبيرُ الذي لا يقدرُ قَدرَهُ إلا اللهُ، فهو أعظمُ المَخلوقاتِ، وتقدَّمَ تفسير العَرشِ[2] «رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ» اي: خالِقَنا ورازقُنا وخالقُ كُلِّ شيءٍ ومالكُهُ، ففيهِ إثباتُ ربوبيتِهِ لكلِّ شَيءٍ «فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى» أي: شاقُّ حَبِّ الطعامِ ونوى التَّمرِ للإنباتِ «مُنزِّلَ التَّوْرَاةِ» على مُوسى «وَالإِنْجِيلِ» على عيسى «وَالْقُرآنِ» على مُحمَّدٍ عليهمْ أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ، وفِي ذَلكَ دليلٌ على فَضلِ هذهِ الكُتبِ، وأنها مُنزَّلةٌ من اللهِ تَعالى.

«أَعُوذُ» أي: ألتجئُ وأعتصِمُ «بِكَ» يا اللهُ، «مِن شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ» أي: كُلِّ ما دَبَّ على وجهِ الأرضِ «أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا» النَّاصيةُ: مُقدَّمُ الرأسِ، أي:

---

(١) انظر «شرح ابن عقيل» (٣/ ٢٦٥) و«التنبيهات السنية» (ص١٧٧).
(٢) (ص١٠٠).

....

هي تحتَ قهرِكَ وسلطانِكَ تُصرِّفُها كيفَ تَشاءُ، لتصرِفَ شرَّها عنِي.

«أنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ» هذِهِ الأسماءُ الأربعةُ: اسمانِ لأزليتِهِ وأبديتِهِ، وهما:(الأَوَّلُ والآخِرُ)، واسمانِ لعلوِّهِ وقُربهِ، وهما:(الظَّاهِرُ والْبَاطِنُ) وهُما مَحلُّ الشاهدُ من الحَديثِ؛ لأنَّ فيهما إثباتَ علوِّ اللهِ وقربِهِ، وأنهما لا يتنافيان، ولا يتناقضانِ، فهو قَريبٌ في عُلوِّهِ عليٌ في دُنوِّهِ.

«اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ» أي: أدِّ عَنِّي حُقوقَ اللهِ وحُقوقَ الخلقِ، وفي هذا التبرُّؤ من الحَول والقُوةِ«وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ» الفقرُ: الحاجةُ، والفقيرُ: هو مَنْ لا يجدُ شيئاً أو يَجدُ بعضَ الكفايةِ، وفي الحَديثِ أيضاً مشروعيةُ التَّوسُّلِ إلى اللهِ سُبحانَهُ وتعالى بأسمائِهِ وصفاتِهِ في قَضاءِ الحَاجةِ وإجابةِ الدُّعاء.

(وقَولُهُ ﷺ لمَّا رفع الصحابة أصواتهم بالذكر) وذلكَ في غزوةِ خَيبرَ، كما جاءَ في بعضِ طُرقِ الحَديثِ، وأنَّ الذكرَ الذي رَفعوا بهِ أصواتَهم هو التَّكبيرُ: اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلاَّ اللهُ.

وقولُهُ:«أرْبِعُوا» أي: ارفِقُوا«فَإِنَّكُمْ» تعليلٌ للأمرِ بالرفقِ«لاَ تَدْعُونَ أَصَماً وَلاَ غَائِبًا» لا يَسمعُ دعاءَكُم ولا يَراكم، فَنفَى الآفَةَ المانِعَةَ من السَّمعِ والآفَةَ المانِعَةَ من النَّظرِ، وأثبتَ ضدَّهما فقالَ:«إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعاً بَصيراً

....

قَريباً» فلا دَاعيَ لِرفعِ الصَّوتِ «إنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ» فهو قَريبٌ ممَّنْ دعاهُ وذَكَرَهُ. فلا حاجةَ لرفعِ الأصواتِ وهُو قَريبٌ يسمعُها إذا خفضَتْ كما يَسمَعُها إذا رُفِعَتْ.

والشَّاهدُ من الحَديثِ:

أنَّ فيهِ إثباتَ قُربِ اللهِ سُبحانهُ من داعيهِ يسمعُ الأصواتَ الخفيةَ كما يسمعُ الأصواتَ الجهريةَ. فأفادَتْ هذهِ الأحاديثُ جَميعاً إثباتَ معيةِ اللهِ لخلقِهِ وقُربِهِ منهمْ وسماعِهِ لأصواتِهم ورؤيتِهِ لحركاتِهم، وذلكَ لا يُنافي عُلوَّهُ واستواءَهُ على عَرشِهِ، وقد تقدَّمَ الكَلامُ على المعيةِ[1] وأنواعِها وشواهِدها من القُرآنِ الكَريمِ مع تَفسيرِ تلكَ الشواهدِ. واللهُ أعلمُ.

---

(١) (ص١٠٧).

٨ـ إثبات
رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة

وقولُهُ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ؛ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلاَّ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلاَةٍ قَبْلَ غُرُوبِها؛ فَافْعَلُوا» متفق عليه[١].

الشرح:

قولُهُ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ» الخطابُ للمؤمنينَ، والسينُ للتنفيس، ويُرادُ بها التأكيدُ[٢] وقولُهُ: «تَرَوْنَ رَبَّكُمْ» أي: تعاينونَهُ بأبصارِكم، والأحاديثُ الواردةُ بإثباتِ رؤيةِ المُؤمنينَ لربِّهم مُتواتِرةٌ[٣].

قولُهُ: «كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ» أي: ليلةَ كمالِهِ وهي الليلةُ الرابعةُ عَشرةَ من الشَّهرِ، فإنَّه في تلكَ الليلةِ يكونُ قد امتلأَ نوراً، والمُرادُ من هَذا التَّشبيهِ تحقيقُ الرؤيةِ وتأكيدُها، ونفيُ المجازِ عنها، وهو تَشبيهٌ للرؤيةِ بالرؤيةِ لا تشبيهٌ للمرئيِّ بالمَرئيِّ؛ لأنهُ سُبحانَهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وقولُهُ: «لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ» بضَمِّ التاء وتخفيفِ الميمِ، أي: لا يَلحَقُكُم ضَيمٌ، أي: ظُلْمٌ بحيثُ يَراهُ بعضُكم دونَ بَعضٍ، ورُويَ بفتحِ التَّاءِ وتَشديدِ الميمِ، من التَّضامِّ، أي: لا يَنضَمُّ بعضُكم إلى بَعضٍ لأجلِ رُؤيتِهِ،

---

(١) رواه البخاري (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣).
(٢) انظر «التنبيهات السنية» (ص١٨٠).
(٣) انظر (ص١٢٥).

....

والمَعنى على هذهِ الروايةِ: لا تَجتمعونَ فِي مَكانٍ وَاحدٍ لرؤيتِهِ فيحصلُ بينَكمْ الزِّحامُ، والمَعنى على الروايتينِ: أنكمْ تَرونَهُ رؤيةً مُحققةً كُلٌّ مِنْكمْ يَراهُ وهُوَ في مَكانِهِ[1]. وقولُهُ «فَإِن اسْتَطَعْتُمْ ألاَّ تُغْلَبُوا» أي: لا تَصيروا مَغلُوبينَ «عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ»، وهي صَلاةُ الفجرِ «وَصَلاَةٍ قَبْلَ غُرُوبِها»، وهي صلاةُ العَصرِ، «فَافْعَلُوا» أي: حَافِظُوا على هَاتينِ الصَّلاتينِ فِي الجَماعةِ فِي أوقاتِهِما، وخَصَّ هَاتينِ الصَّلاتينِ لاجتماعِ الملائِكةِ فيهما، فهُما أفضلُ الصَّلواتِ، فناسبَ أنْ يُجازي من حافظَ عَليهِما بأفضلِ العطايا وهو النَّظرُ إلى وجهِ اللهِ تَعالى.

والشَّاهدُ من الحَديثِ:

أن فيهِ إثباتَ رؤيةِ المُؤمنينَ لربِّهم عَياناً يومَ القِيامةِ، وقدْ تقدَّمَ ذكرُ من خالفَ في ذلكَ مع الرَّدِّ عليهِ عندَ الكلامِ على تَفسيرِ الآياتِ التي فيها إثباتُ الرؤيةِ[2]. واللهُ أعلمُ.

---

(١) انظر «فتح الباري» (١٣/ ٥٢٦) و «التذكرة» للقرطبي (١/ ٣٩٤).

(٢) راجع (ص١٢٦) وما بعدها.

موقف أهل السنة من هذه الأحاديث التي فيها إثبات الصفات الربانية

إلى أمثَال هَذِهِ الأَحاديثِ الَّتي يُخبَرُ فِيها رَسولُ الله ﷺ عَن رَبِّهِ بمَا يُخبَرُ بِهِ، فَإِنَّ الفِرقَة النَّاجيَـةَ أَهلَ السُّنةِ وَالجَمَاعَـةِ يُؤمنـونَ بذلـكَ كَمـا يُؤمنونَ بمَا أخبرَ اللهُ بِهِ في كِتابِهِ؛ مِن غَيرِ تَحريفٍ وَلاَ تعطيلٍ وَمِن غَيرِ تَكييفٍ وَلاَ تَمثيلٍ.

الشرح:

هذا بيانٌ لموقفِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ من أحاديثِ الصِّفَـاتِ الـواردةِ عن الرَّسُولِ ﷺ، أنه كموقفِهم من آياتِ الصفاتِ الواردةِ في القُرآنِ ســواءٌ، وهو الإيمانُ بها واعتقـادُ مـا دلَّـتْ عليـهِ علـى حقيقتِـهِ، لا يَصْرفونَهـا عـن ظاهِرها بأنواعِ التأويلِ البـاطلِ، ولا ينفـونَ مـا دلَّـتْ عليـهِ فيُعطِّلونهـا، ولا يشبهونَ الصفاتِ المذكورةِ فيها بصفاتِ المخلوقينَ؛ لأنَّ اللهَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وهم بذلك يخالفونَ طريقةَ المُبتدعةِ من الجهميةِ والمُعتزلةِ والأشاعرةِ الذينَ كانَ مَوْقِفُهم من هذهِ النُصوصِ مَوقـفَ المُنكـرِ لهـا أو المُـؤَوِّلِ لمـا دلَّتْ عليهِ، وبخِلافِ المشـبهةِ الذيـنَ غَلَـوْا فـي الإثبـاتِ حتـى شـبَّهُوا اللهَ بخلقِهِ، تَعالى اللهُ عمَّا يَقولونَ عُلواً كَبيراً.

مكانة أهل السنة والجماعة بين فرق الأمة

بَل هُم الوَسَطُ فِي فِرقِ الأُمَّةِ، كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الوَسَطُ في الأُمَمِ، فَهُم وَسَطٌ في بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبحانَهُ وتَعالى بَينَ أهلِ التَّعطيلِ الجَهميةِ وَأَهْلِ التَّمثيلِ المُشبهةِ. وَهُم وَسطٌ في بَابِ أفعالِ اللهِ بَينَ الجَبريةِ وَالقدريةِ وَغَيرِهِم. وَفي بَابِ وَعيدِ اللهِ بَينَ المُرجئةِ وَالوعيديةِ مِنَ القَدريةِ وَغَيرِهِم. وفي بَابِ أسماءِ الإِيمانِ وَالدِّينِ بَينَ الحَرُورِيَّةِ وَالمُعتزِلَةِ وَبينَ المُرجئَةِ وَالجَهميَّةِ. وَفي بَابِ أَصحَابِ رَسولِ اللهِ ﷺ بَينَ الرَّافِضَةِ وَالخَوارِجِ.

الشرح:

لما بيَّنَ الشَّيخُ رحِمهُ اللهُ موقفَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ مِنَ النُّصوصِ الواردةِ في الكِتابِ والسُّنَّةِ في صِفاتِ اللهِ تَعَالى أرادَ أن يُبينَ مكانتَهم بينَ فرقِ الأمةِ حتَّى يُعْرَفَ قدْرُهُم وفضْلُهُم بمقارَنَتِهم بغَيرِهم. فإنَّ الضدَّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضدُّ. وَبِضدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ. قالَ رحِمهُ اللهُ: (بَل هُم الوَسَطُ فِي فِرقِ الأُمَّةِ) قالَ في «المصباحِ المنيرِ»: الوَسط بالتَّحريكِ: المُعتدلُ، والمُرادُ بالوسطِ هنا: العَدْل الخِيار، قالَ تعالى في الآيةِ (١٤٣) مِن سورةِ البَقرةِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

فأهلُ السُّنَّةِ وسطٌ: بمعنى: أنهم عَدولٌ خِيارٌ، وبمعنى: أنهم متوسِّطونَ بينَ فَريقي الإفراطِ والتفريطِ، فهمْ وسطٌ بينَ الفرقِ المنتسبةِ للإسلامِ، كما أنَّ الأمةَ الإسلاميةَ وسطٌ بينَ الأُممِ. فهذهِ الأُمةُ وَسطٌ بينَ الأممِ التي تَميلُ

....

إلى الغُلوِّ والإفْراطِ والأُممِ التي تَميلُ إلى التَّفريطِ والتَّساهُل؛ وأهلُ السُّـــنَّةِ والجماعةِ من هذهِ الأمةِ وسطٌ بينَ فرقِ الأمةِ المُبتدعَةِ التــي انحرفَـتْ عَـنِ الصِّراطِ المُستقيمِ فَغلا بعضُها وتطرَّفَ، وتساهَلَ بعضُها وانْحرفَ.

ثُمَّ بيَّنَ الشيخُ رحِمهُ اللهُ تفصيلَ ذلك، فقالَ: (فَهُم) أي: أهــلُ السُّـــنةِ والجَماعةِ.

أولاً: (وَسَطٌ في بَابِ صِفاتِ اللهِ سُبحانَهُ وَتَعــالى بَيـنَ أَهـلِ التَّعطيـلِ الجَهميةِ وَأهْلِ التَّمثيلِ المُشبهةِ) فالجُهميةُ -نسبةٌ إلــى الجَهـمِ بـنِ صَفـوانَ الترمذيِّ- هؤلاءِ غَلَوا وأفرطوا في التَّنزيهِ حتَّـى نفَـوا أسـماءَ اللهِ وصِفاتِـهِ؛ حذراً من التَّشبيهِ بزعمِهِم، وبذلــك سُـمُّوا معطلـةً؛ لأنَّهـم عطَّلُـوا اللهَ مـن أسمائِهِ وصفاتِهِ.

(وَأهْلِ التَّمثيلِ المُشبهةِ) سُمُّوا بذلكَ؛ لأنهم غلوا وأفرطوا فــي إثبـاتِ الصِفاتِ حتَّى شبَّهوا اللهَ بخلقِهِ ومثَّلوا صفاتَــهُ بصفـاتِهم، تَعَـالى اللهُ عمَّـا يَقُولونَ.

وأهلُ السُّـنَّةِ توسَّطُوا بينَ الطَّرفيــنِ، فـأثبتُوا صفـاتَ اللهِ علـى الوجـهِ اللائقِ بجلالِهِ مِن غيرِ تَشبيهٍ ولا تَمثيلٍ، فلم يغلوا في التنزيهِ، ولم يَغلوا في الإثباتِ، بل نزَّهُوا اللهَ بلا تَعطيلٍ، وأثبتوا له الأسماءَ والصِفاتِ بلا تَمثيلٍ.

ثانياً: وأهلُ السُّـنَّةِ والجَماعةِ (وَسطٌ في بَابِ أفعــالِ اللهِ بَيــنَ الجَبريـةِ وَالقدريةِ).

....

فـ(الجَبريةِ) نسبةٌ إلى الجبر؛ لأنهُـم يَقولـونَ: إنَّ العَبـدَ مجبـورٌ علـى فعلِهِ، فهمْ غَلَوا في إثباتِ أفعالِ اللهِ حتَّى نَفَوا أفعالَ العِبادِ، وزَعَمـوا أنهـم لا يَفعلونَ شيئاً، وإنمَّا اللهُ هو الفاعِلُ، والعبدُ مجبورٌ على فعلِـهِ، فحركاتُـهُ وأفعالُهُ كلُّها اضطراريـةٌ، كحركـاتِ المرتعشِ، وإضافـةُ الفِعـلِ إلـى العَبـدِ مجازٌ.

(وَالقدريةِ) نسبةٌ إلى القدرِ، غَلَوا في إثبـاتِ أفعـالِ العِبـادِ، فقـالوا: إنَّ العَبدَ يَخلُقُ فعلَ نفسِهِ بـدونِ مشيئةِ اللهِ وإرادتِـهِ، فأفعـالُ العِبـادِ لا تدخـلُ تحتَ مشيئةِ اللهِ وإرادتِهِ فاللهُ لم يُقدِّرْهـا ولـم يُرِدْهـا، وإنمـا فَعلوهـا هُـمْ استِقلالاً.

وأهلُ السُّنَّةِ توسَّطوا، وقالوا: للعبدِ اختيارٌ ومشيئةٌ وفعلٌ يصـدرُ منـهُ، ولكنهُ لا يفعلُ شيئاً بدونِ إرادةِ اللهِ ومشيئتِهِ وتقديـرِهِ، قـالَ تَعـالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، فأثبتَ للعبادِ عمـلاً هـو مِـنْ خلـقِ اللهِ تَعـالى وتقديـرِهِ. وقـال تَعـالى: ﴿وَمَـا تَشَـاءُونَ إلاَّ أَن يَشَـاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، فأثبتَ للعبادِ مشيئةً تأتي بعدَ مشيئةِ اللهِ تَعـالى. وسيأتي لهذا مَزيدُ إيضاحٍ إنْ شاءَ اللهُ تعالى في مبحثِ القَدرِ[١].

ثالثاً: وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ وسَطٌ (فِي بَابِ وَعيدِ اللهِ) الوَعيدُ: التخويفُ والتَّهديدُ، والمُرادُ هنا: النُّصوصُ التي فيها توعُّدٌ للعصاةِ بالعذابِ والنَّكالِ.

---

(١) (ص٢٠٩) وما بعدها.

....

وقولُهُ: (بَينَ المُرجئةِ وَالوعيديةِ مِنَ القَدريةِ وَغيرهِم)، (المُرجئةِ): نسبةً إلى الإرجاءِ وهو التأخيرُ، سُمُّوا بذلكَ؛ لأنهم أخَّرُوا الأعمالَ عن مُسمَّى الإيمانِ، حيثُ زعمُوا أنَّ مرتكبَ الكَبيرَةِ غيرَ فاسقٍ، وقَالُوا: لا يَضُرُّ معَ الإيمانِ ذنبٌ، كَما لا ينفعُ مَعَ الكُفرِ طاعةٌ، فعندهُمْ أنَّ مرتكبَ الكبيرةِ كاملُ الإيمانِ غيرُ معرَّضٍ للوعيدِ، فهم تسَاهلُوا في الحُكمِ على العاصي وأفْرطوا في التَّساهُلِ، حتَّى زَعموا أنَّ المَعاصيَ لا تُنقِصُ الإيمانَ، ولا يُحكَمُ على مُرتكِبِ الكَبيرةِ بالفِسقِ.

وأما (الوعيديةِ): فهم الذينَ قالُوا بإنفاذِ الوَعيدِ على العَاصي، وشدَّدوا فِي ذلكَ، حتَّى قَالُوا: إنَّ مرتكبَ الكبيرةِ إذا ماتَ ولم يتُب فهو مخلدٌ في النَّارِ، وحكمُوا بخروجهِ من الإيمانِ في الدُّنيا.

وأهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ توسَّطُوا بينَ الطَّرفينِ، فقالوا: إنَّ مرتكبَ الكَبيرةِ آثمٌ ومعرضٌ للوَعيدِ وناقصُ الإيمانِ ويحكمُ عليهِ بالفسقِ -لا كَما تقولُ المرجئةُ: إنه كاملُ الإيمنِ وغيرُ مُعرَّضٍ للوعيدِ- ولكنهُ لا يخرجُ من الإيمانِ ولا يُخلَّدُ في النَّارِ إنْ دَخلَها، فهو تحتَ مشيئةِ اللهِ، إن شاءَ عفَا عنهُ، وإنْ شاءَ عذَّبَهُ بقدرِ معصيَتِهِ ثُمَّ يخرجُ من النَّارِ ويَدخلُ الجنةَ -لا كمَا تقولُهُ الوعيديَّةُ بخروجهِ من الإيمانِ وتخليدِهِ في النَّارِ- فالمرجئةُ أخذوا بنصوصِ الوَعدِ، والوعيديةُ أخذوا بنصوصِ الوَعيدِ، وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ جمَعوا بينهُمَا.

....

رابعاً: وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ وسطٌ (في بَابِ أسماءِ الإِيمَانِ وَالدِّينِ) أي: الحكمُ على الإنسانِ بالكُفرِ، أو الإسلامِ، أو الفسقِ، وفي جزاءِ العُصاةِ في الدُّنيا والآخرةِ. (بَينَ الحَرُورِيَّةِ وَالمُعتزلَةِ وَبينَ المُرجئَةِ وَالجَهميَّةِ)، (الحَرُورِيَّةِ): هم الخَوارجُ، سُمُّوا بذلكَ نسبةً إلى حَروري، قريةٌ بالعِراق اجتمعوا فيها حينَ خَرجوا على عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ. و(المُعتزِلَةِ): هُمْ أتباعُ واصلِ بنِ عَطاء الذي اعتزلَ مجلسَ الحَسنِ البَصريِّ، وانحازَ إليهِ أتباعُهُ بسببِ خِلافٍ وقعَ بينهُما في حكمِ مرتكبِ الكَبيرةِ مِنَ المُسلمينَ، فقالَ الحَسنُ رحِمهُ اللهُ عن واصلٍ هذا: إنَّهُ قد اعتزَلنا، فسُمُّوا معتزلةً.

فمذهبُ الخوارجِ والمُعتزلةِ في حُكمِ مرتكبِ الكَبيرةِ مِنَ المُسلمينَ: مذهبٌ متشددٌ، حيثُ حَكمُوا عليهِ بالخروجِ مِنَ الإسْلامِ، ثمَّ قالَ المُعتزلةُ: إنهُ ليسَ بمسلمٍ ولا كافرٍ، بل هو بالمنزلةِ بينَ المَنزلتينِ، وقالَ الخَوارجُ: إنه كافرٌ، واتَّفَقُوا على أنَّه إذا ماتَ على تلكَ الحالِ أنهُ خالدٌ مُخلدٌ في النَّارِ. وقابلَتهُم المرجئةُ والجُهميةُ فتساهلوا فِي حُكمِ مرتكبِ الكَبيرةِ وأفرطوا في التساهُلِ معه، فقالُوا: لا يضرُّ معَ الإيمانِ معصيةٌ؛ لأنَّ الإيمانَ عندهم هو تَصديقُ القلبِ فقط أوْ معَ نُطقِ اللسانِ على خلافٍ بينهُم ولا تَدخُلُ فيهِ الأعمالُ فلا يزيدُ بالطاعةِ ولا ينقصُ بالمعصيةِ، فالمعاصي لا تُنقِصُ الإيمانَ ولا يَستحِقُ صاحبُها النَّارَ إذا لم يَستَحِلَّها.

وأهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ توسَّطوا بينَ الفرقتينِ، فقالوا: إنَّ العاصيَ لا يخرجُ من الإيمانِ لمجردِ المَعصيةِ، وهو تحتَ المشيئةِ إنْ شاءَ اللهُ عفَا

....

عنهُ وإن شـاءَ عذّبهُ في النَّارِ، لكنهُ لا يُخلَّدُ فيها كما تَقولُ الخوارجُ والمُعتزلةُ، والمعاصي تُنقِصُ الإيمانَ ويستحقُ صاحبُها دخولَ النَّارِ إلا أنْ يَعفوَ اللهُ عنهُ، ومرتكبُ الكَبيرةِ يكونُ فاسقاً ناقصَ الإيمانِ، لا كَما تقولُ المرجئةُ: إنهُ كاملُ الإيمانِ، واللهُ تَعَالى أعلمُ.

خامساً: وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ وسطٌ في حَقِّ (أصحَابِ رَسولِ اللهِ ﷺ بَينَ الرَّافِضَةِ وَالخَوارِجِ) الصحابيُّ: هو من لَقِيَ النَّبيَّ ﷺ مؤمناً بهِ وماتَ على ذلك[1].

و(الرَّافِضَةِ) [2] اسمٌ مأخوذٌ منَ الرفضِ، وهو التركُ، سُمُّوا بذلكَ؛ لأنَّهم قالُوا لزيدِ بنِ عَلي بنِ الحُسينِ: تبرَّأ مِنَ الشَّيخينِ أبي بكرٍ وعُمرَ، فأبى، وقالَ: معاذَ اللهِ، فرفضوهُ، فسُمُّوا رافضةً.

ومذهبُهُم في صحابةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أنَّهم غلوا في عَليٍّ رَضيَ اللهُ عنهُ وأهلِ البيتِ، وفضَّلوهُم على غيرهم، ونصَبُوا العداوةَ لبقيةِ الصَّحابةِ، خُصُوصاً الخلفاءَ الثلاثةَ: أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ رضيَ اللهُ عَنهُمْ، وسبُّوهم ولعنوهُم، وربما كَفَّرُوهم أو كَفَّروا بعضَهم، وقابَلَهُمُ الخوارِجُ فكفَّروا علياً رَضيَ اللهُ عَنهُ وكفَّروا معهُ كثيراً من الصَّحابةِ وقاتَلوهُم واستحلُّوا دماءَهم وأموالَهُم.

---

(١) سلف في (ص١١).

(٢) انظر ما يتعلق بأسباب هذه التسمية، وعلى من تطلق من فرق الشيعة، مع بيان مبادئهم في كتاب «مسألة التغريب بين أهل السنة والشيعة» للقفاري (١/ ١٧١).

....

وأهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ خالفُوا الجَميعَ، فوالَوا جميعَ الصحابةِ، ولم يَغلُوا في أحدٍ منهم، واعترفوا بفضلِ جَميعِ الصحابةِ، وأنهمْ أفضلُ هذهِ الأمةِ بعد نبيِّها. ويأتي لهذا مزيدُ بيانٍ(١).

(١) انظر (ص٢٣٩) من هذا الكتاب.

وجوب الإيمان باستواء الله على عرشه
وعلوه على خلقه ومعيته لخلقه وأنه لا تنافي بينهما

قال رحمه الله:

فصل

وَقَد دَخَلَ فِيما ذَكَرنَاهُ مِنَ الإيمانِ باللهِ الإيمانُ بما أخبَرَ اللهُ بهِ في كِتابهِ، وتَواتَرَ عَن رَسُولِهِ، وأَجمَعَ عَلَيهِ سَلَفُ الأُمَّةِ، مِن أَنَّهُ سُبحَانَهُ فَوقَ سَماواتِهِ، عَلى عَرشِهِ، عَليٌّ عَلى خَلْقِهِ، وَهُوَ سُبحانَهُ مَعَهُم أينَمَا كَانُوا يَعلَمُ مَا هُم عَامِلُونَ؛ كَمَا جَمَعَ بَينَ ذَلكَ فِي قَولِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحديد: ٤].

وَلَيسَ مَعنَى قَولِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، أَنَّهُ مُختَلِطٌ بالخَلقِ فَإنَّ هذا لا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وهُوَ خِلافُ ما أجمعَ عليهِ سَلَفُ الأُمَّة وخِلافُ ما فَطرَ اللهُ عليهِ الخَلقَ بَل القَمَرُ آيَةٌ مِن آيَاتِ الله مِن أصغَرِ مَخلُوقَاتِهِ، وَهُوَ مَوضوعٌ في السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ المُسافِرِ وَغَيرِ المُسَافِرِ أَينَمَا كَانَ، وهو سبحانه فوق عرشه، رقيب على خلقه، مهيمن عليهم، مطلع عليهم... إلى غير ذلك من معاني ربوبيته.

الشرح:

خصصَ المُصنفُ رحمَهُ اللهُ هَاتينِ المسألتينِ (الاستواءَ عَلى العَرشِ

....

وَمَعيَّتَه للخَلق) بالتنبيهِ؛ ليزيلَ الإشكالَ فقدْ يتوهَّمُ وجودَ التنافي بينَهما، فقد يَظُنُّ الظانُّ أنَّ ذلكَ مثلُ صفاتِ المَخلوقينَ، وأنَّهُ مختلطٌ بهمْ، فكيفَ يَكونُ فَوقَ خلقِهِ مستوياً على عَرشِهِ ويكونُ مع خَلقِهِ قريباً منهُمْ بدونِ مُخالطةٍ؟!

والجوابُ عنْ هذهِ الشُّبهةِ -كما وضَّحهُ الشيخُ رحمهُ اللهُ- من وجوهٍ[1]:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ هذا لا تُوجبُهُ لغةُ العَربِ التي نزَلَ بها القُرآنُ الكَريمُ، فإنَّ كلمةَ (مَعَ) في اللغةِ لمطلقِ المُصاحبةِ لا تفيدُ اختِلاطاً وامتزاجاً ولا مجاورةً ولا مماسةً. فإنك تقولُ: زوجتي معي وأنتَ في مكانٍ وهي في مكانٍ آخرَ، وتقولُ: ما زلنا نَسيرُ والقَمرُ معنا، وهو في السَّماءِ ويكونُ معَ المُسافِرِ وغيرِ المُسافرِ أينما كانَ، وإذا صحَّ أنْ يُقالَ هذا في حَقِّ القَمرِ وهُو مخلوقٌ صَغيرٌ، فكيفَ لا يُقالُ في حقِّ الخالقِ الذي هو أعظمُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ.

الوَجهُ الثَّاني: أنّ هَذا القولَ خلافُ ما أجمعَ عليهِ سلفُ الأُمةِ من الصَّحابةِ والتابِعينَ وتابِعيهم (وهُمْ القُرونُ المُفضلةُ) الذينَ هُم القُدوةُ فقدْ أجْمَعُوا على أنَّ اللهَ مستوٍ على عَرشِهِ عالٍ على خلقِهِ بائنٌ منهم، وأجمَعُوا على أنَّهُ مَعَ خلقِهِ بعلمِهِ سبحانهُ وتَعالى، كما فسَّروا قولَه تَعالى: ﴿وَهُوَ

---

(١) انظر «مختصر الصواعق المرسلة» (ص٤٥٥) و«فتح رب البرية بتلخيص الحموية» للشيخ ابن عثيمين (ص٥٩).

....

مَعَكُمْ﴾ بذَلكَ.

الوَجهُ الثَّالث: أنَّ هَذا خلافُ ما فطرَ اللهُ عليهِ الخَلقَ، أي: ركــزَهُ فــي فِطرهِم، فإنَّ الخلقَ فُطِروا على الإقرارِ بعلوِّ اللهِ سُبحانهُ علــى خلقِــهِ، فـإنَّ الخلقَ يتجهونَ إلى اللهِ عندَ الشَّدائدِ والنَّوازلِ نحوَ العلوِّ لا تلتفتُ يمنةً ولا يُسرةً من غيرِ أنْ يرشدَهُم إلى ذلكَ أحدٌ، وإنما ذلكَ بموجبِ الفِطــرةِ التــي فطرَ اللهُ النَّاسَ عليهَا.

الوَجــهُ الرابــع: أنَّ هــذا خِــلافُ مــا أخــبرَ اللهُ بــهِ فــي كتابــهِ وتواتَــرَ عنْ رَسولِهِ من أنهُ سُبحانَهُ وتعالى على عَرشِهِ، عَليٌّ على خلقِهِ، وهو مَعهــم أينمَا كانُوا. والمُتواترُ[1] منَ النُّصوصِ: هــو مــا رواهُ جماعــةٌ تحيــلُ العــادةُ تواطؤهُمْ علــى الكَــذبِ عــنْ مثلِهــم مِــنَ الابتــداءِ إلــى الانتهــاءِ. والآيــاتُ والأحاديثُ في هذا كَثــيرةٌ منهَــا الآيــةُ التــي ذَكرَهــا المُصنِّــفُ رحِمــهُ اللهُ. واللهُ أعلمُ.

وقولُ المُصنِّفِ رحِمَهُ اللهُ (وهــو ســبحانه فــوق عرشــه، رقيــب علــى خلقه، مهيمن عليهم، مطلع عليهم) تقريرٌ وتأكيدٌ لمَا ســبقَ مــن ذكــرِ علــوِّهِ على عَرشِهِ وكونِهِ معَ خلقِهِ بذكرِ اسمينِ من أسمائِهِ سُبحانهُ وهما: (الرقيب والمهيمن)، قــالَ اللهُ تَعَالــى: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النِّســاء: ١]،

---

(١) «تدريب الراوي» (٦٢٧) و«التنبيهات السنية» (ص١٩٥) و«علم أصول الجرح والتعديل» لأمين لاوي (ص٢٩٧).

....

والرَّقيبُ[1]: هو المُراقِبُ لأحوالِ عبادِهِ. وفي ذلكَ دلالةٌ على قربِهِ منهم، وقالَ تَعَالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]، والمُهيمنُ[2]: هُو الشَّاهدُ على خلقِهِ المُطَّلعُ على أعمالِهم الرَّقيبُ عليهِمْ.

(إلى غير ذلك من معاني ربوبيته) أي: أنَّ مُقتضَى ربوبيَّتِهِ سُبحانَهُ أنْ يكُونَ فوقَ خلقِهِ بذاتِهِ، ويطَّلِعُ على أعمالِهِم، ويكونَ قريباً منهم بعلمِهِ وإحاطتِهِ، يُصَرِّفُ شؤُونَهم، ويَحصيَ أعمالَهم، ويجازِيَهم عليهَا.

---

(١) انظر «النَّهج الأسمى» (١/ ٣٧٧).

(٢) انظر «النَّهج الأسمى» (١/ ١١٩).

ما يجب اعتقاده في علوه ومعيته سبحانه ومعنى كونه سبحانه (في السماء) وأدلة ذلك

وَكُلُّ هذا الكَلامِ الَّذِي ذَكَرَهُ الله -مِن أَنَّهُ فَوقَ العَرشِ وَأَنَّهُ مَعَنَا- حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لاَ يَحتاجُ إِلى تَحريفٍ، ولكن يُصانُ عَن الظُّنُونِ الكَاذِبَةِ مِثل أن يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَولِهِ: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ [سورة الملك: ١٧] أَنَّ السَّمَاء تُقِلُّهُ أو تُظِلُّهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإجماعِ أَهلِ العِلمِ وَالإِيمانِ، فَإِنَّ الله قَد ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥]، وهو الَّذي ﴿يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾ [سورة فاطر: ٤١]، ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [سورة الحج: ٦٥]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [سورة الروم: ٢٥].

الشرح:

يُبيِّنُ الشيخُ رحِمهُ اللهُ ما يَجبُ اعتقادُهُ بِالنِّسْبَةِ لما أخبرَ اللهُ بهِ عنْ نفسِهِ مِنْ كَونِهِ فوقَ العَرشِ، وهو مَعنا: أنَّهُ يجبُ الإيمانُ بهِ كما أخبرَ اللهُ، ولا يَجوزُ تأويلُهُ وصَرفُهُ عن ظاهِرِه، كما يَفعلُهُ المعطلةُ من الجهميةِ والمعتزلةِ وأشباهِهِم فيزعمونَ أنَّ ذَلكَ ليسَ حقيقةً وإنَّما هو مجازٌ، فيؤولونَ الاستواءَ على العَرشِ بالاستيلاءِ على المُلكِ، وعُلوَّ اللهِ على خلقِهِ بعلوِّ قدرِهِ وقَهرِهِ، ونحوَ ذلكَ من التأويلاتِ الباطلةِ التي هي تحريفٌ لكَلامِ اللهِ عن مواضِعِهِ. ومنهمْ مَنْ يَقولُ: إنَّ معنى كونِهِ معنا: أنهُ حالٌ في كُلِّ مكانٍ، ما تقولُهُ حلوليةُ الجهميةِ وغيرهم. تَعالى اللهُ عَمَّا يَقولونَ عُلواً كَبيراً.

....

وقولُهُ: (ولكن يُصانُ عَن الظُّنون الكَاذِبَةِ مِثل: أن يُظَنّ أنّ ظاهِرَ قولِـهِ: ﴿في السَّـمَاء﴾ أنّ السَّـمَاء تُقِلُّـهُ أو تُظِلُّـهُ) تُقِلُّـهُ: أي تحمِلُـهُ. وتُظِلُّـهُ: أي: تَسْتُرُهُ. والظُّلَة: الشيءُ الذي يُظَلِّلُكَ مِنْ فوقِكَ، وليسَ هذان المَعنيان مُرادينِ في كَونِهِ سُبحانه في السَّماء. ومَنْ ظنَّ ذلكَ فقدْ أخطـأ غايـةَ الخطـإِ وذلـكَ لأمرينِ:

الأمر الأوَّل: أنَّ هذا خِلافُ ما أجمعَ عليهِ أهلُ العِلـمِ والإيمـان، فقـدْ أجمَعُوا على أنَّهُ سُبحانَهُ فوقَ عرشِهِ بائنٌ من خلقِهِ لَيسَ في ذاتِهِ شـيءٌ مـن مَخلوقاتِهِ ولا في مخلوقاتِهِ شيءٌ من ذاتِهِ، وقدْ تقدَّمَ الكلامُ في تَفسيرِ قولِـهِ تَعالى: ﴿أَأَمِنتُمْ مَّن فِي السَّمَاء﴾، وأنهُ إنْ أُريدَ بالسَّـماء السَّـماءُ المبنيـةُ فـ ﴿فِي﴾ بمعنى: (على) أي: على السَّماء، كقولِهِ: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُـمْ فِـي جُـذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: على جذوعِ النَّخلِ، وإنْ أُريدَ بالسَّماءِ العُلُوُّ كانَ المعنى: (فـي السماءِ) أي: في العلوِّ[1]. واللهُ أعلمُ.

الأمر الثَّاني: أنَّ هذا الظنَّ مُخالفٌ ومُصادمٌ لأدلةِ القُـرآنِ الدالـةِ علـى عَظمةِ اللهِ وغِناهُ عنْ خلقِهِ وحاجةُ خلقِهِ إليهِ، كما في قولِهِ تَعَـالى: ﴿وَسِـعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ والكرسيُّ مَخلوقٌ عَظيـمٌ بيـنَ يـدي العَـرشِ، وهـو أعظـمُ مـن السَّماواتِ والأرضِ، والعَـرشُ أعظـمُ منـهُ، فـإذا كـانتْ السَّماواتُ والأرضُ أصغرَ من الكُرسـيِّ والكرسيُّ أصغرُ مِنَ العَرشِ، واللهُ

(١) انظر ما سلف في (ص١٤٤).

....

أعظمُ مِنْ كُلِّ شيءٍ، فكيفَ تحويهِ السَّماءُ أو تُقِلُّهُ أَوْ تُظِلُّهُ؟!

وكذلك قولُهُ تَعَالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أن تَزُولاَ﴾، ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إلاَّ بإِذْنِهِ﴾، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ فَهذِهِ الآياتُ تَدُلُّ على أنَّ السَّماواتِ والأرضَ بحاجةٍ إليهِ، فهو الذي يُمسِكُها أنْ تَزولَ أو تقعَ ويكونُ قيامُها بأمرِهِ وحدَهُ، فلا يعقلُ مع هذا أنْ يكونَ سُبحانَهُ بحاجةٍ إليها؛ لتقلَّهُ و تُظِلَّهُ. تَعالى اللهُ عن هَذا الظنِّ الباطِلِ عُلُواً كَبيراً.

وجوب الإيمان بقربه من خلقه
وأن ذلك لا ينافي علوه وفوقيته

قال رحمهُ الله:

فصل

وقد دخل في ذلك الإيمان بأنه قريب مجيب كما جمع بين ذلك في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: ١٨٦] وقَولُهُ ﷺ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»(١) وَمَا ذُكِرَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِن قُربِهِ وَمَعِيَّتِهِ لاَ يُنَافِي ما ذُكِرَ مِن عُلُوِّهِ وَفَوقِيَّتِهِ؛ فإِنَّهُ سُبحانَهُ لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ في جَميعِ نُعوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ في دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ.

الشرح:

لمَّا قرَّرَ المُصنفُ وجوبَ الإيمانِ بعلوِّ اللهِ سُبحانه على خلقِهِ واستوائِهِ على عَرشِهِ نبَّهَ في هذا الفَصلِ إلى أنهُ يَجبُ مع ذلكَ الإيمانُ بأنهُ قَريبٌ من خلقِهِ.

وقولُهُ: (وقد دخل في ذَلك) أي: في الإيمانِ باللهِ (الإيمان بأنه قريب) أي: مِن خلقِهِ (مجيب) لدعائِهم (كما جمع بين ذلك) أي: بينَ القُربِ والإجابةِ في قولِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾.

---

(١) رواه البخاري (٢٩٩٢) ومسلم (٢٧٠٤).

....

ورد في سَببِ نزولِ هذهِ الآيةِ: أنَّ رَجلاً جاءَ إلى النَّبيِّ ﷺ فقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، أقريبٌ رَبُّنا فنناجيه، أو بَعيدٌ فنناديه؟! فسكتَ النَّبيُّ ﷺ فنزلتْ هَذهِ الآيةُ[١].

﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ من الدَّاعي ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

وهذا يَدُلُّ على الإرشادِ إلى المُناجاةِ في الدُّعاءِ بدونِ رفعِ صَوتٍ، كما في قولِهِ ﷺ: «إنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ» سَبقَ شَرحُهُ[٢].

وفِي هَذهِ الآيةِ وهذا الحَديثِ دلالةٌ على قُربِ اللهِ تَعالى من الداعي بإجابتِهِ، وهَذا القُربُ لا يُناقضُ علوَّهُ؛ ولهذا قالَ المُصنِّفُ: (وَمَا ذُكِرَ في الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِن قُربِهِ وَمَعِيَّتِهِ لاَ يُنَافِي ما ذُكِرَ مِن عُلُوِّهِ وَفَوقِيَّتِهِ)؛ لأنَّ الكُلَّ حقٌّ، والحقُّ لا يتناقضُ، ولأنَّ اللهَ تَعالى: (لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ في جَمِيعِ نُعوتِهِ) أي: صفاتِهِ، فلا يُقالُ: إذا كانَ فوقَ خلقِهِ فكيفَ يكونُ معهم؛ لأنَّ هذا السؤالَ ناشئٌ عن تَصوُّرٍ خاطئٍ هو قياسُهُ سُبحانَهُ بخلقِهِ وهذا قياسٌ باطلٌ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

---

(١) رواه ابن جرير (٢/١٥٨) وابن أبي حاتم في كتابه «الثقات» (٨/٤٣٦) وأبوالشيخ في «العظمة» (١٨٨) وعبدالله بن الإمام أحمد في «السنة» (٥٢٢).

(٢) (ص١٤٩).

....

فالقُربُ والعُلوُّ يجتمعانِ في حقِّهِ؛ لعظمتِهِ وكبريائِهِ وإحاطتِهِ، وأنَّ السَّماواتِ السَّبعَ في يدِهِ كخردلةٍ في يدِ العبدِ، فكيفَ يستحيلُ في حَقِّ مَنْ هذا بعضُ عظمتِهِ أنْ يكونَ فوقَ عرشِهِ ويقربَ من خلقِهِ كيفَ يشاءُ وهو على العَرشِ؟! (وَهُوَ عَلِيٌّ في دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ) سُبحانهُ وتَعالى، كما دلَّتْ على ذلكَ نُصوصُ الكِتابِ والسُّنَّةِ وأجمعَ عليهِ عُلماءُ الملةِ وهو مِنْ خصائصهِ سُبحانَهُ (عَلِيٌّ في دُنُوِّهِ) أي: في حالِ قُربِهِ من خلقِهِ (قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ) أي: قريبٌ من خلقِهِ في حالِ علوِّهِ على عَرشِهِ.

وجــوب
الإيمان بأن القرآن كلام الله حقيقة

قال رحمهُ الله:

فصــل

وَمِنَ الإِيمان بالله وَكُتُبِهِ، الإيمانُ بِأَنَّ القُرآنَ: كَلامُ الله، مُنَزَّلٌ، غَيرُ مَخلوق، مِنهُ بَدَأَ وَإِلَيهِ يَعودُ، وَأَنَّ الله تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا القُرآنَ الَّذِي أَنزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلامُ اللهِ حَقِيقَةً، لاَ كَلامُ غَيرِهِ. وَلاَ يَجوزُ إِطلاقُ القَولِ بِأَنَّهُ حِكايَةٌ عَن كَلامِ اللهِ، أَو عِبارَةٌ، بَل إذا قَرَأَهُ النَّاسُ أَو كَتَبُوهُ فِي المَصاحِفِ؛ لَم يَخرُج بذلِكَ عَن أَن يَكونَ كَلامَ اللهِ تَعالى حَقِيقَةً، فَإِنَّ الكَلامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلى مَن قَالَهُ مُبتَدِئاً، لاَ إِلَى مَن قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّياً، وَهُوَ كَلامُ الله؛ حُروفُهُ، وَمَعانِيهِ، لَيسَ كَلامُ الله الحُروفَ دُونَ المَعانِي، وَلاَ المَعانِي دُونَ الحُروفِ.

الشرح:

مِنْ أصولِ الإيمان: الإيمانُ باللهِ والإيمانُ بكُتُبِهِ -كما سَبق- ويدخلُ في هذينِ الأصلينِ الإيمانُ بأنَّ القُرآنَ كَلاَمُ اللهِ. فالإيمانُ باللهِ عزَّ وجلَّ يتضمنُ الإيمانَ بصفاتِهِ. وكلامُهُ مِنْ صفاتِهِ، فإنَّ اللهَ تَعالى مَوصُوفٌ بأنهُ يتكلمُ بما شاءَ، إذا شاءَ، لم يزلْ، ولا يزالُ يتكلمُ، وكلامُهُ لا ينفدُ، ونوعُ الكلامِ في حقِّهِ أزليٌّ أبديٌّ، ومُفرادتُهُ لا تزالُ تقعُ شيئاً فشيئاً حسبَ حكمتِهِ تَعالى.

....

ومن كلامِهِ القُرآنُ العَظيمُ الذي هُوَ أعظمُ كتبهِ -فهوَ داخلٌ في الإيمانِ بكتبِهِ دخولاً أولياً- وهُو مُنزَّلٌ منهُ سبحانَهُ فهو تكلَّمَ به وأنزلَهُ على رَسُولِهِ ﷺ فهوَ (مُنزَّلٌ، غيرُ مَخلوق)؛ لأنهُ صفةٌ من صِفاتِهِ، أضافَهُ إلى نفسِهِ إضافةَ الصِّفَةِ إلى موصوفِها، وصفاتُهُ غيرُ مخلوقةٍ، فكلامُهُ غيرُ مخلوقٍ، وقدْ خالفَ في هذا طوائفُ ذكرَ الشيخُ رحِمهُ اللهُ هُنا مقالةَ بعضِهم فذكَرَ:

١- مقالةَ الجهميةِ حيثُ يقولونَ[1]: إنَّ اللهَ لا يتكلمُ، وإنما خلقَ كلاماً في غيرِهِ وجعلَهُ يعبرُ عنه فإضافةُ الكلامِ عندَهم إلى اللهِ مجازٌ لا حقيقةٌ؛ لأنهُ خَلَقَ الكلامَ فهو متكلمٌ، بمعنى خالقُ الكلامِ في غَيرِهِ، وهذا القولُ باطلٌ مخالِفٌ للأدلةِ السَّمعيةِ والعقليةِ، ومخالفٌ لقَول السلفِ وأئمةِ المُسلمينَ، فإنهُ لا يعقلُ أن يُسمَّى متكلِّماً إلا مَنْ قامَ بِهِ الكلامُ حقيقةً فكيفَ يُقالُ: قالَ اللهُ، والقائلُ غيرُهُ، وكيفَ يُقالُ: كلامُ اللهِ وهو كلامُ غيرِهِ؟!

وقولُ المُصنفِ: (مِنهُ بَدَأَ وَإِلَيهِ يَعودُ، وَأَنَّ الله تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا القُرآنَ الَّذِي أَنزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلامُ اللهِ حَقِيقَةً، لاَ كَلامُ غَيرِهِ) قصْدُهُ بهذا الردُّ على الجهميةِ الذينَ يَقولونَ: إنَّ القُرآنَ بدأ مِنْ غيرِهِ، وأنَّ اللهَ لم يتكلمْ بهِ حقيقةً، بلْ مجازاً وهو كلامُ غيرِهِ أُضيفَ إليه؛ لأنه خالقُهُ.

ومعنى قولِهِ: (مِنهُ بَدَأَ): أنَّ القرآنَ بدأ وخرجَ من اللهِ تَعالى وتكلَّمَ به

---

(١) انظر «معارج القبول» (١/ ٤٨٣).

....

(ومِن) لابتداء الغايةِ، وقولُهُ: (وَإِلَيهِ يَعودُ) أي: أنَّ القرآنَ يرجعُ إلى اللهِ تَعَالى؛ لأنَّهُ يُرفعُ في آخرِ الزمانِ فلا يَبقى منهُ شيءٌ في الصُّدورِ ولا في المَصاحِفِ، وذلكَ مِنْ علاماتِ الساعةِ[1]، أو معنى ذلكَ: أنهُ يُنسَبُ إليهِ.

٢- ثم ذكرَ الشيخُ رحمِهُ اللهُ هنا مقالةَ الكلابيةِ -أتباعِ عبدِاللهِ بنِ سعيدِ بنِ كلابٍ- في القُرآنِ أنه حكايةٌ عَن كَلامِ اللهِ؛ لأنَّ كلامَ اللهِ عندَهُم: هو المَعنى القائمُ في نفسِهِ لازمٌ لذاتِهِ كلزومِ الحَياةِ والعلمِ لا يتعلقُ بمشيئتِهِ وإرادتِهِ، وهذا المعنى القائمُ في نفسِهِ غيرُ مَخلوقٍ، وهذه الألفاظُ المكونةُ من حروفٍ وأصواتٍ مخلوقةٌ، وهي حكايةٌ لكلامِ اللهِ وليستْ هي كلامُهُ.

٣- وذكرَ مقالةَ الأشاعرةِ -أتباعِ أبي الحَسنِ الأشعريِّ- أنَّ القُرآنَ عبارةٌ عن كلامِ اللهِ؛ لأنَّ كلامَ اللهِ عندَهم معنىً قائمٌ في نفسِهِ، وهذا المعنى غيرُ مخلوقٍ، أما هذه الألفاظُ المقروءةُ فهي عبارةٌ عَنْ ذَلكَ المَعنى القائمِ بالنَّفسِ وهي مخلوقةٌ، ولا يُقالُ إنَّها حكايةٌ عنهُ.

وبعضُ العُلماءِ يقولُ: إنَّ الخلافَ بينَ الكلابيةِ والأشاعرةِ خلافٌ لفظيٌّ لا طائلَ تحتَهُ، فالأشاعرةُ والكلابيةُ يقولونَ: القُرآنُ نوعانِ: ألفاظٌ، ومعانٍ، فالألفاظُ مخلوقةٌ وهي هذهِ الألفاظُ المَوجودةُ، والمعاني قديمةٌ

---

(١) رفعُ القرآن في آخر الزمان، أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩) والبزار (٣٨٣٨) والحاكم (٤/ ٤٧٣) وقال: صحيح على شرط مسلم.

....

قائمةٌ بالنَّفسِ وهي معنًى واحدٌ لا تَبعُّضَ فيهِ ولا تعدُّدَ، وعلى كُلِّ حَالٍ فالقولانِ إنْ لم يكُونا مُتَّفقينِ فهما مُتقاربان.

وقدْ أشَارَ الشيخُ رَحِمهُ اللهُ إلى بُطلانِ هذينِ القَولينِ بقولِه: (وَلاَ يَجوزُ إطلاقُ القَولِ بأَنَّهُ حِكايَةٌ عَن كَلامِ اللهِ) أي: كما تَقولُ الكلابيةُ (أو عِبارةٌ عنهُ) كما تَقولُ الأشاعرةُ (بَل إذا قَرَأهُ النَّاسُ أو كَتَبُوهُ فِي المَصاحِفِ؛ لَم يَخرُج بِذلِكَ عَن أن يَكونَ كَلامَ اللهِ حَقيقَةً) أي: أنَّ القُرآنَ العظيمَ كلامُ اللهِ ألفاظُهُ ومعانيهِ أينَ وُجِدَ، سواءٌ حفظَ في الصُّدورِ، أو تُلِيَ بالألسنةِ، أو كُتِبَ في المَصاحِفِ - لا يخرُج بذلكَ عن أنْ يكونَ كلامَ اللهِ تعالى حَقيقةً.

ثم ذكرَ الشيخُ رحِمهُ اللهُ دليلَ ذلكَ فقالَ: (فَإنَّ الكَلامَ إنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إلى مَن قَالَهُ مُبتَدِئاً، لاَ إلى مَن قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّياً)، فإنَّ المُبَلِّغَ المُؤَدِّيَ إنما يُسمَّى: واسطةٌ فقط، قالَ تَعَالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾ [التوبة: ٦]، والسَّماعُ المذكورُ في هذهِ الآيةِ إنما يَكونُ بواسطةِ المُبلغِ، وسُمِّيَ المسموعُ كلامَ اللهِ، فدلَّ على أنَّ الكلامَ إنما يُضافُ إلى مَنْ قالَهُ مُبتدئاً.

٤- ثم ذكرَ الشيخُ رحمَهُ اللهُ مقالةَ المعتزلةِ، حيثُ يقولونَ: إنَّ كلامَ اللهِ الحُروفُ دونَ المعاني فيقولونَ: إنَّ مُسمَّى القولِ والكلامِ عندَ الإطلاقِ اسمٌ للفظِ فقطْ، والمعنى ليسَ جزءَ مُسمَّاه، بل هو مدلولُ مسمَّاهُ.

....

ثم ذكرَ رحِمهُ اللهُ المذهبَ المقابلَ لذلكَ، فقالَ: (وَلاَ المَعانِي دُونَ الحُروفِ) كما هو مذهبُ الكلابيةِ والأشاعرةِ، وكما سبقَ شَرْحُهُ.

والمذهبُ الحقُّ: أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ حروفُه ومعانيهِ، كما هو قَولُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ وهو الذي قامَتْ عليهِ الأدلةُ من الكتابِ والسُّنَّةِ.

والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

وجــوب الإيمان
برؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة ومواضع الرؤية

قال رحمه اللهُ:

فصــل

وَقَد دَخَلَ أيضاً فِيمَا ذَكَرنَاهُ مِنَ الإيمانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِمَلائِكَتِهِ وَبِرُسلِهِ: الإِيمانُ بِأَنَّ المُؤمنينَ يَرَونَهُ يَومَ القِيامَةِ عياناً بأبصارهم كما يرون الشمس صحواً ليس بها سحاب، وَكَمَا يَرَونَ القَمَرَ لَيلَةَ البَدرِ لاَ يُضامُونَ فِي رُؤيَتِهِ، يَرَونَهُ سُبحَانَهُ وَهُم فِي عَرَصاتِ القِيامَةِ، ثُمَّ يَرَونَهُ بَعدَ دُخُولِ الجَنَّةِ كَمَا يَشاءُ الله تَعالى.

الشرح:

وجهُ دخولِ الإيمانِ بالرؤيةِ في الإيمانِ باللهِ وبكتُبِهِ وبرسُلِهِ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ أخبرَ بها في كتابِهِ وأخبرَ بها رَسولُهُ ﷺ، فمنْ لم يُؤمِنْ بها كانَ مُكذِّباً للهِ ولكتبِهِ ولرسلِهِ فإنَّ الذي يؤمنُ باللهِ وكتبِهِ ورسُلِهِ يؤمنُ بكلِّ ما أخبروا بهِ. وقولُهُ: (عياناً) بكسْرِ العينِ أي: رؤيةً محققةً لا خفاءَ فيها فليسَتْ مجازاً، كما تقولُهُ المعطلةُ (كما يرون الشمس صحواً ليس دونها سحاب، وَكَمَا يَرَونَ القَمَرَ لَيلَةَ البَدرِ لاَ يُضامُونَ فِي رُؤيَتِهِ) أي: رؤيةٌ حَقيقيةٌ لا مشقةَ فيهَا، كما دلَّتْ على ذلكَ الآياتُ والأحاديثُ التي سبقَ شرحُها[1].

---

(١) (ص١٢٥- وما بعدها).

....

وقولُهُ: (يَرَونَهُ سُبحَانَهُ وَهُم فِي عَرَصاتِ القِيامَةِ، ثُمَّ يَرَونَهُ بَعدَ دُخُولِ الجَنَّةِ) هذا بيانٌ للمواضعِ التي تحصلُ فيها الرؤيةُ، وذلكَ في موضعينِ:

الموضعُ الأوَّلُ: في عرصاتِ القيامةِ[1]، والعَرَصاتُ: جمعُ عَرصة، وهي الموضعُ الواسعُ الذي لا بناءَ فيهِ، و(عَرَصاتِ القِيامَةِ): مواقفُ الحِسابِ، وهل يختصُّ المؤمنونَ برؤيتهِ في هذا الموضعِ؟

في المسألةِ ثلاثةُ أقوالٍ:

قيلَ: يراهُ في عرصاتِ القيامةِ المؤمنونَ والمُنافقونَ والكُفارُ.

وقيل: يراهُ المُؤمنونَ والمُنافقونَ فقطْ دونَ الكُفارِ.

وقيل: يراهُ المؤمنونَ فقطْ، واللهُ أعلمُ.

الموضعُ الثَّاني: يراهُ المؤمنونَ بعدَ دخولِهم الجنةَ، كما ثبتَ ذلكَ في الأدلةِ من الكتابِ والسُّنَّةِ، وسبقَ ذكرُ بعضِ تلكَ الأدلةِ مشروحةً، وسبقَ ذِكرُ شُبهِ مَنْ نفى الرؤيةَ مع الردِّ عليهَا[2]، والجنةُ في اللغةِ: البُستانُ[3]، والمرادُ بها هُنا: الدارُ التي أعدَّها اللهُ لأوليائِهِ، وهي دارُ النَّعيمِ المُطلقِ الكاملِ.

وقولُ الشيخِ: (كَمَا يَشاءُ الله) أي: مِنْ غيرِ إحاطةٍ ولا تكييفٍ لرؤيتِهِ.

---

(١) كما ثبت في البخاري (٨٠٦) ومسلم (١٨٢).

(٢) (ص١٢٧).

(٣) «النِّهاية» لابن الأثير (١٦٨).

ما يدخل
في الإيمان باليوم الآخر

١ـ ما يكون في القبر:

قال رحمه الله:

فصل

(ومِنَ الإيمانِ باليَومِ الآخرِ الإيمانُ بكُلِّ مَا أخبَرَ بهِ النَّبـيُّ ﷺ ممَّا يَكُون بعدَ الموتِ فيُؤمِنونَ بفتنةِ القَبرِ وبعذابِ القَبرِ ونَعيمِه، فأمَّا الفِتنةُ: فإنَّ النَّاسَ يُفتَنونَ فِي قُبورهم، فيُقالُ للرَّجُلِ: مَـنْ رَبُّـكَ؟ ومَـا دِينُـكَ؟ ومَن نَبيُّكَ؟ فيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَـا وَفِـي الآخِرَةِ، فيَقولُ المُؤمنُ: ربِّي الله، والإسلامُ دِيني، ومُحمَّدٌ ﷺ نَبيي. وأما المُرتَابُ؛ فيَقولُ: هاه هاه، لا أدْري سَمِعتُ النَّـاسَ يَقُولـونَ شـيئاً فَقُلتُـه، فيُضربُ بِمرزَبَّةٍ مِن حَديدٍ، فيَصيحُ صَيحةً يَسمعُها كُلُّ شَيءٍ إلاَّ الإنسَـانَ، ولو سَمِعَها الإنسانُ لصُعِقَ، ثُمَّ بَعدَ هَذهِ الفِتنةِ إما نَعيمٌ وإما عَذابٌ[(١)]).

الشرح:

اليومُ الآخرُ: هو يومُ القيامةِ، والإيمـانُ بهِ أحدُ أركانِ الإيمانِ، وقد دلَّ

(١) كما ثبت في حديث البراء بن عازب -رضي الله عنه- الطويـل الـذي أخرجـه أبـو داود (٤٧٥٣) وأحمد (١٨٧٣٣) والحـاكم (١/ ٣٧) وغـيرهم بروايـات متعـددة، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي. انظر «أحكـام الجنـائز» للألباني (١٥٩).

....

عليهِ العقلُ والفطرةُ، وصرَّحتْ بهِ جميعُ الكُتبِ السَّماويةِ، ونادى به جميعُ الأنبياءِ والمُرسلينَ، وسُمِّيَ باليومِ الآخرِ؛ لتأخُّرِهِ عن الدُّنيا.

وقد ذكرَ الشيخُ رحِمهُ اللهُ هنا ضابطاً شاملاً لمعنى الإيمانِ باليومِ الآخرِ بأنهُ من الإيمانِ بكلِّ ما أخبرَ به النَّبيُّ ﷺ مما يكونُ بعدَ الموتِ، فيدخلُ فيهِ الإيمانُ بكلِّ ما دلتْ عليهِ النُّصوصُ من حالةِ الاحتضارِ وحالةِ الميتِ في القبرِ والبَعثِ من القبورِ وما يحصلُ بعدَهُ، ثم أشارَ الشيخُ رحمهُ الله إلى أشياءَ من ذلكَ.

منها: ما يكونُ في القبرِ، فقالَ: (فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر ونعيمه) فذكرَ أمرينِ:

الأمرَ الأوَّل: فتنةُ القبرِ، والفتنةُ: لغةً[1]: الامتحانُ والاختبارُ، والمرادُ بها هُنا: سؤالُ المَلكينِ للميتِ؛ ولِهَذا قالَ: (فأما الفتنة: فإنَّ النَّاس يُفْتَنون في قبورهم، فيقال للرجل) أي: الميتُ، سواءٌ كانَ رجلاً أو امرأةً، ولعلَّ ذِكرَ الرجلِ من بابِ التَّغليبِ، ثم ذكرَ الأسئلةَ التي تُوجَّهُ إلى المَيتِ وما يُجيبُ بهِ المُؤمنُ وما يُجيبُ به غيرُ المُؤمنِ وما يكونُ بعدَ هذهِ الإجابةِ من نعيمٍ أو عذابٍ.

والإيمانُ بسؤالِ الملكينِ واجبٌ؛ لثبوتِهِ عن النَّبيِّ ﷺ في أحاديثَ يبلغُ مجموعُها حدَّ التواترِ. ويدلُّ على ذلكَ القُرآنُ الكريمُ في قَولِهِ تَعَالى:

---

(١) «مفردات ألفاظ القرآن» للأصفهاني (ص٦٢٣).

....

﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فقد أخرجَ الشيخان[١] مِنْ حديثِ البراء بن عازبٍ رضيَ اللهُ عنهُما، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾: «نزلتْ في عذابِ القبرِ»، زادَ مُسلمٌ: «فيُقالُ لهُ: من ربك؟ فيقولُ: ربي الله، ونبيِّ محمد ﷺ»، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، والقَولُ الثابتُ هو: كلمةُ التوحيدِ التي ثبتَتْ في قلبِ المُؤمنِ بالحجةِ والبُرهانِ، وتثبيتُ المؤمنينَ بها في الدُّنيا: أنهُمْ يتمسكُونَ بها ولو نالَهم في سَبيلها ما نالَهم من الأذى والتَّعذيبِ، وتثبيتُهم بها في الآخرةِ: توفيقُهم للجوابِ عندَ سؤالِ الملكينِ.

وقولُهُ: (وأما المرتاب) أي: الشاكُّ (فيقول) إذا سُئِلَ: (هاه هاه) كلمةُ تردُّدٍ وتوجُّعٍ (لا أدري، سمعت النَّاس يقولون شيئاً فقلته)؛ لأنه غيرُ مؤمنٍ بما جاءَ بهِ الرسُولُ ﷺ فيستَعْجِمُ عليهِ الجوابُ، ولو كانَ مِنْ أعلمِ النَّاسِ وأفصحِهم، كما قالَ تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾ (فيضرب بمرزبة من حديد) وهي المطرقةُ الكَبيرةُ (فيصيح صيحةً يسمعها كل شيء إلا الإنسان) ثُمَّ بينَ الحِكمةَ مِن عدمِ سماعِ الإنسانِ لها بقولِهِ: (ولو سمعها الإنسان لصعق) أي: خرَّ ميتاً أو غُشيَ عليهِ، ومن حكمةِ اللهِ أيضاً أن ما يَجري على

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٩) ومسلم (٢٨٧١).

....

الميتِ في قبرِهِ لا يحسُّ بِهِ الأحياءُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعلَهُ مِنَ الغَيبِ ولو أظهرَهُ لفاتَتِ الحكمةُ المطلوبةُ وهي الإيمانُ بالغيبِ.

الأمرَ الثَّاني: مما يَجري على المَيِّتِ في قبرِهِ ما أشَار إليهِ الشيخُ بقولِهِ: (ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب إلى أن تَقومَ القِيامَةُ الكُبرى) هذا فيهِ إثباتُ عذابِ القَبرِ أو نعيمِهِ، ومذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ: أنَّ الميتَ إذا ماتَ يكونُ في نعيمٍ أو عذابٍ، وأن ذلكَ يحصلُ لروحِهِ وبدنِهِ، كما تواترَتْ بهِ الأحاديثُ[1] عَن رسولِ اللهِ ﷺ، فيجبُ الإيمانُ به ولا يُتكلَّمُ في كيفيتِهِ وصفتِهِ؛ لأنَّ ذلكَ لا تُدرِكُهُ العُقولُ؛ لأنهُ من أمورِ الآخرةِ، وأمورِ الآخرةِ لا يَعلمُها إلا اللهُ ومَنْ أطلعَهُم اللهُ على شيءٍ منهُ، وهمُ الرُّسلُ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِم.

وأنكرَ عذابَ القبرِ المُعتزلَةُ، وشُبهَتُهُم في ذلكَ أنَّهمْ لا يدركونَهُ ولا يَرونَ الميتَ يُعذَّبَ ولا يُسألُ.

والجوابُ عن ذلكَ: أنَّ عدمَ إدراكِنا ورُؤيتنا للشيءِ لا يدلُّ على عدمِ وجودِهِ ووقوعِهِ، فكم مِنْ أشياءَ لا نراها وهي موجودةٌ ومن ذلكَ عذابُ القَبرِ أو نَعيمِهِ. وأنَّ اللهَ تعالى جعلَ أمرَ الآخرةِ وما كانَ مُتَّصلاً بها غَيباً وحجَبَها عن إدراكِ العقولِ في هَذهِ الدارِ؛ لِيَتَميَّزَ الذينَ يؤمنونَ بالغيبِ من غَيرِهم. وأمورُ الآخرةِ لا تُقاسُ بأمورِ الدُّنيا. واللهُ أعلمُ.

---

(١) انظر «أهوال القبور» لابن رجب الحنبلي (ص٨١).

....

وعذابُ القبرِ على نَوعينِ:

النَّوعُ الأوَّلُ: عذابٌ دائمٌ وهو عذابُ الكافرِ، كما قالَ تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦].

النَّوعُ الثَّاني: يكونُ إلى مدةٍ ثم ينقَطِعُ، وهو عذابُ بعضِ العُصاةِ من المُؤمنينَ، فيُعذَّبُ بحسبِ جُرمِهِ ثم يُخفَّفُ عنهُ. وقد ينقطعُ عنهُ العذابُ بسببِ دعاءٍ أو صدقةٍ أو استغفارٍ[1].

(١) كما ثبت ذلك في «صحيح البخاري» (٢١٨) ومسلم (٢٩٢) عندما مرَّ النَّبي ﷺ بقبرين فقال: «أما إنهما ليُعذَّبان» إلى أن قال في نهاية الحديث: «لعلَّه يُخفَّفُ عنهُما ما لم يَيْبسَا» وقد كتب ابن رجب فصلاً بعنوان: (هل يفتر العذاب عن أهل القبور) (ص١٠٥) ضمن كتابه «أهوال القبور».

٢ـ القيامة الكبرى وما يجري فيها:

إلى أن تَقومَ القِيامَةُ الكُبرى فَتُعَـادُ الأرواحُ إلـى الأجسـادِ. وَتَقـومُ القِيامَةُ الَّتي أخبَرَ الله بِها في كِتابِهِ، وَعَلى لِسانِ رَسـولِهِ، وَأجمَـعَ عَلَيها المُسلِمونَ، فَيَقُومُ النَّاسُ مِن قُبورِهِم لِرَبِّ العَالَمينَ حُفاةً عُراةً غُرلاً.

الشرح:

أشارَ الشيخُ رحِمهُ اللهُ في هـذا وما بعدَهُ إلى ما يكونُ في الـدَّارِ الآخرةِ، وهي التي تبدأ بالقيامةِ الكُبرى، فإنَّ الـدورَ ثلاثٌ[1]: دارُ الدنيا، ودارُ البرزخِ، والدارُ الآخرةُ، وكُلُّ دارٍ من هذهِ الـدورِ الثلاثِ لها أحكامٌ تخصُّها، وحوادثُ تجري فِيهَا، وقد تكلَّم الشيخُ على ما يَكونُ في دارِ البَرزخِ.

وهنا أخذ يتكلمُ على ما يكونُ في الدارِ الآخرةِ، فيقولُ: (إلى أن تَقـومَ القِيامَةُ الكُبرى) القيامةُ قيامتانِ: قيامةٌ صُغرى: وهيَ الموتُ، وهـذهِ القيامـةُ تقومُ على كُلِّ إنسانٍ في خاصتِهِ من خروجِ روحـه وانقطـاعِ سَعيه، وقيامـة كُبرى: وهذه تقوم على النـاسِ جَميعاً وتـأخذُهُم أخـذةً واحـدةً، وسُمِّيَتْ قيامةً؛ لقيامِ النَّاسِ من قبورِهم لربِّ العالمينَ[2]؛ ولهذا قالَ: (فَتُعَادُ الأرواحُ إلى الأجسادِ) وذلكَ عندمَا ينفخُ إسرافيلُ في الصُورِ، قـالَ تَعـالى: ﴿وَنُفِـخَ فِـي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِـمْ يَنسِلُونَ ۞ قَالُواْ يوَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا

---

(١) انظر «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٤٥٢).

(٢) انظر «التذكرة» للقرطبي (٢/ ٢٦٨).

....

مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥١-٥٢]، وقالَ تَعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، والأرواحُ: جمعُ روح، وهي ما يَحيا به الإنسانُ وغيرُه من ذواتِ الأرواحِ، ولا يعلمُ حقيقتَها إلا اللهُ. قالَ تَعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقولُهُ: (وَتَقومُ القِيامَةُ الَّتي أخبَرَ الله بها في كِتابِهِ، وَعَلى لِسانِ رَسولِهِ، وَأجمَعَ عَلَيها المُسلِمونَ) إشارةٌ إلى أدلةِ البَعثِ، وأنه ثابتٌ بالكِتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ المُسلمينَ والعقلِ والفِطَرِ السليمةِ. فقدْ أخبرَ اللهُ عنهُ في كتابِهِ وأقامَ الدليلُ عليهِ وردَّ على المُنكرينَ للبعثِ في غالبِ سُورِ القُرآنِ. ولمَّا كانَ نَبيُّنا محمَّدٌ ﷺ خاتمَ النَّبيينَ بيَّن تفاصيلَ الآخرةِ بياناً لا يوجدُ في كَثيرٍ من كُتُبِ الأنبياءِ.

والجزاءُ على الأعمالِ ثابتٌ بالعقلِ وواقعٌ في الشَّرعِ، فإنَّ اللهَ نبَّهَ العُقُولَ إلى ذلكَ في مواضعَ كثيرةٍ من القُرآنِ حيثُ ذكَرَها: أنه لا يليقُ بحكمتِهِ وحَمدِهِ أنْ يتركَ النَّاسَ سُدًى، أو يَخْلُقَهم عبثاً لا يُؤمَرونَ ولا يُنْهَونَ، ولا يُثابونَ ولا يُعاقبونَ. وأنْ يكونَ المُحسنُ كالمُسيءِ أو يجعلَ المُسلمينَ كالمُجرمينَ. فإنَّ بعضَ المُحسنينَ يموتُ قبلَ أنْ يُجزى على إحْسانِهِ. وبعضُ المُجرمينَ يموتُ قبلَ أن يُجازى على إجرامِهِ. فلا بُدَّ أنَّ هناكَ داراً يُجازى فيها كُلٌّ منهما. ومنكرُ البعثِ كافرٌ، كما قالَ تَعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: ٧].

....

وقولُهُ: (فَيَقُومُ النَّاسُ مِن قُبُورِهِم حُفَاةً) جمعُ حافٍ، وهو الـذي ليـسَ على رجلِهِ نعلٌ ولا خُفٌّ (عُراةً): جمعُ عارٍ، وهو الـذي ليـسَ عليـهِ لِبـاسٌ (غُرلاً): جمعُ[1] أغرل، وهو الأقلفُ الذي لم يُختَنْ، وهذهِ الصِفاتُ الثلاثُ يكونونَ عليها حينَ قيامِهِم من قُبورِهم، وهذا ثابتٌ في الصحيحِ عـن النَّبـيِّ ﷺ، ففي «الصحيحينِ»[2] عن عائشةَ رَضِـيَ اللهُ عَنهَـا، أنَّ رَسـولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إنَّكم تُحشَرونَ إلى اللهِ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراةً غُرلاً» الحديثَ.

---

(١) «النِّهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير (٦٥٧).

(٢) رواه البخاري (٦٥٢٧) ومسلم (٢٨٥٩).

ما يجري في يوم القيامة:

وَتَدنُو مِنهُم الشَّمسُ وَيُلجِمُهُم العَرَقُ، فتُنصَبُ المَوازينُ فَتُوزَنُ بها أعمالُ العِبادِ. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ١٠٢-١٠٣]، وتُنشَرُ الدَّواوِينُ، وهي صحائف الأعمال، فآخِذٌ كِتابَهُ بِيَمينِهِ، وَآخِذٌ كِتابَهُ بِشِمالِهِ أو من وراء ظهره، كما قَال سُبحانه وتعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [سورة الإسراء: ١٣-١٤]، وَيُحاسِبُ الله الخَلائِقَ وَيَخلُو بِعَبدِهِ المُؤمِنِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، كمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وأما الكُفارُ فَلا يُحَاسَبونَ مُحاسبةَ مَنْ تُوزَنُ حَسناتُهُ وَسيئاتُهُ فإنَّهُ لا حَسَنات لَهُمْ وَلكنْ تُعَدُّ أعمَالُهُم فَتُحصى فَيُوقَفونَ عليهَا وَيُقَرَّرُون بها.

الشرح:

ذكرَ الشيخُ رحمهُ اللهُ في هَذا الكلامِ بعضَ ما يَجري في يَومِ القيامةِ ممَّا ذُكِرَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ، فإنَّ تفاصيلَ ما يَجري في هذا اليومِ ممَّا لا يُدرَكُ بالعقلِ، وإنما يُدرَكُ بالنُّقُولِ الصحيحةِ عن النَّبيِّ ﷺ الذي لا ينطقُ عن الهَوى ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾، ومن الحكمةِ في مُحاسبةِ الخلائقِ على أعمالِهم ووزنِها وظُهورِها مكتوبةً في الصُّحفِ، مع إحاطةِ علمِ اللهِ بذلكَ؛ ليَرى عبادُهُ كمالَ حمدِهِ وكمالَ عدلِهِ وسِعةَ رحمتِهِ وعظمةَ ملكِهِ،

....

وذكرَ الشيخُ مما يَجري في هذا اليَومِ العَظيمِ على العِبادِ:

١- (تَدنُو مِنهُم الشَّمسُ) أي: تقرُبُ من رؤوسِهم، كما رَوى مسلمٌ[١] عنِ المقدادِ رَضيَ اللهُ عنهُ قالَ: سمعتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إذا كانَ يومُ القيامةِ أُدنيتُ الشَّمسُ من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين**»، وقولُهُ: (ويُلجِمُهُم العَرَقُ) أي: يصلُ إلى أفواهِهِم، فيصيرُ بمنزلةِ اللجامِ يمنعُهُم منَ الكَلامِ، وذلكَ نتيجةٌ لدنوِّ الشَّمسِ منهمْ وذلكَ بالنِّسْبَةِ لأكثرِ الخَلقِ، ويُستثنَى من ذلكَ الأنبياءُ ومن شاءَ اللهُ.

٢- وممَّا ذكرَ في هذا اليومِ قولُهُ: (وتُنصَبُ المَوازينُ وتُوزَنُ بها الأعمالُ) (المَوازين): جَمع ميزان، وهو الذي تُوزنُ بهِ الحَسناتُ والسيئاتُ، وهو ميزانٌ حقيقيٌّ له لسانٌ وكَفتَّان[٢]، وهو مِنْ أمورِ الآخرةِ ونؤمنُ به، كما جاءَ ولا نبحثُ عن كيفيتِهِ إلا على ضوءِ ما وردَ منَ النُّصوصِ، والحكمةُ في وزنِ الأعمالِ إظهارُ مقاديرِها؛ ليكونَ الجزاءُ بحسبها ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: رجُحَت حسناتُهُ على سيئاتِهِ ﴿فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزونَ والنَّاجونَ من النَّارِ المُستحقونَ لدخولِ الجنةِ. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: ثقُلَتْ سيئاتُهُ على حَسناتِهِ ﴿فَأُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خابُوا وصَاروا إلى النَّارِ ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي: ماكِثونَ في النَّارِ.

---

(١) برقم (٢٨٦٤).

(٢) انظر «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٤٧٢).

....

والشَّاهدُ من الآيةِ الكَريمةِ:

أنَّ فيها إثباتَ الموازينِ والوزنَ يومَ القيامةِ، وقد وردَ ذكرُ الوزنِ والموازينِ في آياتٍ كثيرةٍ من القُرآنِ، وقد أفادَ مجموعُ النُّصوصِ أنه يوزنُ العاملُ والعملُ والصُحفُ، ولا منافاةَ بينها، فالجَميعُ يوزنُ، ولكنَّ الاعتبارَ في الثقلِ والخفةِ يكونُ بالعملِ نفسهِ لا بذاتِ العاملِ ولا بالصحيفةِ. واللهُ أعلمُ.

وقد تأوَّلَ المعتزلةُ النُّصوصَ في ذلكَ على أنَّ المُرادَ بالوزنِ والميزانِ العدلُ، وهذا تأويلٌ فاسدٌ مخالفٌ للنصوصِ وإجماعِ سلفِ الأُمةِ وأئمتِها.

قالَ الشَّوكانيُّ: وغايةُ ما تشبَّثوا به مُجردُ الاستبعاداتِ العقليةِ، وليس فِي ذَلكَ حجةٌ على أحدٍ. فهذا إذا لَمْ تقبلهُ عقولُهُم فقدْ قبلتهُ عقولُ قومٍ هي أقوى من عقولِهم منَ الصحابةِ والتابعينَ وتابعيهم حتَّى جاءتِ البدعُ كالليلِ المُظلمِ وقالَ كُلٌّ ما شاءَ وتركوا الشرعَ خلفَ ظهورِهم. اهـ.[1]

وأمُورُ الآخرةِ ليستْ مما تدركُها العقولُ. واللهُ أعلمُ.

٣- ومما ذكرَهُ الشيخُ من حوادثِ هذا اليَومِ العَظيمِ قولُهُ: (وتُنشَرُ الدَّواوينُ، وهي صحائف الأعمال) أي: الصحائفُ التي كتبتْ فيها أعمالُ العِبادِ التي عملوها في الدُّنيا وكتَبَتها عليهم الحفظةُ؛ لأنها تطوى عندَ المَوتِ وتُنشَرُ -أي: تَفتحُ- عندَ الحِسابِ؛ ليقفَ كُلُّ إنسانٍ على صحيفتِهِ

(١) «فتح القدير» (٢/ ١٩٧).

....

فيعلمَ ما فيها (فَآخِذٌ كِتابَهُ بِيَمينِهِ، وَآخِذٌ كِتابَهُ بِشِمالِهِ أو من وراء ظهره) هذا فيه بيانُ كيفيةِ أخذِ النَّاسِ لصُحُفِهِم، كما جاءَ ذلك في القُرآنِ الكريمِ، وهو على نَوعينِ: آخِذٌ كتابَهُ بيمينه، وهو المُؤمنُ. وآخِذٌ كِتابَهُ بشمالِهِ أوْ من وراء ظهرِهِ وهو الكَافِرُ -بأنْ تُلوى يَدُهُ اليُسرى مِنْ وَراءِ ظهرِهِ ويُعطى كتابهُ بها- كما جاءتِ الآياتُ بهذا وهذا، ولا منافاةَ بينهما؛ لأنَّ الكافِرَ تُغلُّ يُمناهُ إلى عُنقِهِ وتُجعلُ يُسراهُ وراءَ ظهرِهِ فَيَأْخُذُ بها كتابَهُ.

ثمَّ استدلَ الشيخُ بقولِهِ تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ الآيةَ، و﴿طَائِرَهُ﴾: ما طارَ عنهُ من عَملِهِ من خيرٍ وشرٍّ ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ أي: يُلزمُ به ويُجَازى به لا محيدَ لهُ عنهُ، فهو لازمٌ لهُ لزومَ القلادةِ في العُنقِ. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾ أي: نجمعُ له عملَهُ كلَّه في كتابٍ يعطاهُ يومَ القِيامةِ؛ إما بيمينِهِ إنْ كانَ سَعيداً أو بِشمالِهِ إنْ كانَ شقياً ﴿مَنْشُوراً﴾ أي: مفتوحاً يقرؤه هو وغيرُه. وإنما قالَ سُبحانهُ: ﴿يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾ تعجيلاً للبُشرى بالحسنةِ والتَّوبيخِ على السَّيئةِ ﴿اقْرَأْ كَتَابَكَ﴾ أي: نقولُ له ذلكَ، قبلَ أن يقرأَ ذلكَ الكتابَ من كانَ قارئاً ومن لم يكنْ قارئاً ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ أي: حاسباً، وهو منصوبٌ على التمييزِ، وهذا أعظمُ العدلِ حيثُ جعلَهُ حسيبَ نفسِهِ؛ ليَرى جميعَ عملِهِ لا يُنكرُ منه شيئاً.

....

والشَّاهدُ من الآيةِ الكريمةِ:

أنَّ فيها إثباتَ إعطاءِ كُلِّ إنسانٍ صَحِيفَةَ عملِهِ يومَ القيامةِ يقرؤُها بنفسِهِ ويطلعُ عليها هو لا بواسطةِ غَيرِهِ.

٤- ثم ذكرَ الشيخُ رحِمهُ اللهُ الحسابَ فقالَ: (وَيُحاسِبُ الله الخَلائِقَ) الحساب: هو تعريفُ اللهِ عزَّ وجلَّ للخلائقِ بمقاديرِ الجزاءِ على أعمالِهِم، وتذكيرِهِ إياهم ما قدْ نسوهُ من ذلكَ، أو بعبارةٍ أخرى: هو توقيفُ اللهِ عبادَه قبلَ الانصرافِ من المَحشرِ على أعمالِهِم خَيراً كانتْ أو شَراً[1].

ثم ذكرَ الشيخُ رحمهُ اللهُ أنَّ الحِسابَ على نوعينِ:

النَّوع الأوَّل: حسابُ المُؤمنِ قالَ فيهِ: (وَيَخلُو بِعَبدِهِ المُؤمِنِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، كما وصف ذلك في الكتاب والسنة) كما قالَ اللهُ تَعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً**﴾ [الانشقاق: ٧-٩]، وفي «الصَّحيحينِ»[2]، عن ابنِ عُمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: «**إنَّ اللهَ يدني المؤمن فيضع عليه كنَفَهُ، ويسترهُ من النَّاسِ، ويقرره بذنوبه ويقولُ له: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسِه أن قد هلك قال: فإني قد سترتُها عليك في الدنيا وأنا أغفرُها لك اليوم، ثم**

(١) «التنبيهات السنية» (ص٢٣١).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤١) ومسلم (٢٧٦٨).

....

يعطى كتاب حسناته» ومعنى «يقرره بذنوبه»: يجعَلُهُ يقرُّ، أي: يعترفُ بها، كما في هذا الحديثِ. «أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا». ومن المُؤمنينَ من يدخلُ الجنةَ بغيرِ حسابٍ، كما صحَّ في حديثِ السَّبعينَ ألْفاً الذين يدخلونَ الجنةَ بلا حسابٍ ولا عذابٍ[1].

والحِسابُ يختلفُ؛ فمنهُ اليسيرُ وهو العرضُ، ومنهُ المناقشةُ، وفي «الصَّحيحينِ»[2]، عن عائشةَ رَضيَ اللهُ عنهَا، أنَّ رَسولَ الله ﷺ قالَ: «ليسَ أحد يحاسب يوم القيامةِ إلا هلك» فقلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أليسَ قد قالَ اللهُ تَعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾، فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «إنما ذلك العَرضُ، وليسَ أحدٌ يُناقِشُ الحِسابَ يومَ القِيامةِ إلاَّ عُذِّبَ».

النَّوع الثَّاني: حسابُ الكفارِ، وقد بيَّنهُ بقولِه: (وأما الكُفَّار فلا يحاسبون محاسبة من توزنُ حسناتُه وسيئاتُه فإنه لا حسناتٍ لهم) أي: ليسَ لهم حسناتٌ توزنُ مع سيئاتِهِم؛ لأنَّ أعمالَهم قد حبطَتْ بالكُفرِ فلم يبقَ لهم في الآخرةِ إلا سيئاتٌ، فحسابُهُم معناه: أنَّهم (تُعدُّ أعمالُهم فتُحصى فيُوقفون عليها ويقرَّرُون بها ويُجزَونَ بهَا) أي: يخبرونَ بأعمالِهم الكفريةِ ويعترفونَ بِها ثمَّ يجازونَ عليها، كما قَالَ تَعَالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا

(١) رواه البخاري (٥٨١١) ومسلم (٢١٦).

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٧) ومسلم (٢٨٧٦).

....

عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقَالَ تَعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧]، وقَالَ: ﴿فَاعْتَرَفُواْ بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

حوض النبي ﷺ ومكانه وصفاته

وَفِي عَرَصاتِ القِيامَةِ الحَوضُ المَورودُ لِلنَّبيِّ ﷺ مَاؤُهُ أشَدُّ بَياضاً مِنَ اللبنِ وَأحلى مِنَ العَسلِ، آنيتُهُ عَددُ نُجومِ السَّماءِ طُولُهُ شَهرٌ وعَرضُهُ شَهرٌ، مَنْ يَشربُ منهُ شُربةً لا يَظمأُ بَعدَها أبداً.

الشرح:

٥- ممَّا يوجدُ في القيامةِ حوضُ النَّبيِّ ﷺ، وقد ذكرَهُ الشيخُ هنا وبينَ أوصافَهُ فقالَ: (وَفِي عَرَصاتِ القِيامَةِ الحَوضُ المَورودُ لِلنَّبيِّ ﷺ) كما ثبتَ ذلك عن النَّبيِّ ﷺ، قالَ الإمامُ ابنُ القيمِ(١): وقد رَوى أحاديثَ الحَوضِ أربعونَ صحابياً وكَثيرٌ منها أو أكثرُها في الصحيحِ. انتهى.

وتقدَّمَ بيانُ معنى العرصاتِ(٢).

و(الحَوضُ) لغةً: مجمعُ الماءِ، وقد أجمعَ أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ على إثباتِ الحوضِ، وخالفتْ في ذلكَ المعتزلةُ فلم تَقلْ بإثباتِه، وأوَّلُوا النُّصوصَ الوارِدةَ فيه وأحالوها عن ظاهرِها، ثم ذكرَ الشيخُ رحِمهُ اللهُ أوصافَ الحوضِ، فقالَ: (ماؤه أشد بياضاً من اللبن...) إلخ، وهذه الأوصافُ ثابتةٌ في الأحاديثِ، كحديثِ عَبدِاللهِ بنِ عمرٍو المُتفق عليهِ قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «حوضي مَسيرةُ شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه

---

(١) في حاشيته على «سنن أبي داود» (١٣/ ٥٦) وانظر «التنبيهات السنية» (٢٣٤).

(٢) (ص١٧٩).

....

أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لا يظمأ أبداً»[١].

(١) رواه البخاري (٦٥٧٩) ومسلم (٢٢٩٢).

الصراط ومعناه ومكانه وصفة مرور الناس عليه

وَالصِّراطُ مَنْصوبٌ عَلى مَتنِ جَهَنَّمَ وَهُوَ الجسرُ الذي بَينَ الجَنةِ والنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلى قَدرِ أعْمَالِهم، فمنهم مَنْ يَمُرُّ كَلمحِ البَصرِ، ومِنهمْ مَنْ يَمرُّ كَالبرق، ومِنهُم مَنْ يَمرُّ كَالريحِ، ومِنهُم مَنْ يَمرُّ كَالفرسِ الجَوادِ، ومِنهُم من يَمُرُّ كَركابِ الأبلِ، ومِنهُم مَنْ يَعدُو عَدْواً، ومِنهُم مَنْ يَمْشي مَشْياً، ومِنهُم مَنْ يَزحَفُ زَحفاً، ومِنهُم مَنْ يُخطَفُ ويُلْقَى في جَهنمَ؛ فإنَّ الجِسرَ عَليهِ كَلاليبُ تَخْطَفُ النَّاس بأعْمَالِهم.

الشرح:

٦- ذكرَ الشيخُ رحِمهُ اللهُ في هذا أنَّ ممَّا يَحصلُ يومَ القيامةِ المرورَ على الصراطِ، و(الصِّراطُ): في اللغةِ: هو الطَّريقُ الواضحُ. وأما في الشرعِ: فهو ما بيَّنهُ الشيخُ بقولِهِ: (وَهُوَ الجِسرُ الذي بين الجنة والنَّار) وبيَّنَ مكانهُ بقولِهِ: (عَلى مَتنِ جَهَنَّمَ) أي: على ظهرِ النَّارِ. ثمَّ بيَّنَ صفةَ مرورِ النَّاسِ عليهِ بقولِهِ: (يمر النَّاس على قدر أعمالهم) ووقتُ المرورِ عليهِ بعدَ مفارقةِ النَّاسِ للموقفِ والحشرِ والحِسابِ فإنَّ الصراطَ ينجو عليهِ المؤمنونَ من النَّارِ إلى الجَنةِ ويسقطُ منهُ أهلُ النَّارِ فيهَا، كما ثبتَ في الأحاديثِ[1]. ثم فصَّلَ الشيخُ رحمهُ اللهُ أحوالَ النَّاسِ في المُرورِ على الصِراطِ، فقالَ: (فمنهم من يمر كلمح البصر) إلخ، أي: أنهم يكونونَ في سرعةِ المُرورِ وبطئِهِ على حسبِ إيمانِهم وأعمالِهم الصالحةِ التي قدَّموها في الدُّنيا

---

(١) رواه البخاري (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣).

....

فبحسبِ استقامةِ الإنسانِ على دينِ الإسلامِ وثباتِهِ عليهِ يكونُ ثباتُهُ ومرورُهُ على الصراطِ، فمَنْ ثبتَ على الصراطِ المعنويِّ، وهو الإسلامُ ثبتَ على الصراطِ الحسيِّ المنصوبِ على متنِ جهنمَ. ومَنْ زلَّ عنِ الصراطِ المعنويِّ زلَّ عنِ الصراطِ الحسيِّ. وقولُهُ: (يعدو عدواً) أي: يركضُ ركضاً. وقولُهُ: (يزحف زحفاً) أي: يمشي على مقعدتِهِ بَدلَ رجليهِ. وقولُهُ: (عليه كلاليب): جمع كَلُّوب، بفتح الكافِ واللامِ المُشددةِ المضمومةِ، وهي حديدةٌ معطوفةُ الرأسِ.

وقولُهُ: (تَخْطَفُ) بفتحِ الطاءِ ويجوزُ كسرُها من الخطفِ، وهو: أخذُ الشيءِ بسرعةٍ. وقولُهُ: (بأعمالهم) أي: بسببِ أعمالِهم السيئةِ فيكونُ اختطافُ الكلاليب لهم على صراطِ جهنمَ بحسبِ اختطافِ الشبهاتِ والشهواتِ لهم عن الصراطِ المُستقيمِ.

وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ يؤمنونَ بالصراطِ المنصوبِ على متنِ جهنمَ ومرورُ النَّاسِ عليهِ على ما جاءتْ به الأحاديثُ الصحيحةُ عن النَّبيِّ ﷺ، وخالفَ في ذلكَ القاضي عبدُالجبارِ المعتزليُّ[1] وَكثيرٌ من أتباعِهِ، وقالُوا: المُرادُ بالصراطِ المذكورِ: طريقُ الجنةِ، المُشارُ إليهِ بقولِهِ تَعَالى:

---

(١) هو عبدالجبار بن أحمد بن عبدالجبار الهمذاني الأسد أبادي، أبو الحسين: قاضي، أصولي. كان شيخ المعتزلة في عصره، ويلقب بقاضي القضاة، ولي القضاء في الري ومات فيها سنة ٤١٥هـ، ومن كتبه «شرح الأصول الخمسة»، وانظر «الأعلام» للزركلي (٣/ ٢٧٣).

....

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٥]، وطريقُ النَّارِ، المشـارُ إليـهِ بقولِـهِ تَعَالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣].

وهذا قَولٌ باطلٌ وردٌّ للنصوصِ الصحيحةِ بغيرِ بُرهانٍ. والواجبُ حملُ النَّصوصِ على ظاهِرها.

القنطرة بين الجنة والنار

فَمن مرَّ على الصِّراطِ؛ دخلَ الجنةَ. فإذا عَبروا عَليهِ، وقَفُوا على قَنطرةٍ بين الجنةِ والنَّارِ، فيقتصُّ لبعضِهم من بعضٍ، فإذا هُذِّبُوا ونُقُّوا؛ أُذِنَ لهمْ في دُخُولِ الجَنَةِ.

الشرح:

٧- ذكرَ الشيخُ رَحِمهُ اللهُ مما يكونُ يومَ القِيامةِ الوقوفَ على القنطرةِ فقال: (فَمنْ مرَّ على الصِّراطِ) أي: تجاوزَهُ وسَلِمَ من السقوطِ في جهنمَ (دخلَ الجنةِ)؛ لأنَّ من نجا من النَّارِ دخلَ الجنةَ، قالَ تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقَال تَعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

لكنْ قبلَ دخولِ الجنةِ لا بُدَّ من إجراء القَصاصِ بينَ المُؤمنينَ حتَّى يدخلوا الجنةَ وهمْ على أكملِ حالةٍ، قد خَلُصوا من المظالِمِ(١)، وهذا ما أشارَ إليهِ الشيخُ بقولِهِ: (فإذا عَبرُوا) أي: تجاوزوا الصراطَ ونَجَوا من السُقوطِ في النَّارِ (وقَفُوا على قَنطرةٍ): هي الجسرُ وما ارتفعَ من البنيانِ، وهذهِ القنطرةُ قيلَ: هي طرفُ الصراطِ مما يلي الجنةَ، وقيلَ: هي صراطٌ

---

(١) لذا أوصي النَّبي ﷺ أُمته بقوله: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه، بقدرِ مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمِلَ عليه» رواه البخاري (٢٤٤٩)، كما بين النَّبي ﷺ القصاص في أحاديث أخر رواها البخاري في كتاب الرقائق، باب القصاص يوم القيامة.

....

آخرُ خاصٌ بالمُؤمنينَ.

(فَيُقتصُّ لبعضِهم من بعضٍ) أي: يَجري بينَهُم القصاصُ في المظالِمِ فيؤخذُ للمظلومِ حَقُّهُ ممن ظلمَهُ (فإذا هُذِّبُوا ونُقُّوا) أي: خَلُصوا من التبعاتِ والحقوقِ (أُذِنَ لهم في دُخُولِ الجَنةِ) وقد ذهبَ ما في قلوبِ بعضِهم لبعضٍ منَ الغلِّ، كما قالَ تَعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

أول من يستفتح باب الجنة
وأول من يدخلها وشفاعات النبي ﷺ

وَأولُ من يَستفتحُ بابَ الجَنةِ مُحمَّدٌ ﷺ، وَأولُ مَنْ يَدخُلُ الجَنةَ مِنَ الأُمَمِ أمتُه. ولهُ ﷺ في القِيامةِ ثَلاثُ شَفاعَاتٍ:

أما الشَّفاعةُ الأولى: فيشفعُ في أهلِ المَوقفِ حتى يُقضَى بينهم بعدَ أن يَتراجعَ الأنبياءُ: آدمُ، ونوحُ، وإبراهيمُ، ومُوسَى، وعِيسَى بنُ مَريمَ، عن الشَّفاعةِ حتى تَنتهيَ إليهِ.

وأما الشَّفاعةُ الثانيةُ: فيَشفعُ في أهْلِ الجَنةِ أنْ يَدْخلُوا الجَنَّةَ، وهَاتان الشَفاعتَان خَاصَّتان لهُ.

وأما الشَّفاعةُ الثالثةُ: فيَشفعُ فيمن استحقَّ النَّار، وهذهِ الشَّفاعةُ له ولسائر النَّبيين والصِّديقينَ وغيرهم، فيشفعُ فيمنْ استحقَّ النَّار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يَخرجَ مِنهَا[١].

الشرح:

٨- يبينُ الشيخُ رحمهُ اللهُ ما ينتهي إليهِ أمرُ المؤمنينَ يومَ القِيامةِ بعدَ اجتيازِهم لتلكَ الأحوالِ التي مرَّ ذكرُ أهمِّها فيقولُ: (فإذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أُذِنَ لهُمْ في دُخولِ الجَنةِ) فهم لا يدخلونَ الجنةَ إلا بعدَ إذنٍ من اللهِ تعالى وطلبٍ لفتحِ أبوابِها (وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ) كما في

---

(١) كما ورد في حديث الشفاعة عند البخاري برقم (٣٣٤٠) ومسلم (١٩٤).

....

«الصحيح»[(١)] عن أنسٍ رَضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «آتي بابَ الجنةِ يومَ القِيامةِ فأستفتحُ، فيقولُ الخَازنُ: منْ أنتَ؟ فأقولُ: مُحمدٌ، فيقولُ: بِكَ أمرتُ أن لا أفتحَ لأحدٍ قَبلكَ»، والاستفتاحُ: طلبُ الفتحِ، وفي هذا تشريفٌ لهُ ﷺ وإظهارٌ لفضلِهِ.

(وأولُ منْ يَدخُلها مِنَ الأممِ أُمتهُ)؛ وذلكَ لفضلِها على سائرِ الأُممِ.

ودليلُ ذلكَ:

ما في حديثِ أبي هريرةَ الذي رواهُ مسلمٌ من قولِهِ ﷺ: «ونحنُ أولُ من يَدخلُ الجنةَ».

قولُهُ: (وله ﷺ في القيامة ثَلاثُ شَفاعاتٍ) الشفاعاتُ: جمعُ شفاعة، والشَّفاعةُ: لغةً: الوسيلةُ. وعُرفاً: سؤال الخيرِ للغيرِ. مشتقةٌ من الشفعِ الذي هو ضِدُّ الوترِ. فكأنَّ الشافعَ ضمَّ سؤالَهُ إلى سؤالِ المَشفوعِ له بعدَ أنْ كانَ منفرداً.

وقولُ الشيخِ رحمهُ اللهُ: (ولهُ ﷺ في القِيامةِ ثَلاثُ شَفَاعاتٍ) بيانٌ للشفاعاتِ التي يقومُ بها النَّبيُّ ﷺ في يومِ القيامةِ بإذنِ اللهِ تَعالى. هكذا ذكرَ الشيخُ رحمهُ اللهُ أنواعَ الشفاعةِ هنا مختصرةً، وهي على سَبيلِ الاستقصاءِ ثمانيةُ أنواعٍ منها[(٢)]: ما هو خاصٌّ بالنَّبيِّ ﷺ، ومنها ما هو

---

(١) في «صحيح مسلم» (١٩٧).

(٢) راجع «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٣٢) و«شرح العقيدة الطحاوية» (ص٢٥٣) =

....

مشتركٌ بينهُ وبينَ غيرِهِ.

الشفاعة الأولى: الشفاعةُ العظمى -وهي: المقامُ المحمودُ- وهي أن يشفعَ النَّبيُّ ﷺ أن يقضيَ اللهُ سبحانهُ بين عبادِهِ بعدَ طولِ الموقفِ عليهمْ وبعدَ مراجعتِهم الأنبياءَ للقيامِ بها فيقومُ بها نبيُّنا ﷺ بعدَ إذنِ ربِّهِ.

الشفاعة الثانية: شفاعتُهُ في دخولِ أهلِ الجنةِ الجنةَ بعدَ الفراغِ من الحِسابِ.

الشفاعة الثالثة: شفاعتُهُ ﷺ في عمِّهِ أبي طالبٍ أن يخففَ عنهُ العَذابَ، وهذه خاصَّةٌ بهِ؛ لأنَّ اللهَ أخبرَ أن الكافرينَ لا تنفعُهم شَفَاعَةَ الشافعينَ، ونبيُّنا أخبرَ أنَّ شفاعتَهُ لأهلِ التوحيدِ خاصَّةٌ، فشفاعتُهُ لعمِّهِ أبي طالبٍ خاصةٌ به وخاصةٌ لأبي طالبٍ، هذه الأنواعُ الثلاثةُ من الشفاعةِ خاصَّةٌ بنبيِّنا محمدٍ ﷺ.

الشفاعة الرابعة: شفاعتُه فيمن استحقَّ النَّارَ من عُصاةِ الموحدينَ أن لا يدخلَها.

الشفاعة الخامسة: شفاعتُه ﷺ فيمنْ دخلَ النَّارَ من عُصاةِ الموحدينَ أن يخرجَ منهَا.

الشفاعة السادسة: شفاعتُهُ في رفعِ درجاتِ بعضِ أهلِ الجنةِ.

= و«التنبيهات اللطيفة» (ص٨٩) و«التنبيهات السنية» (ص٢٣٨) كتاب «الشفاعة» لمقبل الوادعي.

....

الشفاعة السابعة: شفاعتُهُ ﷺ فيمنْ استوَتْ حسناتُهم وسيئاتُهم أن يدخلوا الجنةَ، وهمْ أهلُ الأعرافِ على قول.

الشفاعة الثامنة: شفاعتُه ﷺ في دخولِ بعضِ المؤمنينَ الجنةَ بلا حسابٍ ولا عذابٍ، كشفاعتِهِ ﷺ في عكاشةَ بنِ محصنٍ رضيَ اللهُ عنهُ، حيثُ دعا لهُ النَّبيُّ ﷺ أن يكونَ من السبعينَ ألْفاً الذين يدخلونَ الجنةَ بلاحسابٍ ولا عذابٍ.

وهذه الأنواعُ الخمسةُ الباقيةُ يشارِكُهُ فيها غيرُهُ من الأنبياءِ والمَلائكةِ والصديقينَ والشُهداء.

وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ يؤمنونَ بهذه الشفاعاتِ كلِّها؛ لثبوتِ أدلَّتها، وأنها لا تتحققُ إلا بشرطينِ:

الشرط الأول: إذنُ اللهِ للشافعِ أن يشفعَ، كما قالَ تَعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣].

الشرط الثاني: رضا اللهِ عن المَشفوعِ له، كما قالَ تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ويجمعُ الشرطينِ في قولهُ تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النَّجم: ٢٦].

وقد خالفتِ المعتزلةُ في الشفاعةِ لأهلِ الكبائرِ من المؤمنينَ فيمن

....

استحقَّ النَّارَ منهم أن لا يدخلَها وفيمن دخلَها أن يخرجَ منها، أي: في النَّوعِ الخامسِ والسادسِ من أنواعِ الشفاعةِ، ويحتجونَ بقولِهِ تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

والجوابُ عنها: أنها واردةٌ في حقِّ الكُفارِ فهُم الذينَ لا تنفعُهُم شفاعةُ الشافعينِ. أما المؤمنونَ فتنفعُهُم الشَفاعةُ بشروطِها.

هذا وقد انقسمَ النَّاسُ في أمرِ الشفاعةِ إلى ثلاثةِ أصْنَافٍ:

الصِّنْف الأول: غلوا في إثباتِهـا، وهـم النَّصـارى والمُشـركونَ وغـلاةُ الصوفيةِ والقُبوريونَ حيثُ جعلوا شفاعةَ من يعظمونَـهُ عنـدَ اللهِ كالشـفاعةِ المعروفةِ في الدُّنيا عند الملوكِ فطلبوها من دونِ اللهِ، كمـا ذكـرَ اللهُ ذلـكَ عن المُشركينَ.

الصِّنْف الثاني: وهُم المعتزلةُ والخَوارجُ غلوا في نفيِ الشفاعةِ فأنكروا شفاعةَ النَّبيِّ ﷺ وشفاعةَ غيرِهِ في أهلِ الكَبائرِ[1].

الصِّنْف الثالث: وهمْ أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ أثبتوا الشفاعةَ على وفقَ ما جاءتْ بِهِ النُّصوصُ القُرآنيةُ والأحاديثُ النَّبويةُ، فأثبتوا الشفاعةَ بشروطِها.

---

(١) وقد أنكـر الدكتـور مصطفـى محمـود أحـاديث الشـفاعة مشـابهاً بذلـك المعتزلـة والخـوارج، ورد عليـه بعـض الأفـاضل منهـم الشـيخ سـعود الشـريم فـي كتابـه «المراجعات حول إنكار مصطفى محمود لأحاديث الشفاعات» دار الوطن.

إخراج بعض العصاة من النار

برحمة الله بغير شفاعة واتساع الجنة عن أهلها

وَيُخْرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ أقْواماً بِغيرِ شَفاعةٍ، بَل بفضلِهِ ورَحمتِهِ، وَيَبقَى فِي الجَنَّةِ فَضلٌ عَمَّن دَخلَهَا مِن أَهلِ الدُّنيا، فينشئُ اللهُ أقواماً فيدخلُهُم الجَنةَ. وأصنافُ ما تَضمَّنَتْهُ الدَّارُ الآخرةُ مِنَ الحِسَابِ والثَوابِ وَالعِقابِ والجَنةِ وَالنَّارِ، وتَفاصيلُ ذَلكَ مَذْكُورةٌ فِي الكُتبِ المُنزَّلةِ مِنَ السَّماءِ وَالآثارِ من العلمِ المَأثورِ عنِ الأنْبياءِ، وفِي العلمِ المَوروثِ عَنْ مُحمَّدٍ ﷺ من ذلك مَا يَشْفي ويَكْفي فمن ابتغَاهُ وجَدَهُ.

الشرح:

٩- لمَّا ذكرَ الشيخُ رحمهُ اللهُ أنَّ من أنواعِ الشفاعاتِ التي تقعُ بإذنِ اللهِ الشفاعةَ بإخراجِ بعضٍ من دخلوا النَّارَ منها - ذكرَ هنا: أن الخُروجَ من النَّارِ لهُ سببٌ آخرُ غيرُ الشفاعةِ وهو: رحمةُ اللهِ سُبحانهُ وفضلُه وإحسانهُ فيخرجُ من النَّارِ من عصاةِ الموحدين من في قلبهِ أدنى مثقالِ حبةٍ من إيمان.

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النِّساء: ٤٨].

وفي الحديثِ المُتفقِ عليهِ[1]: «يقولُ اللهُ: شفعتِ الملائكةُ وشفعَ النَّبيونَ، وشَفعَ المُؤمنونَ ولم يبق إلا أرحمُ الرَّاحمينَ فيقبضُ قبضةً من

---

(١) رواه البخاري (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣).

....

النَّار فيُخرجُ منها قوماً لم يعملوا خيراً قط» الحديث.

وقولُهُ: (وَيَبقَى فِي الجَنَّةِ فَضلٌ) أي: مُــتَّسعٌ (عَمَّـن دَخلَهـا مِـن أهـلِ الدُّنيا)؛ لأنَّ اللهَ وصفَها بالسعةِ فقالَ: ﴿عَرْضُهَا السَّـمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [آل عمـران: ١٣٣] (فينشـئُ الله) أي: يَخلـق ويُوجـد (أقوامـاً) أي: جماعــاتٍ (فيدخلهم الجنة) بفضلِهِ ورحمتِهِ؛ لأنَّ الجنةَ رحمتُهُ يرحــمُ بهـا مـن يشـاءُ، وأما النَّارُ فلا يعذبُ فيها إلا مَنْ قامتْ عليهِ حجتُهُ وكذَّبَ رسلَهُ.

وقولُهُ: (وأصنافُ ما تضمَّنته الدارُ الآخرةِ...) إلخ، لما ذكرَ رحمهُ اللهُ ما ذكرَ من أحوالِ اليومِ الآخرِ وما يجري فيهِ -أحالَ على الكتـابِ والسُّـنَّةِ في معرفةِ تفاصيلِ البقيةِ مما لم يذكرهُ؛ لأنَّ ذلكَ من علـمِ الغيـبِ الـذي لا يعرفُ إلا مِنْ طريقِ الوَحي.

الإيمان
بالقدر وبيان ما يتضمنه

وَتُؤمِنُ الفِرقَةُ النَّاجِيَةُ -أهلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ- بالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ، وَالإِيمانِ بِالقَدَرِ عَلَى دَرَجَتينِ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيئَينِ.

الشرح:

(القدر)(١): مَصدر قَدَرْتُ الشيءَ إذا أحطتَ بمقدارِهِ، والمُرادُ بـه هُنـا: تعلُّقُ علمِ اللهِ بالكائناتِ وإرادَتُه لها أزلاً قبلَ وجودِها. فلا حادثٌ إلا وقـد قدَّرهُ اللهُ، أي: سبقَ علمُهُ به وتعلَّقتْ به إرادتُهُ، و(الإيمانُ بِالقَدَرِ) هو أحـدُ أركانِ الإيمانِ الستةِ، وهو الإيمانُ بالقدرِ خيرهِ وشرِّهِ.

وفي قولِ الشيخِ رحمـهُ اللهُ: (وَتُؤمِـنُ الفِرقَـةُ النَّاجِيَـةُ - أهـلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ- بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ) إشارةٌ إلى أنَّ من لم يُؤمِن بالقَدرِ فليسَ من أهلِ السُّـنَّةِ والجماعـةِ، وهـذا هـو مُقتَضـى النُّصـوصِ، كمـا فـي حديـثِ جبريلَ(٢) حينَ سألَ النَّبيَّ ﷺ عنِ الإيمانِ: فقالَ: «**الإيمانُ: أنْ تؤمِنَ بـاللهِ، وملائِكتهِ، وكُتبهِ، ورسلِهِ، واليومِ الآخرِ، وتؤمنَ بالقدرِ خيرهِ وشرهِ**»، فجعلَ ﷺ الإيمانَ بالقدرِ سادسَ أركانِ الإيمانِ، فمن أنكرَهُ فليسَ بمؤمنٍ، كما لـو لم يُؤمِنْ بغيرِهِ من أركانِ الإيمانِ.

وقولُـهُ: (والإيمانُ بالقَدرِ عَلَـى دَرَجَتينِ...) إلـخ، وذكـرَ الشيخُ رحمهُ

---

(١) انظر «القضاء والقدر» عمر سليمان الأشقر (ص٢٥).

(٢) رواه مسلم (٩).

....

اللهُ هنا: أن الإيمانَ بالقدرِ يشتملُ على أربعِ مراتبٍ هي إجمالاً كما يلي[١]:

الأولى: علمُ اللهِ الأزلي بكلِّ شيءٍ، ومن ذلكَ علمُهُ بأعمالِ العبادِ قبلَ أنْ يعمَلوها.

الثانية: كتابةُ ذلك في اللوحِ المَحفوظِ.

الثالثة: مشيئتُهُ الشاملةُ وقدرتُه التامةُ لكلِّ حادثٍ.

الرابعة: إيجادُ اللهِ لكلِّ المَخلوقاتِ، وأنه الخالقُ وما سواهُ مخلوقٌ، هذا مجملُ مراتبِ القدرِ، وإليكَ بيانُها بالتفصيلِ:

---

(١) انظر «معارج القبول» للحكمي (١٠٨٦).

تفصيل
مراتب القدر

أ ـ الدرجة الأولى وما تتضمنه:

فالدَرجةُ الأولى: الإيمانُ بأنَّ اللهَ تَعالى عليمٌ بما الخلق عاملون بعلمِهِ القَديمِ الذي هُوَ مَوصوفٌ به أزلاً وأبداً، وَعَلِمَ جَميعَ أحوالِهِم مِنَ الطَّاعاتِ وَالمَعاصِي وَالأرزاقِ وَالآجالِ ثُمَّ كَتَبَ اللهُ في اللَّوحِ المَحفُوظِ مَقاديرَ الخَلق.

فَأولُ ما خلق اللهُ القَلمَ؛ قال له: اكتُبْ قَالَ: ما أكتُبُ؟ قال: اكتُبْ ما هو كائنٌ إلى يوم القيامةِ. فَمَا أصابَ الإنسانَ لَم يَكُن لِيُخطِئَهُ وَمَا أخطَأَهُ لَم يَكُن لِيُصيبَهُ، جَفَّتِ الأَقلامُ وَطُوِيَتِ الصُحُفُ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة الحج: ٧٠]، وقالَ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة الحديد: ٢٢].

وَهَذَا التَّقديرُ التَّابعُ لِعِلمِهِ سُبحانَهُ يَكونُ في مَواضِعَ جُملَةً وَتَفصيلاً: فَقَد كَتَبَ في اللَّوحِ المَحفُوظِ مَا شَاءَ. وإذا خَلَقَ جَسَدَ الجَنينِ قَبلَ نَفخِ الرُّوحِ فِيهِ بَعَثَ إِليهِ مَلَكاً، فَيُؤمَرُ بِأربَعِ كَلِماتٍ، فَيُقَالُ لَهُ: اكتُب رزقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أم سَعِيدٌ، وَنَحوَ ذَلِكَ. فهذا التَقديرُ قَد كانَ يُنكرُهُ غُلاةُ القَدريةِ قَديماً ومُنكِروه اليومَ قَليلٌ.

الشرح:

قولُهُ: (أزلاً) الأزَل: القِدَم الذي لا بدايةَ له. وقولُـهُ (أبـداً) الأبـد هـو: الدَّوامُ في المُستقبلِ الذي لا نهايـةَ لـه. و(الطَّاعـاتِ): جمـعُ طاعـة، وهـي موافقةُ الأمرِ. و(المَعاصِي): جمع معصية وهي مخالفةُ الأمـر، و(الأرزاق): جمع رزق، وهو ما ينفعُ. و(الآجالِ): جمع أجل، وهو مُدةُ الشـيء، وأجـلُ الإنسانِ نهايةُ وقتِهِ في الدُّنيا بالموتِ. و(اللَّوحِ المَحفُوظِ): وهو أُمُّ الكِتابِ، (مَحفُوظ) من الزيادةِ والنُّقْصَانِ فيهِ. ذكـرَ الشـيخُ هنـا مـا تتضمَّنـهُ الدرجـةُ الأولى من درجتي الإيمانِ بالقدرِ وأنها تتضمنُ شيئينِ[١]، أي مرتبتينِ.

المَرتبة الأولى: الإيمانُ بعلمِ اللهِ المحيطِ بكلِّ شيءٍ من الموجـوداتِ والمعدوماتِ، هذا العلمُ الذي هو صفةٌ من صفاتِـهِ تعـالى الذاتيـةِ التـي لا يزالُ متصفاً بها أزلاً وأبداً. ومن ذلكَ علمُـهُ بأعمـالِ الخلـقِ مـن الطاعَـاتِ والمَعاصي وعلمُهُ بأحوالِهم من الأرزاقِ والآجالِ وغيرِها.

المَرتبة الثانية: مرتبةُ الكتابةِ، وهي أن اللهَ كتبَ فـي اللـوحِ المحفـوظِ مقادير الخلقِ، فما يحدثُ شيءٌ في الكَونِ إلا وقـدْ علمَـهُ اللهُ وكتَبـهُ قبـلَ حدوثِهِ.

ثم استدلَّ الشيخُ رحمهُ اللهُ على ذلكَ بأدلةٍ من الكِتابِ والسُّـنَّةِ، فمن أدلةِ السُّـنَّةِ على ذلكَ الحديـثِ الـذي ذكـرَ الشـيخُ معنـاهُ، ولفظـهُ مـا رواهُ أبو داود[٢] في «سننهِ» عن عبادةَ بنِ الصامـتِ رضيَ اللهُ عنهُ قـالَ: سمعـتُ

(١) انظر «قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر» لصديق حسن خان (٨٤).

(٢) رقم (٤٧٠٠) وصححه الألباني.

....

رَسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «أولُ ما خلقَ اللهُ القلم فقال لـه: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة» فهذا الحديثُ يدلُّ على مرتبةِ الكتابةِ، وأن المقاديرَ كلَّها مكتوبةٌ.

وقولُهُ: «أولُ ما خلقَ اللهُ القلم فقال لـه: اكتب» رُوِيَ بنصبِ (أولَ) و(القلمَ) على أنَّ الكلامَ جملةٌ واحدةٌ، ومعناه: أنه عندَ أولِ خلقِهِ القلمَ قال له: اكتب. وروي برفع (أولُ) و(القلمُ) على أنَّ الكلامَ جملتان: الأولى: (أولُ ما خلقَ اللهُ القلمُ) و (قال له: اكتب) جملةٌ ثانيةٌ، فيكونُ المعنى: أن أولُ المَخلوقاتِ من هذا العَالمِ القلمَ.

وقولُهُ: (فَمَا أصابَ الإنسانَ لَم يَكُن لِيُخطِئَهُ...) إلخ من كلامِ عبادةَ بنِ الصامتِ راوي الحديثِ، أي: ما يُصيبُ الإنسانُ مما ينفعُهُ أو يضرُّهُ فهو مقدرٌ عليهِ لا بُدَّ أن يقعَ به ولا يقعَ بهِ خلافُهُ. وقولُهُ: (جَفَّتِ الأقلامُ وَطُويَتِ الصُّحُفُ) كنايةٌ عن سبقِ كتابةِ المقاديرِ والفراغِ منها، وهو معنى ماجاءَ في حديثِ ابنِ عباسٍ: «رُفعتِ الأقلامُ وجفتِ الصُّحف» رواهُ الترمذيُّ[1].

ثم ذكرَ الشيخُ من أدلةِ القُرآنِ، قولهُ تَعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الاستفهامُ للتقريرِ، أي: قدْ علمتَ يا محمدُ وتيقنْتَ ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا

(١) رقم (٢٥١٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

....

﴿فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ فيه إحاطةُ علمِهِ بالعالمِ العلويِّ والعالمِ السُّفليِّ وهذه مرتبةُ العلمِ ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي: الذي في السماءِ والأرضِ من معلوماتِهِ ﴿فِي كِتَابٍ﴾ أي: مَكتوبٌ عندهُ في أُمِّ الكِتَابِ، وهذه مرتبةُ الكتابةِ ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ أي: أنَّ إحاطةَ علمِهِ بما في السَّماءِ والأرضِ وكتابَتهُ يسيرٌ عليه.

والشَّاهدُ من الآيةِ الكريمةِ:

أنَّ فيها إثباتَ علمِ اللهِ بالأشياءِ وكتابَتِها في اللوحِ المحفوظِ وهذا هو ما تتضمنُهُ الدرجةُ الأولى.

واستدلَ الشيخُ أيضاً بقولِهِ تَعَالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾، ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ﴾ من قحطِ مطرٍ وضعفِ نباتٍ ونقصِ ثمارٍ ﴿وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ بالآلامِ والأسقامِ وضيقِ العَيشِ ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ أي: إلا وهي مكتوبةٌ في اللوحِ المحفوظِ ﴿مِنْ قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ أي: قبلَ أنْ نخلقَها ونوجدَها ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ أي: أن إثباتَها في الكتاب على كثرتِها يسيرٌ على اللهِ سُبحانَهُ.

والشاهدُ من الآيةِ الكريمةِ:

أنَّ فيهَا دليلاً على كتابةِ الحوادثِ في اللوحِ المحفوظِ قبلَ وقوعِها. ويتضمنُ ذلكَ علمُهُ بها قبلَ الكتابةِ فهي دليلٌ على مرتبتي العلمِ والكتابةِ.

....

ثم بعدَ ذلكَ أشارَ الشيخُ رحمهُ اللهُ إلى أنَّ التقديرَ نوعانِ:

تقديرٌ عامٌّ: شاملٌ لكلِّ كائنٍ وهو الذي تقدَّمَ الكلامُ عليهِ بأدلتِهِ وهو المكتوبُ في اللوحِ المحفوظِ.

وتقديرٌ خاصٌّ: وهو تفصيلٌ للقدرِ العامِّ، وهو ثلاثةُ أنواعٍ: تقديرٌ عُمري، وتقديرٌ حوليٌّ، وتقديرُ يوميٌّ. هذا معنى قولِ الشيخِ:(وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبحانَهُ يَكونُ في مَواضِعَ جُملَةً) أي: تقديراً عاماً، وهو المَكتوبُ في اللوحِ المحفوظِ يعمُّ جميعَ المخلوقاتِ(وَتَفصيلاً) أي: تقديراً خاصاً مفصلاً للتقديرِ العَامِّ وهو[1]:

١- التقديرُ العُمريُّ: كما في حديثِ ابنِ مَسعودٍ في شأنِ ما يكتبُ على الجنينِ في بطنِ أمِهِ من أربعِ الكلماتِ: رِزقِهِ وأجلِهِ وعلمِهِ وشقاوتِهِ أو سعادتِهِ.

٢- تقديرٌ حوليٌّ: وهو ما يقَدَّرُ في ليلةِ القدرِ من وقائعِ العامِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

٣- تقديرٌ يوميٌّ: وهو ما يُقدَّرُ من حوادثِ اليومِ من حياةٍ وموتٍ وعزٌ وذُلٌ إلى غيرِ ذلك، كما في قولِهِ تعَالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، وعن ابنِ عباسٍ رَضيَ اللهُ عنهُما: (إنَّ اللهَ خلقَ لوحاً محفوظاً من درةٍ بيضاءَ دفتاهُ من ياقوتةٍ حمراءَ، قلمُهُ نورٌ، وكتابتُهُ نورٌ، عرضُه ما بينَ

---

(١) انظر «معارج القبول» (ص١١٠٤) وما بعدها.

....

السماءِ والأرضِ، ينظرُ فيهِ كلَّ يومٍ ثلاثمائــةٍ وسـتينَ نظـرةً، يحيـي ويميـتُ ويعز ويذل ويفعل ما يشاء فذلك قولهُ سبحانهُ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُـوَ فِـي شَـأْنٍ﴾) رواهُ عبدالرزاقِ وابنُ المنذرِ والطبرانيُّ والحاكمُ(١).

وقولُهُ: (فهذا القدر) أي: الذي سبقَ بيانُه بنوعيهِ العامِّ والخـاصِّ (قـد كان ينكره غلاة القدرية) أي: المبالغونَ في نفي القَدرِ، فينكــرونَ علـمَ اللهِ بالأشياءِ قبلَ وجودِها وكتابَته لها في اللوحِ المحفوظِ وغيرَه، ويقولــونَ: إنَّ اللهَ أمرَ ونهى وهـو لا يعلـمُ مـن يطيعُـهُ ممـن يَعصيـهِ. فـالأمرُ أنـفٌ، أي: مستأنفٌ لم يسبقْ فـي علـمِ اللهِ وتقديـرهِ، وهـؤلاءِ كفَّرَهـم الأئمـةُ لكنَّهـمْ انقرضوا، ولهذا قالَ الشيخُ: (ومنكروه اليوم قليل) وبقيتِ الفرقةُ التـي تُقِـرُّ بالعلمِ ولكنْ تنفي دخولَ أفعالِ العِبادِ في القَدرِ وتزعــمُ أنهـا مخلوقـةٌ لهـم استقلالاً لم يخلقها اللهُ ولم يُرِدْها، كما يأتي بيانُهُ.

---

(١) رواه ابن المنذر والطبراني في «الكبير» (١٢/ ٧٢) والحاكم (٢/ ٥١٩) وأبو الشيخ فـي «العظمـة» رقـم (١٥٨) وأبـو نعيـم فـي «الحليـة» (٤/ ٣٠٥) والبيهقـي فــي «الأسـماء والصفــات» (٢/ ١٣٠) ورواه ابــن جريــر الطــبري فــي «تفســيره» (١٣/ ١٧٦)، ولـه شواهد ترقى بـه إلى درجـة الحسن لغيـره، انـظر «العظمـة» لأبي الشيخ (٢/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤) والتعليق عليه.

ب ـ الدرجة الثانية وما تتضمنه:

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: فَهِيَ مَشيئَةُ الله النَّافِذَةُ، وَقُدرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ: الإِيمانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَم يَشَأْ لَم يَكُن، وَأَنَّهُ مَا في السَّماواتِ وَمَا في الأَرضِ مِن حَرَكَةٍ وَلاَ سُكون إِلاَّ بِمَشِيئَةِ الله سُبحانَهُ لاَ يَكُونُ في مُلكِهِ مَا لاَ يُريدُ، وَأَنَّهُ سُبحانَهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ مِنَ المَوجُودَاتِ وَالمَعدُوماتِ، فَمَا مِن مَخلوقٍ في الأَرضِ وَلاَ فِي السَّماءِ إِلاَّ الله خَالِقُهُ سُبحانَهُ لاَ خَالِقَ غَيرُهُ وَلاَ رَبَّ سِواهُ.

الشرح:

هَذا بيانٌ للمرتبةِ الثالثةِ[1]، والمرتبةُ الرابعةُ من مراتبِ القدرِ. أشارَ إلى الثالثةِ بقولِهِ: (فَهِيَ مَشيئَةُ الله النَّافِذَةُ، وَقُدرَتُهُ الشَّامِلَةُ)، و(النَّافِذَةُ): هي الماضيةُ التي لا رادَّ لها، و(الشَّامِلَةُ): هي العامَّةُ لكلِّ شيءٍ من الموجوداتِ والمعدوماتِ.

وقولُهُ: (وَهُوَ الإِيمانُ) أي: ومعنى الإيمانِ بهذهِ المرتبةِ: اعتقادُ (أَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ) أي: وُجِدَ (وَمَا لَم يَشَأْ لَم يَكُن) أي: لم يُوجدْ (وَأَنَّهُ مَا في السَّماواتِ مِن حَرَكَةٍ وَلاَ سُكون إِلاَّ بِمَشِيئَةِ الله) أي: لا يحصلُ شيءٌ من ذلكَ إلا وقدْ شاءَهُ اللهُ سُبحانهُ (لاَ يَكونُ في مُلكِهِ مَا لاَ يُريدُ) وقوعهُ كوناً وقدراً (وَأَنَّهُ سُبحانَهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ مِنَ المَوجُودَاتِ وَالمَعدُوماتِ) لدخولِها تحتَ عُمومِ (كُلِّ شَيءٍ) فاللهُ قد أخبرَ في آياتٍ كثيرةٍ: أنهُ على كُلِّ

---

(١) اعتبرها المصنف رحمه الله (الثانية)؛ لأنه جعل العلم والكتابة درجة واحدة.

....

شيءٍ قديرٌ.

وقولُهُ: (فَمَا مِـن مَخلـوقٍ فـي الأرضِ وَلاَ فِـي السَّـماء إلاَّ الله خَالِقُـهُ سُبحانَهُ) هذا فيهِ إشارةٌ إلى المَرتبةِ الرابعةِ، وهـي مرتبـةُ الخَلْـقِ والإيجـادِ، فكُلُّ ما سِوى اللهِ فهو مخلوقٌ وكلٌّ الأفعـالِ خيرُهـا وشـرُّها صـادرةٌ عـن خلقِهِ وإحداثِهِ لها (لاَ خَالِقٌ غَيرُهُ وَلاَ رَبٌّ سِواهُ).

ولما فرغَ الشيخُ من ذكرِ مراتبِ القـدرِ نبَّـهَ علـى مسـائلَ تتعلـقُ بهـذا المَوضوعِ:

المسألة الأولى: أنهُ لا تعارضَ بين القَدرِ والشَّرعِ.

المسألة الثّانية: لا تعارضَ بين تقديرِ اللهِ وقوعَ المعاصي وبغضِهِ لها.

المسـألة الثالثـة: لا تعـارضَ بيـن تقديـرِ اللهِ لأفعـالِ العبـادِ وكونِهـم يفعلونها باختيارِهم.

١، ٢ـ لا تعارض

بين القدر والشرع ولا بين تقديره للمعاصي وبغضه لها

ومَع ذَلكَ؛ فقدْ أمرَ العِبادَ بطاعتِهِ وطَاعةِ رُسُلهِ ونَهاهُمْ عَن مَعصيتِهِ. وَهُوَ سُبحانَهُ يُحِبُّ المُتَّقِينَ وَالمُحسِنِينَ وَالمُقسِطِينَ وَيَرضَى عَن الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات ولا يُحِبُّ الكَافرينَ ولا يرضى عن القَومِ الفَاسِقينَ، وَلا يأمُرُ بالفَحشاءِ ولا يَرضَى لعِبادِهِ الكُفْرَ ولا يُحبُّ الفَسادَ.

الشرح:

لما قرَّرَ الشيخُ رحمهُ اللهُ القدرَ بمراتِبهِ الأربعِ: العلمِ، والكتابةِ، والمشيئةِ، والإرادةِ، والخلقِ، والإيجادِ، وأنه ما مِنْ شيءٍ يحدثُ إلا وقدْ علمَهُ اللهُ وكتَبهُ وشاءَهُ وأرادَهُ وأوجدَهُ - بيَّن هُنا أنهُ لا تعارضَ بينَ ذلكَ وبينَ كونِهِ أمَرَ العبادَ بطاعتِهِ ونهاهم عن معصيتِهِ ولا بينَ تقديرِهِ وقوعَ المعصيةِ وبغضِه لها، فقولُهُ: (ومع ذلك) أي: مع كونِهِ سُبحانهُ هو الذي عَلِمَ الأشياءَ وقدَّرها وكتَبها وأرادَها وأوجدَها **(فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته)** كما دلَّتْ على ذلك أدلةٌ كثيرةٌ من الكِتابِ والسُّنَّةِ أمرَ فيها بالطاعةِ ونهى عن المعصيةِ، ولا تعارضَ في ذلكَ بينَ شرعِهِ وقدرِهِ. كما يظنُّهُ بعضُ الضُّلالِ الذينَ يعارضونَ بينَ الشَّرعِ والقَدَرِ.

يقولُ الشيخُ رحمهُ الله في هذا المَوضوعِ في رسالته [التدمريةِ][1] :

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٠١).

....

وأهلُ الضلالِ الخائضونَ في القَدرِ انقسموا إلى ثلاثِ فرقٍ: مجوسيةٍ، ومشركيةٍ، وإبليسيةٍ.

الفرقة الأولى: المجوسية: الذينَ كذَّبوا بقدرِ اللهِ وإن آمنوا بأمرِهِ ونهيِهِ، فغلاتُهم أنكروا العلمَ والكتابَ، ومُقتصدُوهم أنكروا عمومَ مشيئتِهِ وخلقِهِ وقدرتِهِ وهؤلاءِ همُ المعتزلةُ ومَنْ وَافقهُم.

والفرقة الثانية: المشركية: الذينَ أقروا بالقضاء والقدر، وأنكروا الأمرَ والنَّهيَ، قَالَ تَعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ الله مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فمن احتجَّ على تعطيلِ الأمرِ والنَّهيِ فهو من هؤلاءِ. وهذا قدْ كثُرَ فيمن يدَّعي الحقيقةَ من المتصوفةِ.

والفرقة الثالثة: وهم الإبليسية: الذينَ أقروا بالأمرينِ، لكن جَعلوا هذا تناقضاً مِنَ الرَّبِّ سبحانَهُ وتعالى، وطعنوا في حكمتِهِ وعدلِهِ، كما يُذكَرُ ذلكَ عن إبليسَ مُقدَّمِهم، كما نقلَهُ أهلُ المقالاتِ، ونُقِلَ عن أهلِ الكِتابِ.

والمقصودُ: أنَّ هذا ممَّا تقوَّلهُ أهلُ الضلالِ، وأما أهلُ الهُدى والفلاحِ فيؤمنونَ بهذا وهذا، ويؤمنونَ بأنَّ اللهَ خالقُ كُلِّ شيءٍ وربُّهُ ومليكُهُ، وما شاءَ كانَ، وما لم يشأْ لم يَكُنْ، وهو على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، وأحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً، وكلَّ شيءٍ أحصاهُ في إمامٍ مُبينٍ. اهـ.

وقولُهُ: (وَهُوَ سُبحانَهُ يُحِبُّ المُتَّقِينَ وَالمُحسِنِينَ وَالمُقسِطِينَ) أي: يحبُّ مَن اتَّصفَ بالصفاتِ الحميدةِ، كالتَّقوى والإحسانِ والقسطِ (وَيَرضَى

....

عَن الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ)، كما أخبرَ بذلكَ في آياتٍ كثيرةٍ؛ لِمَا اتَّصفوا بهِ من الإيمانِ والعملِ الصالحِ (ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين) أي: لا يرضى عمن اتَّصفَ بالصفاتِ التي يُبغِضُها؛ كالكُفرِ والفُسوقِ وسائرِ الصِفاتِ الذميمةِ (ولا يأمر بالفحشاء) وهي: ما تَناهى قَبحُهُ من الأقوالِ والأفعالِ (ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد)؛ لقبحِهِما، ولما فيهما من المَضرَّةِ على العبادِ والبلادِ.

ويريدُ الشيخُ رحمهُ اللهُ بهذا الكَلامِ: الرَّدَّ على مَنْ زعمَ: أنَّ الإرادةَ والمحبةَ بينهما تلازمٌ، فإذا أرادَ اللهُ شيئاً فقدْ أحبَّهُ، وإذا شاءَ شيئاً فقدْ أحبَّهُ.

وهذا قولٌ باطلٌ، والقولُ الحقُ: أنهُ لا تلازمَ بينَ الإرادةِ والمحبةِ، أوْ بينَ المشيئةِ والمحبةِ. أعني: الإرادةَ والمشيئةَ الكونيةَ -فقدْ يشاءُ اللهُ ما لا يُحبُّهُ، وقدْ يُحِبُّ ما لا يشاءُ وجودَهُ، مثال الأول: مشيئةُ وجودِ إبليسَ وجنودِهِ ومشيئتُهُ العامةُ لما في الكَونِ مع بغضِهِ لبعضِهِ، ومثال الثاني: محبتُهُ لإيمانِ الكُفارِ، وطاعاتِ الكُفارِ، ولم يشأ وجودَ ذلكَ منهم، ولو شاءَهُ لوُجِدَ.

٣ـ لا تنافي بين إثبات القدر
وإسناده أفعال العباد إليهم حقيقة وأنهم يفعلونها باختيارهم

وَالعِبادُ فَاعلونَ حَقيقةً والله خَـالقُ أفْعَـالَهُم. وَالعَبـدُ هُـوَ: المُؤمِـنُ وَالكَـافِرُ وَالـبَرُّ وَالفـاجِرُ، وَالمُصلِّـي وَالصَّـائِمُ. وَلِلعِبـادِ قُــدرَةٌ عَلَــى أعمالِهِم، وَلَهُم إرادَةٌ، والله خَالِقُهُم وَخَالِق قُدرَتَهُم وَإرَادَتَهُم، كما قــال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَــاءَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة التكوير: ٢٨-٢٩].

وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَرِ يُكَذِّبُ بِهـا عَامَّـةُ القَدَرِيَّـةِ الذِيـنَ سَـمَّاهُم النَّبيُّ ﷺ: مَجوسَ هذِهِ الأُمَّةِ، وَيَغلو فيها قَومٌ مِن أهـلِ الإثبـاتِ، حَتَّـى سَلَبُوا العَبدَ قُدرَتَهُ وَاختِيارَهُ، وَيخرُجونَ عَن أفعالِ الله وَأحكَامِهِ حِكَمَها وَمَصالِحَها.

الشرح:

أراد الشيخُ رحمهُ اللهُ بهذا الكلامِ: أن يبيـنَ أنـه لا تنـافي بيـنَ إثبـاتِ القدرِ بجميـعِ مراتبـهِ السـابقةِ وكـونِ العبـادِ يفعلـونَ باختيـارهم ويعملـونَ بإرادتهم، وقصدهُ بهـذا: الـردُّ علـى مـن زعـمَ: أنَّ إثبـات ذلـك يـلزم منـه التناقُض، ومن ثم ذهبت طائفةٌ منهم إلى الغلوِّ في إثباتِ القدر حتى سَـلبوا العبدَ قدرَتَهُ واختيارَهُ. وذهبتِ الطائفةُ الثانيـةُ إلـى الغلـوِّ فـي إثبـاتِ أفعـالِ العبادِ واختيارهم حتى جعلوهُم هم الخالقينَ لها، ولا تعلُّق لها بمشـيئة الله ولا تدخُلُ تَحتَ قدرتِهِ.

....

ويُقالُ للطائفةِ الأولى: الجَبريةُ؛ لأنهم يقولونَ: إن العبدَ مُجبرٌ على ما يصدرُ منهُ لا اختيارَ لهُ فيهِ، ويُقالُ للطائفةِ الثانيةِ: القدريةُ النُّفَاةُ؛ لأنهم ينفونَ القدرَ.

فقولُ الشيخِ رحمهُ اللهِ: (وَالعِبادُ فَاعلونَ حَقيقَةً) ردٌّ على الطائفةِ الأولى وهم الجبريةُ؛ لأنهم يقولونَ: إن العبادَ ليسوا فاعلينَ حقيقةً وإسنادُ الأفعالِ إليهم من بابِ المجازِ. وقولُهُ: (واللهُ خَالقُهم وخالقُ أَفْعَالَهُم) ردٌّ على الطائفةِ الثانيةِ القدريةِ، النُّفَاةُ؛ لأنهم يقولونَ: إن اللهَ لم يخلِقْ أفعالَ العبادِ وإنما هُم خلقوها استقلالاً دونَ مشيئةِ اللهِ وتقديرِهِ لها.

وقولُهُ: (وَالعَبدُ هُوَ المُؤمِنُ وَالكَافِرُ وَالبَرُّ وَالفاجرُ وَالمُصلِّي وَالصَّائِمُ وَلِلعِبادِ قُدرَةٌ عَلى أعمالِهِم وَلَهُم إرادَةٌ) ردٌّ على الجبريةِ، أي: ليسَ العبادُ بمجّبرينَ على تلكَ الأعمالِ؛ لأنَّهُ لو كانَ كذلكَ لما صحَّ وصفُهُم بها؛ لأنَّ فعلَ المجبرِ لا ينسبُ إليه، ولا يُوصفُ به، ولا يستحقُّ عليهِ الثوابَ أو العِقابَ.

وقولُهُ: (واللهُ خَالِقُهُم وخالقُ وَقُدْرَتَهُم) ردٌّ على القدريةِ النُّفَاةِ حيثُ زعموا أنَّ العبادَ يخلقونَ أفعالهم بدونِ إرادةِ اللهِ ومشيئتِهِ، كما سبقَ. ثم استدلَّ الشيخُ في الردِّ على الطائفتينِ بقولِهِ تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، فقولهُ تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ فيهِ الردُّ على الجبريةِ؛ لأنه أثبتَ للعبادِ مشيئةً وهم

....

يقولونَ لا مشيئةَ لهم، وقولُهُ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فيهِ الردُّ على القدريةِ القائلينَ بأنَّ مشيئةَ العبدِ مستقلةٌ بإيجادِ الفعلِ من غيرِ توقُّفٍ على مشيئةِ اللهِ وهذا باطلٌ؛ لأنَّ اللهَ علَّقَ مشيئةَ العبادِ على مشيئتِهِ سُبحانه، وربطَها بها.

قولُهُ: (وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَر) وهي عمومُ مشيئتِهِ وإرادتِهِ لكلِّ شيءٍ وعمومُ خلقِهِ لكلِّ شيءٍ وأنَّ العبادَ فاعلونَ حقيقةً، واللهُ خالقُهُم وخالقُ أفْعَالَهُم (يُكَذِّبُ بها عَامَّةُ القَدَرِيَّةِ) النُّفَاةِ، حيثُ يزعمون: أنَّ العبدَ يخلقُ فعلَ نفسِهِ بدونِ مشيئةِ اللهِ وإرادتِهِ (الذِينَ سَمَّاهُم النَّبيُّ ﷺ: مَجوسَ هذِهِ الأُمَّةِ)[1]؛ لمشابهتِهم المجوسَ الذين يثبتونَ خالقينِ: هما: النُّورُ، والظُّلمةُ، فيقولون: إنَّ الخيرَ من فعلِ النُّورِ، والشَّرَّ من فعلِ الظلمةِ فصاروا ثنويةً. وكذلكَ هؤلاءِ القدريةُ جعلوا خالقاً مع اللهِ حيثُ زعموا: أنَّ العبادَ يخلقونَ أفعالَهمْ بدونِ إرادةِ اللهِ ومشيئتِه، بل يستقلونَ بخلقِها، ولم يثبتْ أنَّ النَّبيَّ ﷺ سمَّاهمْ مجوسَ هذهِ الأمةِ؛ لتأخُّرِ ظهورِهم عن وقتِ النَّبيِّ ﷺ فأكثرُ ما يجيءُ مِنْ ذمِّهم إنما هو موقوفٌ على الصحابةِ.

وقولُهُ: (وَيَغلو فيها) أي: هذهِ الدرجةِ من القَدرِ. والغلو: هو الزيادةُ في الشيءِ عن الحَدِّ المطلوبِ (قَومٌ مِن أهلِ الإثباتِ) فاعلُ يغلو، والمُرادُ

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٩١) والحاكم (١/ ٨٥) وابن أبي عاصم بأسانيد مختلفة في كتابه «تخريج السنة» (٣٨٢، ٣٢٩) وغيره، وله طُرق يتقوى بها. انظر «شرح العقيدة الطحاوية» (٣٠٤).

....

بهم: الجبريةُ الذين قالوا: إنَّ العبدَ مجبرٌ على فعلِهِ (حَتَّى سَلَبُوا العَبدَ قُدرَتَهُ وَاختِيارَهُ).

فالأولونَ غَلَوا في إثباتِ أفعالِ العبادِ حتى أخرجوها عن مشيئةِ اللهِ، وهؤلاءِ غلَوْا في نفيِ أفعالِ العبادِ حتَّى سلبوهم القدرةَ والاختيارَ.

وقولُهُ: (وَيخرُجونَ عَن أفعالِ الله وَأحكامِهِ حِكَمَها وَمَصالِحَها): جمعُ حِكمة ومصلحة، أي: أن الجبريةَ في مذهبهم هذا حينما نَفَوا أفعالَ العبادِ وسلبوهم القدرةَ والاختيارَ نفوا حكمةَ اللهِ في أمرهِ ونهيهِ وثوابهِ وعقابهِ، فقالوا: إنهُ يثيبُ أو يعاقبُ العبادَ على ما ليسَ مِنْ فعلِهم ويأمرُهم بما لا يقدرونَ عليهِ، فاتهموا اللهَ بالظلمِ والعَبثِ، تَعالى اللهُ عمَّا يَقولونَ علواً كَبيراً.

....

محبةُ الخير وإرادتُهُ الجازمةُ، وكراهيةُ الشر والعزمُ على تركِهِ. وأعمالُ القلبِ تنشأُ عنها أعمالُ الجوارحِ وأقوالُ اللسانِ. ومن ثم صارتْ أقوالُ اللسانِ وأعمالُ الجوارحِ من الإيمانِ.

أقوالُ النَّاسِ في تعريفِ الإيمانِ(١):

١- عندَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ: أنه اعتقادٌ بالقلبِ ونطقٌ باللسانِ وعملٌ بالأركانِ.

٢- عندَ المرجئةِ: أنه اعتقادٌ بالقلبِ ونطقٌ باللسانِ فَقطْ.

٣- عندَ الكراميةِ: أنهُ نطقٌ باللسانِ فَقطْ.

٤- عندَ الجبريةِ أنه الاعترافُ بالقلبِ أو مجردُ المعرفةِ في القلبِ.

٥- عندَ المعتزلةِ: أنه اعتقادُ القلبِ ونطقُ اللسانِ وعملُ الجوارحِ.

والفرقُ بينهم، أي: المُعتزلةُ وبينَ أهلِ السُّنَّةِ: أنَّ مرتكبَ الكبيرةِ يُسلَبُ اسمُ الإيمانِ بالكليةِ ويُخلَّدُ في النَّارِ عندَهم، وعندَ أهلِ السُّنَّةِ لا يُسلبُ الإيمانُ بالكليةِ، بل هو مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ ولا يُخلَّدُ في النَّارِ إذا دخلَها.

---

(١) انظر أقوال أهل السنة في الإيمان، وأقوال من غايرهم من الفرق الضالة في «شرح أصول أهل السنة» للالكائي (٨٨٥)، و«السنة» لعبدالله بن أحمد بن حنبل (٣٠٧)، و«الشريعة» للآجري (١٠٨) وكتاب «الإيمان» لابن تيمية، و«التوسط والاقتصاد» لعلوي سقاف.

....

وكلُّ هذهِ أقوالٌ باطلةٌ والحقُّ ما قالَـهُ أهـلُ السُّـنَّةِ والجماعـةِ؛ لأدلـةٍ كثيرةٍ.

وقولُهُ: (وَأَنَّ الإِيمانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنقُصُ بِالمَعصِيَةِ) أي: ومِنْ أصول أهلِ السُّـنَّةِ والجماعةِ أن الإيمانَ يتفاضلُ بالزيادةِ والنُّقْصَانِ فـتزيدُهُ الطاعـةُ وينقصُ بالمعصيةِ ويدلُّ على ذلـكَ أدلـةٌ كثـيرةٌ منهـا: قولُـهُ تَعَـالى: ﴿إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهِ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِـمْ آيَاتُـهُ زَادَتْهُـمْ إِيمَاناً﴾ [الأنفال: ٢]، وقولُهُ تَعَـالى: ﴿لِيَزْدَادُواْ إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتـح: ٤]، وغيرُ ذلكَ من الأدلةِ.

وقولُهُ: (وَهُم مَعَ ذلِكَ لا يُكَفِّرونَ أَهلَ القِبلَةِ بِمُطلَقِ المَعاصِي وَالكَبائِرِ كَمَا يَفعَلُهُ الخَوارِجُ) أي: وأهلُ السُّـنَّةِ والجماعةِ مع أنهم يَرونَ أنَّ الأعمالَ داخلةٌ في مُسمَّى الإيمانِ وأنه يزيدُ بالطاعةِ وينقصُ بالمعصيةِ، هم مع ذلكَ لا يحكمونَ بالكفرِ علىمَنْ يدَّعي الإسلامَ ويستقبلُ الكعبةَ بمطلـقِ ارتكابـهِ المعاصي التي هي دونَ الشركِ والكُفرِ (كَمَا يَفعَلُهُ الخَـوارِجُ) حيـثُ قـالوا: من فعلَ كَبيرةً فهو في الدُّنيا كافرٌ، وفي الآخـرةِ مخلـدٌ فـي النَّـارِ لا يخـرجُ منهَا.

فأهلُ السُّـنَّةِ يرونَ (أن الأُخوَّةَ الإيمَانيةَ ثابتَةٌ مع المَعَاصي)، فالعـاصي أخٌ لنا في الإيمانِ، واستدلَّ الشيخُ على ذلكَ بقولِهِ تعالى في آيةِ القَصاصِ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَـاعٌ بِـالْمَعْرُوفِ﴾ المعنـى: أنَّ الجـاني إذا عفا عنه المجنيُّ عليه أو وليُّهُ عن القصـاصِ ورَضِيَ بأخذِ المالِ في الدِّيَةِ

....

فعلى مستحقِّ المالِ أن يطلبَه بالمعروفِ من غيرِ عنفٍ وعلى مَنْ عليهِ المالُ أنْ يؤديه إليهِ من غيرِ مماطلةٍ.

ووجهُ الاستدلالِ من الآيةِ: أنه سَمَّى القاتلَ أخاً للمقتولِ مع أنَّ القتلَ كبيرةٌ من كبائرِ الذنوبِ ومع هذا لم تزلْ معهُ الأخوةُ الإيمانيةُ.

واستدلَّ الشيخُ أيضاً بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ الآيتين، ووجهُ الاستدلالِ من الآيتينِ الكَريميتين أنه سمَّاهم مؤمنين مع وجودِ الاقتتالِ والبغي بينهم، وسمَّاهم إخوةً للمؤمنينِ بقوله: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

ومعنى الآيةِ إجمالاً: أنه إذا تقاتلَ فريقانِ من المُسلمينَ فعلى المُسلمينَ أن يَسعَوا في الصُّلحِ بينهم ويَدعوهم إلى حُكمِ اللهِ، فإنْ حصلَ بعدَ ذلك التعدِّي من إحدى الطائفتينِ عَلى الأخرى ولم تَقبلِ الصلحَ كانَ على المُسلمينَ أن يقاتلوا هذه الطائفةَ الباغيةَ حتى ترجعَ إلى أمرِ اللهِ وحكمِهِ، فإنْ رجعتْ تلكَ الطائفةُ عن بغيِها وأجابتِ الدعوةَ إلى كتابِ الله وحكمِهِ، فعلى المسلمينَ أن يَعدلُوا بينَ الطائفتينِ في الحكمِ ويتحرَّوا الصوابَ المطابقَ لحكمِ اللهِ ويأخذوا على يدِ الطائفةِ الظالمةِ حتى تخرجَ من الظلمِ وتؤديَ ما يجبُ عليها للأخرى.

ثم أمرَ اللهُ سبحانهُ المُسلمينَ أن يعدلوا في كُلِّ أمورِهم بعدَ أمرِهم بهذا العدلِ الخاصِّ بالطائفتينِ المُقْتتلتينِ، فقالَ: ﴿وَأَقْسِطُواْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ

....

﴿الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: اعدلوا إنَّ اللهَ يحبُّ العادلينَ، وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مُقَرِّرةٌ لما قبلَها من الأمرِ بالإصلاحِ.

والمعنى: أنهم يرجعونَ إلى أمرٍ واحدٍ هو الإيمانُ فهم إخوةٌ في الدِّينِ، ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ يعني: كلُّ مسلمينِ تخاصما وتقاتلا، وتخصيصُ الاثنينِ بالذكرِ لإثباتِ وجوبِ الإصلاحِ فيما فوقَهما بطريقِ الأولى ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ﴾ في كلِّ أمورِكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بسببِ التَّقوى.

وقولُهُ: (وَلا يَسْلُبونَ الفَاسِقَ المِلِّيَّ الإسلامَ بالكُلِّيةِ ولا يُخلِّدونَه في النَّارِ كما تَقولُ المُعتزِلةُ) أي: ومن أصولِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنهم (لا يَسْلُبونَ) أي: لا ينفونَ عن (الفَاسِقِ)، الفسقُ[1]: هو الخروجُ عن طاعةِ اللهِ، والمُرادُ بالفاسقِ هنا: الذي يرتكبُ بعضَ الكبائرِ؛ كشربِ الخمرِ والزِّنى والسرقةِ مع اعتقادِ حرمةِ ذلك (المِلِّيّ) أي: الذي على ملةِ الإسلامِ ولم يرتكبْ من الذنوبِ ما يوجبُ كفرَه، فأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ لا يسلبونه الإسلامَ بالكليةِ فيحكمونَ عليهِ بالكفرِ، كما تقولُهُ الخوارجُ في الدُّنيا (ولا يُخلِّدونَه في النَّارِ) أي: يحكمونَ عليه بالخلودِ في النَّارِ في الآخرةِ وعدمِ خروجِهِ منهَا إذا دخلَها (كما تَقولُ المُعتزِلةُ) والخوارجُ، فالمعتزلةُ يَرونَ أن الفاسقَ لا يُسمَّى مسلماً ولا كافراً، بل هو عندَهم بالمنزلةِ بينَ المنزلتينِ، هذا حكمُهُ عندَهم في الدُّنيا، وأما حكمُهُ عندَهم في الآخرةِ فهو مخلدٌ في

---

(١) انظر «تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب» لأبي حيان الأندلسي (٢٥٠).

....

النَّارِ، والأدلةُ على بطلانِ هذا المذهبِ كثيرةٌ، وقد مرَّ بعضُها، وسيأتي ذكرُ بقيَّتِها.

ثُمَّ بيَّنَ الشيخُ رحمهُ اللهُ الحكمَ الصحيحَ الذي ينطبقُ على الفاسقِ المِلِّيِّ مؤيداً بأدلتِهِ من الكِتابِ والسُّنَّةِ فقالَ: (بَل الفَاسقُ يَدخلُ في اسمِ الإيمانِ المُطلقِ) أي: مطلقِ الإيمانِ الذي يدخلُ فيهِ الإيمانُ الكاملُ والإيمانُ النَّاقصُ كما في قولِهِ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ فإنَّ مَنْ أعتقَ رقبةً مؤمنةً وإن كانَ المعتقُ فاسقاً فيما يشترطُ فيه إيمانُ الرقبةِ المعتقَةِ -ككفارةِ الظِّهارِ والقتلِ- أجزأهُ ذلكَ العتقُ باتفاقِ العُلماءِ؛ لأنَّ ذلكَ يدخلُ في عُمومِ الآيةِ وإن لم يَكُنِ المُعتقُ من أهلِ الإيمانِ الكَاملِ.

وقولُهُ: (وقَدْ لا يَدخلُ) أي: الفاسقُ الملِّيُّ (في اسمِ الإيمَانِ المُطلَقِ) أي: إذا أُريدَ بالإيمان الإيمانُ المُطلقُ الكاملُ كما في قولِهِ تَعَالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآيةَ؛ لأنَّ المرادَ بالإيمانِ المذكورِ في الآيةِ الكريمةِ الإيمانُ الكاملُ فلا يدخلُ فيهِ الفاسقُ؛ لأنَّ إيمانَهُ ناقصٌ. ولنرجعْ إلى تفسيرِ الآيةِ الكَريمةِ: ﴿إِنَّمَا﴾ أداةُ حصرٍ تُثبتُ الحكمَ للمذكورِ وتنفيهِ عمَّا سِواهُ[1] ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: الإيمانُ الكاملُ ﴿إِذَا ذُكِرَ اللهُ﴾ أي: ذكرَتْ عظمتُهُ وقدرتُهُ وما خُوِّفَ بهِ مَنْ عصاهُ ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافَتْ ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ﴾ أي: قُرِئَت آياتُهُ المنزلةُ أو

(١) انظر تعريف الحصر وأقسامه وطرقه في كتاب «الكليات» للكفوي (٣٨٣).

....

ذكِرتْ آياتُهُ الكونيةُ ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ أي: زادَ إيمانهمُ بسببِ ذلكَ ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يفوضونَ جميعَ أمورِهم إليهِ لا إلى غيرِه.

ثُمَّ ذكرَ الشيخُ دليلاً مِنَ السُّنَّةِ على أنَّ الفاسقَ الملِّيَّ لا يدخلُ في اسمِ الإيمانِ الكاملِ، وهو قولُهُ ﷺ: «لا يزني الزاني حينَ يزني وهو مؤمنٌ...»[1] إلخ، أي: كاملُ الإيمانِ، فالمنفيُّ هنا عن الزاني والسارقِ والشاربِ هو كمالُ الإيمانِ لا جميعُ الإيمانِ، بدليلِ الإجماعِ على توريثِ الزاني والسارقِ وشاربِ الخمرِ. فقد دلَّ الحديثُ على أنَّ هؤلاءِ حينَ فِعلِهم المعصيةَ قد انتفى الإيمانُ الكاملُ عنهم، وقد دلَّتْ النُّصوصُ الكثيرةُ من الكِتابِ والسُّنَّةِ على أنهم غيرُ مرتدينَ بذلك، فعلمَ أن الإيمانَ المنفيَّ في هذا الحديثِ إنما هو كمالُ الإيمانِ الواجبُ.

وقولُهُ: «وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ...» إلخ النُّهبة: بضمِ النُّون هي الشيءُ المنهوبُ، والنَّهبُ: أخذُ المالِ بالغلبةِ والقهرِ «ذَاتَ شَرَفٍ» أي: قدر، وقيلَ: ذاتُ استشرافٍ يستشرفُ النَّاسُ إليها ناظرينَ إليها رافعينَ أبصارَهم.

ثمَّ إنَّ الشيخَ رحمهُ اللهُ ذكرَ النَّتيجةَ للبحثِ السابقِ واستخلصَ الحكمَ بقولِهِ في حقِ الفاسقِ الملِّيِّ: (ونقولُ: هُو مُؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ، أو مُؤمنٌ بإيمانِهِ فَاسقٌ بكبيرتِه) وهذا هو الحكمُ العادلُ؛ جمعاً بين النُّصوصِ التي

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٢٧).

....

نَفـتِ الإيمـانَ عنـهُ كحديـثِ: «لا يزنـي الزانـي حيـنَ يزنـي وهـو مؤمـنٌ» والنُّصـوصِ التـي أثبتـتِ الإيمـانَ لـه، وآيـة القصـاصِ وآيـة حكـمِ البغـاةِ السابقتينِ، وبناءً على ذلك (فلا يُعطَى الاسـم المُطْلَقَ) أي: اسـم الإيمـانِ الكـامل (ولا يُسـلب مُطلـق الإسـم) أي الإيمـانِ النَّـاقصِ. فيحكـمُ عليـهِ بالخروجِ من الإيمانِ، كما تقولُهُ المعتزلةُ والخَوارجُ. واللهُ أعلمُ.

فالإيمانُ المطلقُ: هو الإيمانُ الكـاملُ، ومطلـقُ الإيمـانِ: هـو الإيمـانُ النَّاقصُ.

الواجب نحو
أصحاب رسول الله ﷺ وذكر فضائلهم

ومن أصول أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ سَلامةُ قُلوبهم وَألسِنَتهم لأصحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَما وَصَفَهم اللهُ بهِ فِي قَولهِ تَعَالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحشر: ١٠] وطَاعةُ الرَّسول ﷺ في قَولهِ: «لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ»[١].

الشرح:

أي: من أصولِ عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ (سَلامةُ قُلوبهم) من الغلِّ والحقدِ والبُغضِ، وسلامةُ (ألسِنَتهم) من الطعنِ واللعنِ والسبِّ (لأصحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ) لفضلِهم وسبقِهم واختصاصِهم بصحبةِ النَّبيِّ ﷺ ولما لهم من الفضلِ على جميعِ الأمةِ؛ لأنهم الذينَ تحمَّلوا الشريعةَ عنهُ ﷺ وبلغوها لمن بعدَهم، ولجهادِهم مع الرسولِ ﷺ ومناصرتِهم له.

وغرضُ الشيخِ من عقدِ هذا الفصلِ الردُّ على الرافضةِ والخَوارجِ الذينَ يسبُّونَ الصحابةَ ويبغضونَهم ويجحدونَ فضائلَهم[٢]، وبيانُ براءةِ أهلِ

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١).

(٢) وقد ردَّ عليهم أهل السنة والجماعة قديماً، فعقد البخاري كتاباً في «صحيحه» عن =

....

السُّنَّةِ والجماعةِ من هذا المَذهبِ الخبيثِ، وأنهم مـعَ صحابـةِ نبيِّهـم، كمـا وصفهُمُ اللهُ في قولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِـمْ﴾ أي: بعـدَ المهـاجرينَ والأنصارِ، وهم التابعونَ لهم بإحسانٍ إلى يومِ القيامةِ من عمـومِ المُسـلمينَ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ المـرادُ بـالأخوةِ هنا أخوةُ الدينِ، فهم يستغفرونَ لأنفسِـهم ولمـن تقدَّمهُـم مـنَ المُهـاجرينَ والأنصارِ ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ أي: غشاً وبغضـاً وحسـداً ﴿لِلَّذِيـنَ آمَنُوا﴾ أي: لأهلِ الإيمانِ ويدخلُ في ذلكَ الصحابةُ دخولاً أوليـاً؛ لكونِهـم أشرفَ المؤمنينَ ولكونِ السياقِ فيهم.

قَالَ الإمامُ الشوكانيُّ[1]: فمَنْ لم يستغفرْ للصحابةِ على العُمومِ ويطلبُ رضوانَ اللهِ لهم فقدْ خالفَ ما أمرَ اللهُ بهِ في هذهِ الآيةِ، فإن وجدَ في قلبـهِ غلاً لهم فقدْ أصابهُ نزغٌ من الشيطانِ وحلَّ بهِ نصيبٌ وافرٌ مـن عصيـانِ اللهِ بعداوةِ أوليائِهِ وخَيرِ أمةِ نبيِّهِ ﷺ، وانفتحَ لهُ بابٌ من الخُذلانِ يَفِـدُ بـه علـى نارِ جهنَم إنْ لـم يتـدارَكْ نفسَـهُ بـاللُّجُوءِ إلـى اللهِ سُـبحانه والاسـتغاثةِ بـهِ بأن ينـزعَ عـن قلبهِ ما طرقَهُ مـن الغلِّ لخيرِ القرونِ وأشرفِ هذه الأمةِ، فإنْ

= فضائل الصحابة (٧٠/ ٥) وكذا الإمام مسلم (٨/ ١٤٤)، وغيرهم مـن رواة السـنة وحراس العقيدة، وأما في العصر الحديث فقد انبرى لهم أئمـة الدعـوة مـن أتبـاع الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتلاميذه، ومناصريه من أهل السنة في مؤلفاتٍ كثيرةٍ، منها كتب الشيخ: إحسان إلهي ظهير.

(١) «فتح القدير» (٥/ ١٩٩).

....

جاوزَ ما يجـدُهُ من الغلِّ إلى شتمِ أحـدٍ منهـم فقـد انقـادَ للشيطانِ بزمـامٍ، ووقع في غضبِ اللهِ وسخطِهِ، وهذا الداءُ العُضالُ إنما يُصابُ به من ابتُلـيَ بمُعلِّمٍ من الرافضةِ، أو صاحبٍ من أعـداءِ خيرِ الأمـةِ الذيـن تلاعـبَ بهـمُ الشيطانُ وزيَّنَ لهمُ الأكاذيبَ المُختلقةَ، والأقاصيصَ المفـتراةَ، والخرافـاتِ الموضوعةَ وصرَفَهم عن كتابِ اللهِ الذي لا يأتيهِ الباطلُ من بيـنِ يديـهِ ولا مِنْ خلفِهِ. اهـ.

والشاهدُ من الآيةِ الكريمةِ:

أنَّ فيها فضلَ الصحابةِ؛ لسبقِهم بالإيمانِ، وفضـلَ أهـلِ السُّـنَّةِ الذيـن يتولُّونهـم وذمَّ الذيـن يعـادونَهم، وَفيهَـا مشـروعيةُ الاسـتغفارِ للصحابـةِ والترضِّي عنهم، وفيها سلامةُ قلوبِ أهلِ السُّنَّةِ وألسنتِهم لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، ففي قولِهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ إلخ سـلامةُ الألسـنةِ. وفـي قولِهـم: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ سلامةُ القلوبِ.

وفي الآيةِ تحريمُ سبِّهم وبُغضِهم وأنهُ ليسَ مِـنْ فِعـلِ المُسـلمين، وأنَّ مَنْ فعلَ ذلك لا يستحقُ من الفـيءِ شـيئاً. وقولُـهُ: **(وطَاعـةُ النَّبـيِّ ﷺ فـي قَولِهِ)** أي: أن أهلَ السُّنَّةِ يطيعونَ النَّبيَّ ﷺ فـي سـلامةِ قلوبهـم وألسـنتِهم لأصحابِهِ والكفِّ عن سبِّهم وتنقُّصِهِـم حيـثُ نهـاهم النَّبـيُّ ﷺ عـن ذلـكَ بقولِهِ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي» أي: لا تتنقَّصوا ولا تَشْـتُموا **(أصحـابي)**: جمـعُ صاحب، ويُقالُ لمَنْ صاحَبَ النَّبيَّ ﷺ: صحابيٌّ، وهو مَـنْ لَقِـي النَّبـيَّ ﷺ مؤمناً به وماتَ على ذلكَ.

....

«فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» هذا قَسَمٌ من النَّبيِّ ﷺ يريدُ به تأكيدَ ما بعدَهُ «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً» جملة الشرطِ، و «أُحُدٍ»: جبلٌ معروفٌ في المدينةِ، سُمِّي بذلك؛ لتوحُّدِهِ عن الجبالِ، و(ذهباً): منصوبٌ على التمييز «مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ» المُدُّ: مكيالٌ وهو ربعُ الصاعِ النَّبويِّ «وَلاَ نَصِيفَهُ»، لغةٌ في النِّصْفِ، كما يُقالُ: ثمينٌ بمعنى: الثُّمن.

والمعنى: أن الإنفاقَ الكثيرَ في سَبيلِ اللهِ من غيرِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم لا يعادلُ الإنفاقَ القليلَ مِنَ الصحابةِ وذلك أن الإيمانَ الذي كانَ في قلوبِهم حينَ الإنفاقِ في أولِ الإسلامِ وقلةِ أهلهِ وكثرةِ الصوارفِ عنه وضعفِ الدواعي إليهِ لا يمكنُ أن يحصلَ لأحدٍ مثلَهُ ممَّنْ بعدَهم.

والشاهدُ من الحديثِ:

أنَّ فيهِ تحريمَ سبِّ الصحابةِ[1]، وبيانَ فضلِهم على غيرِهم، وأن العملَ يتفاضلُ بحسبِ نيةِ صاحبِهِ وبحسبِ الوقتِ الذي أدِّي فيهِ. واللهُ أعلمُ. وفي الحديثِ: (أن من أحب الصحابةَ وأثنى عليهم فقد أطاعَ الرسُولَ ﷺ، ومن سبَّهم وأبغضَهم فقد عصى الرسولَ ﷺ).

---

(١) يقول الإمام النَّووي في «شرحه على صحيح مسلم» (٨/ ٣٠٩): (واعلم أن سب الصحابة رضي الله عنهم حرام من فواحش المحرمات سواء من لابس الفتن منهم وغيره؛ لأنهم مجتهدون في تلك الحروب متأولون).

فضل الصحابة
وموقف أهل السنة والجماعة منه وبيان تفاضلهم

ويَقبَلونَ مَا جاءَ بهِ الكِتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ مِنْ فَضائِلهمْ ومَراتِبهمْ. ويُفضِّلونَ مَنْ أنفَقَ مِنْ قَبلِ الفَتحِ -وهُو صُلحِ الحُدَيبيةِ- وقَاتلَ على مَنْ أنفَقَ مِن بَعدُ وقَاتلَ، ويُقدِّمُونَ المُهاجِرينَ عَلى الأنصَارِ. ويُؤمِنُونَ بأنَّ اللهَ قَال لأهْلِ بَدرٍ وكَانُوا ثَلاثَمائةٍ وبضعَةَ عَشرَ: «اعْمَلُوا مَا شِئتُمْ فقَدْ غَفرْتُ لَكُمْ». وبأنَّهُ لا يَدخُل النَّارَ أحدٌ بَايعَ تَحتَ الشَّجرةِ كَما أخبرَ بهِ النَّبيُّ ﷺ، بَل لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنهُم، وَرَضُوا عنهُ، وكَانُوا أكثرَ مِنْ ألفٍ وأربعِمائةٍ. ويَشْهَدونَ بالجنَّةِ لِمنْ شَهد لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ كالعَشرةِ وثَابتِ بنِ قَيسِ بنِ شَمَّاسٍ وغَيرهم مِنَ الصَّحابةِ. ويُقرونَ بمَا تَواتَر بِهِ النَّقْلُ عَنْ أميرِ المُؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طَالبٍ -رَضيَ اللهُ عَنهُ- وغَيرهِ مِن أنَّ خَيرَ هَذهِ الأُمَّة بَعدَ نَبيِّها أبُو بَكرٍ ثُمَّ عُمرُ، ويُثلِّثونَ بعُثمانَ ويُربِّعُونَ بعَليٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنهُم-، كَما دَلَّتْ عَليهِ الآثارُ وكَما أجمعَ الصَّحابةُ عَلى تَقديمِ عُثمانَ فِي البَيعةِ.

مَع أنَّ بَعضَ أهلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدْ اختَلفُوا في عُثمَانَ وعَليٍّ -رَضيَ اللهُ عَنهُما- بعدَ اتِفاقِهِمْ عَلى تَقديمِ أبي بَكرٍ وعُمرَ، أيُّهما أفضلُ؟ فقَدَّمَ قَومٌ عُثمانَ: وسَكتُوا ورَبَّعُوا بعليٍّ، وقدَّم قَومٌ علياً وقَومٌ توَقَّفوا، لَكِن استقَرَّ أمرُ أهْلِ السُّنةِ على تَقديمِ عُثمانَ ثُمَّ عَليٍّ.

الشرح:

بيَّن الشَّيخُ رحمهُ اللهُ في هذا المَقطعِ مِنْ كلامِهِ تفاضُلَ الصَّحابةِ بعدَ أنْ بيَّنَ فيما سبقَ فضْلَهم عموماً وموقفَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ من ذلك. فقولُهُ: (**ويَقبَلونَ**) أي: أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ (**مَا جاءَ بهِ الكِتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ**) أي: إجماعُ المُسلمينَ (**مِنْ فَضائِلِهِمْ ومَراتِبِهِمْ**) وكفى بهذهِ المصادرِ الثلاثةِ شاهداً على فضلِهم.

ثم إنَّهم ليسُوا على درجةٍ واحدةٍ في الفضلِ، بل بحسبِ سَبقِهم إلى الإسلامِ والجهادِ والهجرةِ وبحسبِ ما قاموا به مِنْ أعمالٍ تجاهَ نبيِّهم ودينِهم رضِيَ اللهُ عنهُم؛ ولذلكَ قالَ الشيخُ رحمهُ اللهُ: (**ويُفضِّلونَ مَنْ أنفَقَ مِنْ قَبلِ الفَتحِ -وهُو صُلحُ الحُدَيبيةِ-**)؛ لأنَّ اللهَ سمَّاهُ فتحاً بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾ [الفتح: ١]، وذلك هو المَشهورُ أنَّ المرادَ بالفتحِ صلحُ الحُديبيةِ؛ لأنَّ سورةَ الفتحِ نزلتْ عُقَيبَهُ.

و(**الحُدَيبية**)[١]: بئرٌ قُربَ مكةَ وقعتْ عندَهُ البيعةُ تحتَ شجرةٍ كانَتْ هُناكَ حينمَا صَدَّ المشركونَ رَسولَ اللهِ ﷺ وأصحابَهِ عن دُخولِ مكةَ فبايعوهُ على الموتِ؛ وسُمِّيتْ هذهِ البيعةُ فتحاً؛ لِمَا حَصلَ بسببها من الخيرِ والنَّصرِ للمُسلمينَ. والدليلُ على تفضيلِ هؤلاءِ: قولُهُ تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَـئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وَقَاتَلُواْ﴾ [الحديد: ١٠]، وهؤلاء هم السَّابقونَ الأولونَ مِنَ المُهاجرينَ والأنصارِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ

(١) انظر «مرويات غزوة الحديبية» للدكتور حافظ الحكمي (ص٨).

....

﴿وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قالَ: (**وَيُقدِّمُونَ المُهاجِرينَ عَلى الأنصَارِ**) (**المُهاجِرينَ**): جَمْع مهاجر، والمُراد بهم: الذينَ هَاجروا من مكةَ إلى المَدينةِ، والهجرة: لغةً: التَّرك[1]، وشرعاً: الانتقالُ من بلدِ الشركِ إلى بلدِ الإسلامِ. والأنصارُ، أي: الذينَ ناصروا الرسولَ ﷺ، وهم الأوسُ والخزرجُ سمَّاهم النَّبيُّ ﷺ بهذا الاسمِ.

والدليلُ على تفضيلِ المُهاجرينَ على الأنصارِ: أنَّ اللهَ قدَّمَهم في الذكرِ، كما قَالَ تَعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ﴾، وقَالَ تَعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧]، وقَالَ تعَالى: ﴿لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ الله وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ الله وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٨-٩]، فدلَّتْ هذهِ الآياتُ الكريمةُ عَلى فضلِ المُهاجرينَ والأنصارِ وعلى تقديمِ المُهاجرينَ على الأنصارِ في الفضلِ؛ لتقديمهم في الذكرِ، ولمَا قاموا به مِنْ تركِ بلادِهم وأموالِهم وأولادِهم؛ طلباً للأجرِ، ونصرةً للهِ ولرسولِهِ، وصِدْقُهُم في ذلكَ رضِيَ اللهُ عنهُم.

---

(١) «تحفة الأريب» لأبي حيان الأندلسي (٣٠٦).

....

قالَ: (ويُؤمِنُونَ بأنَّ اللهَ قَال لأهْلِ بَدرٍ وَكانُوا ثَلاثَمائَـةٍ وبِضعَـةَ عَشَـرَ: اعْمَلُوا مَا شِئِتُمْ فَقَدْ غَفرْتُ لَكُمْ) كما جـاءَ فـي «الصحيحيـنِ»[١] فـي قصـةِ حاطبِ بنِ أبي بلتعةَ. وبدرٌ[٢]: قريةٌ مشهورةٌ عَلَـى نحـوِ أربـعِ مراحـلَ مـن المَدينةِ حصلتْ عندَها الوقعةُ التي أعزَّ اللهُ بها الإسلامَ، وسُـمِّيَ يـومُ بـدرٍ يومَ الفُرقانِ.

وقولُهُ: (وَكانُوا ثَلاثَمائةٍ وبِضعَةَ عَشرَ) هكذا وردَ عددُهم في «صحيـح البخاري»[٣] وقولُهُ: (اعْمَلُوا مَا شِئِتُمْ فَقَدْ غَفرْتُ لَكُمْ) قـالَ ابـنُ القيـمِ فـي «الفوائد»[٤]: أشكل على كَثيرٍ من النَّاسِ معناهُ ثم ذكرَ الأقوالَ في ذلكَ، ثـم قالَ: فالذي نظنُّ في ذلك واللهُ أعلمُ أنَّ هــذا خطـابٌ لقـومٍ قـد علـمَ اللهُ سبحانهُ أنهم لا يفارقونَ دينَهم، بل يموتونَ على الإسلامِ وأنهم قد يقارفونَ ما يقارفُهُ غيرُهم من الذنوبِ ولكنْ لا يتركُهم سُـبحانهُ مصريـنَ عليهـا، بـل يُوفِّقُهـم لتوبـةٍ نصـوحٍ واسـتغفارٍ وحسـناتٍ تمحـو أثـرَ ذلـكَ، ويكـونُ تخصيصُهم بهذا دونَ غيرِهم؛ لأنه قد تحقَّقَ ذلكَ فيهم، وأنهم مغفورٌ لهـم، ولا يمنعُ ذلك كـونُ المغفـرةِ حصلـتْ بأسـبابٍ تقـومُ بهـم كمـا لايقتضـي أنْ يُعطِّلوا الفرائـضَ وثوقاً بالمغفرةِ، فلو كانَتْ قد حصلتْ بدونِ الاستمرارِ

---

(١) رواه البخاري (٦٢٥٩) ومسلم (٢٤٩٤).

(٢) انظر «المعجم الجغرافي» لحمد الجاسر (١/ ٢٦٤).

(٣) برقم (٣٩٥٧).

(٤) (١/ ١٦).

....

على القيامِ بالأوامرِ لما احتاجوا بعدَ ذلك إلى صلاةٍ ولا حجٍّ ولا زكـاةٍ ولا جهادٍ وهذا محالٌ. انتهى.

قالَ: (وبأنَّهُ لا يَدخُلِ النَّارَ أحدٌ بَايعَ تَحتَ الشَّجرةِ كَما أخبرَ بــهِ النَّبـيُّ ﷺ، بَل لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنهُم، وَرَضُوا عنهُ، وكَانُوا أكثرَ مِنْ ألفٍ وأربعِمائةٍ) هَذا الكلامُ في شأنِ أهـلِ بيعـةِ الرضـوانِ وهـي البيعـةُ التـي حصلَـتْ فـي الحُديبيةِ حينَ صدَّ المشركونَ رَسولَ اللهِ ﷺ عن دُخولِ مكــةَ -كمـا سـبقَ بيانُه قريباً- وقد ذكرَ لهُم الشيخُ مَزِيَّتَيْنِ:

الأُولى: أنه لا يدخلُ النَّارَ أحدٌ منهــم، ودليـلُ ذلـكَ مـا فـي «صحيـح مُسلمٍ»[1] من حديثِ جابرِ رضـيَ اللهُ عنـهُ، أنَّ النَّبـيَّ ﷺ قـالَ: «لا يدخـلُ النَّار أحدٌ بايعَ تحتَ الشَّجرةِ».

الثَّانية: أنَّ اللهَ قد رَضيَ عنهمْ، وهــذا صَريـحُ القُـرآنِ، كمـا فـي قولِـهِ تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ الله عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتـح: ١٨]، وقولِهِ: (وكَانُوا أكثرَ مِنْ ألفٍ وأربعِمائةٍ) هذا بناءً على الصحيــحِ في عدَدِهم. واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: (ويَشْهَدونَ بالجنَّةِ لِمنْ شَهد لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ كالعَشرةِ وثَابتِ ابـنِ قَيـسِ بـنِ شَـمَّاسٍ وغَـيرهم مِـنَ الصَّحابـةِ) أي: يشـهدُ أهـلُ السُّــنَّةِ والجماعةِ بالجنةِ لمن شهدَ له الرَّسولُ بذلك، أما مَنْ لمْ يشهـدْ لهُ الرَّسُـولُ

---

(١) برقم (٢٤٩٦).

....

ﷺ بالجنةِ فلا يشهدونَ لـه؛ لأنَّ فـي هـذا تقـولاً علـى اللهِ، لكـن يرجـونَ للمُحسنينَ ويخافونَ على المسيئينَ. وهذا أصلٌ منْ أُصولِ العقيدةِ.

وقولُهُ: **(كالعَشَرةِ)** هم: أبو بكرٍ وعُمرُ وعثمانُ وعليٌّ وعبدُالرحمنِ بـنِ عَوفٍ والزُّبيرُ بنُ العَوامِ وسعدُ بن أبي وقاصٍ وسعيدُ بنُ زيدٍ وأبو عُبيدةَ بنُ الجراحِ وطلحةُ بـنُ عُبيـدالله رَضِـيَ اللهُ عنهـم، وقـد صحَّـتِ الأحـاديثُ بالشهادةِ لهؤلاءِ بالجنةِ[1]، وقولُهُ: **(وثَابتِ بنِ قَيسِ بنِ شَمَّاسٍ)** هو خطيـبُ رسولِ اللهِ ﷺ، وبشارتُهُ بالجنةِ ثابتةٌ في «صحيـح البخـاري»[2] عـن النَّبـيِّ ﷺ.

وقولُهُ: **(وغَيرِهم مِنَ الصَّحابةِ)** أي: غير مَنْ ذُكِرَ ممن أخـبرَ النَّبـيُّ ﷺ أنهم في الجنةِ؛ كعكاشةَ بنِ محصنٍ، وعبدِالله بنِ سلامٍ وغيرهما.

قولُهُ: **(ويُقرونَ بمَا تَواتَر بِهِ النَّقْلُ عَنْ أميرِ المُؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طَالبٍ -رَضيَ اللهُ عَنهُ- وغَيرِهِ)** أي: يعترفُ أهلُ السُّـنَّةِ والجماعةِ ويعتقدونَ **(مَـا تَواتَر بِهِ النَّقْلُ)** أي: ما ثبتَ بطريقِ التواترِ[3] -والتواترُ: هو أقوى الأسانيد-

---

(١) انظر كتاب «الصحيح المسند من فضائل الصحابة» لمصطفى بن العدوي، دار ابـن عفان.

(٢) برقم (٤٨٤٦) ورواه مسلم أيضاً برقم (١١٩).

(٣) الحديث المتواتر هو: «ما رواه جمع تحيل العادة تواطؤهم على الكذب عن مثلهم من أول السند إلى منتهاه، على أن لا يختل هذا الجمع فـي أي طبقـة مـن طبقـات السند». انظر «أصول الحديث»، محمد عجاج الخطيب (٣٠١).

....

(عَنْ أميرِ المُؤمنينَ عليٍّ بنِ أبي طَالبٍ -رَضيَ اللهُ عَنهُ- وغَيرِهِ) من الصحابةِ (أنَّ خَيرَ هَذهِ الأمَّة بَعدَ نَبيِّها أبو بَكرٍ ثُمَّ عُمرُ، ويُثلِّثونَ بعُثمانَ) أي: يجعلونهُ الثالثَ في الترتيبِ (ويُربِّعُونَ بعَليٍّ) أي: يجعلونهُ الرابعَ (رَضِيَ اللهُ عَنهُم)، وفي هذهِ الروايةِ المتواترةِ عن عليٍّ ردٌّ على الرافضةِ الذينَ يفضِّلونَ علياً على أبي بكرٍ وعمرَ ويقدمونه عليهما في الخلافةِ فيطعنونَ في خلافةِ الشيخينِ. وهذا البحثُ يتضمَّنُ مسألتينِ.

الأُولى: مسألةُ الخلافةِ، الثَّانية: مسألةُ التفضيلِ. فأما مسألةُ الخلافةِ فقد أجمعَ أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ بما فيهم الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهمْ على أن الخليفةَ بعد رَسولِ اللهِ ﷺ أبو بكرٍ ثم عُمرُ ثمَّ عُثمانُ ثم عليٌّ. وأما مسألةُ التفضيلِ فقدْ أجمعوا علىأن أفضلَ هذهِ الأمةِ بعدَ نبيِّها أبو بكرٍ ثم عمرُ، كما تواترَ بهِ النَّقلُ عن عليٍّ[(١)].

واختلفُوا في عثمانَ وعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما أيُهما أفضلُ؟ وقد ذكرَ الشيخُ هنا في المسألةِ ثلاثةَ أقوالٍ حيثُ يقولُ: (فقدم قومٌ عثمان وسكتوا وربعوا بعلي، وقدم قوم علياً، وقوم توقفوا) هذا حاصلُ الخلافِ في

---

(١) كما روى الإمام البخاري (٣٦٧١) عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أي النَّاس خيرٌ بعد رسولِ الله ﷺ؟ قال: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قال: عمر وخشيت أن يقول عثمان، قلت: ثم أنت؟ قال: قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين)، وانظر «فضائل الصحابة» لأبي عبدالله مصطفى بن العدوي فقد أجاد أفاد، و«السنة» لعبدالله بن أحمد (٥٨٤).

....

المسألةِ: تقديمُ عثمان، تقديمُ علي، التوقُّفُ عن تقديمِ أحدِهما على الآخرِ.

وأشارَ الشيخُ إلى ترجيحِ الرأيِ الأولِ وهو تقديمُ عثمانَ لأمورٍ:

الأمر الأول: أنَّ هذا هو الذي دلَّتْ عليه الآثارُ الواردةُ في مناقبِ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ[1].

الثاني: إجماعُ الصحابةِ على تقديمِ عثمانَ في البيعةِ وما ذاك إلا أنه أفضلُ فترتيبُهم في الفضلِ كترتيبهم في الخلافةِ.

الثالث: أنه استقرَّ أمرُ أهلِ السُّنَّةِ على تقديمِ عثمانَ ثمَّ عليٍّ[2]، كما سبقَ أنهم قدموهُ في البيعةِ، قالَ عبدُالرحمنِ بنُ عوفٍ لعليٍّ رَضيَ اللهُ عنهُ: إني نظرتُ أمرَ النَّاسِ فلم أرَهم يعدلونَ بعثمانَ. قالَ أبو أيوبٍ: مَنْ لم يقدِّم عثمانَ على عليٍّ فقد أزرى بالمهاجرينَ والأنصارِ، فهذا دليلٌ على أنَّ عثمانَ أفضلُ؛ لأنهم قدَّموهُ باختيارِهم بعدَ تشاورِهم، وكَانَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ مِنْ جُملةِ من بايعَهُ، وكانَ يقيمُ الحدودَ بينَ يديهِ.

(١) فقد أخرج البخاري (٣٦٩٧) عن ابن عمر -رضي اللهُ عنهما- قال: (كنا زمن النَّبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً ثم عمر ثم عثمان ثم نترك أصحاب النَّبي ﷺ لا نفاضل بينهم).

(٢) انظر بسط هذه المسألة في «شرح أصول أهل السنة» للالكائي (١٣٦٣) و«السنة» لعبدالله بن أحمد بن حنبل (ص٥٧٤) و«تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة» للدكتور محمد أمحزون (١/ ٣٨٣). «»

حكم تقديم
علي رضي الله عنه على غيره من الخلفاء الأربعة في الخلافة

وإنْ كانتْ هَذهِ المَسألةُ -مَسألةُ عُثمانَ وعليٍّ- ليسَتْ مِن الأُصُول التي يُضَلَّلُ المُخالفُ فيهَا عِندَ جُمهُورِ أهلِ السُّنَّةِ لكنْ التِي يُضلَّلُ فيها مَسألةُ الخِلافةِ، وذلكَ أنَّهمْ يُؤمِنُونَ أنَّ الخَليفةَ بعدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أبو بَكرٍ ثُمَّ عُمرُ ثُمَّ عُثمانُ ثُمَّ عَليٌّ. ومَنْ طَعنَ في خِلافَةِ أحدٍ مِنْ هَؤلاءِ فَهو أضلُّ مِنْ حِمارِ أهلِهِ.

الشرح:

أبدى الشيخُ رحمهُ الله موازنةً بينَ المسألتينِ: مسألةِ تقديمِ عليٍّ على عثمانَ في الفضلِ، ومسألةِ تقديمِ عليٍّ على غيرهِ في الخلافةِ من حيثُ ما يترتبُ على ذلكَ التقديمِ من خطورةٍ.

فبيَّن أن مسألةَ تفضيلِ عليٍّ على عثمانَ لا يُضلَّلُ، أي: لا يُحكَمُ بضلالِ من قالَ بها؛ نظراً لوجودِ الخلافِ فيها بينَ أهلِ السُّنَّةِ، وإن كانَ الراجحُ تفضيلَ عثمانَ رضيَ اللهُ عنه. (**لكنْ التِي يُضلَّلُ فيها مَسألةُ الخِلافةِ**) أي: يُحكَمُ بضلالِ من خالفَ فيها فرأى تقديمَ عليٍّ في الخلافةِ على عثمانَ أو غيرهِ من الخلفاءِ الذينَ سبقوه، أو قدَّمَ علياً على أبي بكرٍ وعُمر في الفضيلةِ.

فأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ يؤمنون بأن الخليفةَ بعدَ رَسولِ الله ﷺ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ؛ لفضلِهِ وسابقتِهِ وتقديمِ النَّبيِّ ﷺ له على جميعِ

....

الصحابةِ وإجماعِ الصحابةِ على بيعتِهِ. ثم الخليفةُ من بعدِ أبي بكرٍ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ؛ لفضلِهِ، وسابقتِهِ، وعهدِ أبي بكرٍ إليه، واتفاقِ الأمةِ عليه بعدَ أبي بكرٍ، ثم الخليفةُ بعدَ عمرَ عثمانُ بنُ عفانَ رضيَ اللهُ عنهُ؛ لتقديمِ أهلِ الشُّورى له واتفاقِ الأمةِ عليه، ثم بعدَ عثمانَ الخليفةُ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ؛ لفضلِهِ، وإجماعِ أهلِ عصرِهِ عليهِ، فهؤلاءِ هُمُ الخلفاءُ الأربعةُ المشارُ إليهم في حديثِ العرباضِ بنِ ساريةٍ رضيَ اللهُ عنه بقولِهِ ﷺ: «عليكم بسنتي وسنةَ الخلفاءِ الراشدين المهديين من بعدي»[1].

ولهذا قالَ الشيخُ: (ومَنْ طَعَنَ في خِلافَةِ أحدٍ مِنْ هَؤلاءِ) يَعني: الأربعة المَذكورين (فَهو أضلُّ مِنْ حِمارِ أهلِهِ)؛ لمخالفتِهِ النَّصَّ والإجماعَ من غيرِ حجةٍ ولا بُرهانٍ، وذلك كالرافضةِ الذين يزعمونَ: أنَّ الخلافةَ بعدَ النَّبيِّ ﷺ لعليِّ بن أبي طالبٍ.

والحاصلُ في مسألةِ تقديمِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ على غيرِهِ من الخلفاءِ الثلاثةِ:

١- من قدَّمهُ في الخلافةِ فهو ضالٌّ بالاتفاق.

٢- من قدَّمهُ في الفضيلةِ على أبي بكرٍ وعمرَ فهو ضالٌّ أيضاً.

٣- ومن قدَّمَهُ على عثمانَ في الفضيلةِ فلا يُضلَّلُ، وإنْ كانَ هذا خلافَ الراجحِ.

---

(١) رواه أحمد (١٧١٤١) وابن ماجه (٤٣) وصححه الألباني.

مكانة
أهل بيت النبي ﷺ عند أهل السنة والجماعة

وَيُحِبُّونَ أهلَ بَيتِ رَسولِ الله ﷺ وَيَتَوَلَّونَهُم ويحفظون فيهم وصيَّةَ رَسُولِ الله حيثُ قَالَ يَومَ غَديرِ خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»[(١)]. وَقَالَ أيضاً للعَباسِ عَمِّه -وقَدْ اشتَكى إليهِ أنَّ بَعضَ قُرَيشٍ يَجفُو بني هَاشِمٍ- فقالَ: «والَّذي نَفْسي بيَدِهِ؛ لا يُؤْمِنُونَ حتَّى يُحِبُّوكُم للهِ؛ ولِقَرَابَتِي»[(٢)] وَقالَ: «إنَّ اللهَ اصْطَفَى بَنِي إسْمَاعِيلَ، وَاصطفَى مِن بَنِي إسماعِيلَ كنانة، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»[(٣)].

الشرح:

بيَّن الشيخُ رحمهُ اللهُ في هذا مكانَةَ أهلِ البيتِ عندَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ وأنَّهم (يُحِبُّونَ أهلَ بَيتِ رَسولِ الله ﷺ)، وأهلُ البيتِ: هُمْ آلُ النَّبيِّ الذينَ حُرِّمَتْ عليهم الصدقةُ، وهم آلُ عليٍّ وآلُ جعفرٍ وآلُ عقيلٍ وآلُ العباس وبنو الحارثِ بنُ عبدِالمُطلبِ. وأزواجُ النَّبيِّ ﷺ وبناتُه من أهلِ بيتِهِ، كما قالَ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) رواه الإمام أحمد (١٧٧٧) والطبراني في «الكبير» (١٢٢٢٨) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٨٢).

(٣) رواه أحمد (١٦٣٩٣) ومسلم (٢٢٧٦).

....

الآيةَ، [الأحزاب: ٣٣].

فأهلُ السُّنَّةِ يحبونَهُم ويحترمونَهُم ويكرمونَهُم؛ لأنَّ ذلك من احترام النَّبيِّ ﷺ وإكرامِهِ، ولأنَّ اللهَ ورسولَهُ قدْ أمرا بذلكَ، قالَ تعالى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]، وجاءتْ نصوصٌ من السُّنَّةِ بذلكَ منها ما ذكرَهُ الشيخُ. وذلكَ إذا كانُوا متَّبعينَ للسُّنَّةِ مُستقيمينَ على الملةِ كَما كانَ عليهِ سَلفُهُم كالعباسِ وبنيهِ وعليٍّ وبنيه، أما مَنْ خالفَ السُّنَّةَ ولم يستقِمْ على الدينِ فإنه لا تجوزُ محبَّتُهُ ولو كانَ مِنْ أهلِ البَيتِ.

وقولُهُ: (وَيَتَوَلَّونَهُم) -أي: يحبونَهم- من الوَلايةِ بفتح الواوِ وهي المحبةُ. وقولُهُ: (ويحفظون فيهم وصيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ) أي: يعلمونَ بها ويطبِّقونَها (حيثُ قَالَ يَومَ غَديرِ خُمٍّ) الغديرُ هنا: هو مجمعُ السيلِ، و(خُمٌّ) قيلَ: اسم رجلٍ: نُسِبَ الغديرُ إليهِ. وقيلَ: هو الغيظةُ، أي: الشّجرُ الملتفُ، نُسِبَ هذا الغديرُ إليها؛ لأنه واقعٌ فيها، وهذا الغديرُ كانَ في طريقِ المدينةِ مرَّ به ﷺ في عودتِهِ من حجَّةِ الوداعِ وخطبَ فيه فكانَ من خطبتِهِ ما ذكرَهُ الشيخُ: «أذكركم اللهَ في أهلِ بيتي» أي: أذكِّرُكم ما أمرَ اللهُ بهِ في حقِّ أهل بيتي من احترامِهم وإكرامِهم والقيامِ بحقِّهم.

(وَقَالَ أيضاً: للعَباسِ عَمِّه) هو العبَّاسُ بنُ عبدِالمطلبِ بنِ هاشمِ بنِ عبدِ منافٍ (وقَدْ اشتَكى إليهِ) أي: أخبرَهُ بما يَكرَه (أنَّ بَعضَ قُريشٍ يَجفُو) الجفاءُ: تركُ البرِّ والصلةِ (فقالَ) أي: النَّبيُّ ﷺ: «والَّذي نَفسي بِيَدِهِ» هذا

....

قَسمٌ منهُ ﷺ «لا يُؤْمِنُونَ» أي: الإيمانَ الكاملَ الواجبَ «حتَّى يُحِبُّوكُم للهِ ولِقَرَابَتِي» أي: لأمرين.

الأول: التقربُ إلى اللهِ بذلكَ؛ لأنهم من أوليائِهِ.

الثاني: لكونِهِم قرابةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وفي ذلكَ إرضاءٌ له وإكرامٌ لـه.

(وَقالَ) النَّبيُّ ﷺ مبيناً فضلَ بني هاشمٍ الذينَ هم قرابتُهُ: «إنَّ اللهَ اصْطَفَى» أي: اختارَ، والصفوةُ: الخيارُ «بَنِي إِسْمَاعِيلَ» بـنِ إبراهيمَ الخليلِ عليهما السلامُ «وَاصطَفَى مِن بَنِي إِسماعِيلَ كنانـةَ» اسمُ قبيلةٍ، أبوهـم كنانـةُ بـنُ خزيمةَ «وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا»، وهم أولادُ مضرِ بـنِ كنانـةَ «وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ» وهُمْ بنو هاشمِ بنِ عبدِ منافٍ «وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»، فهو محمدُ بنُ عبدِاللهِ بنِ عبدِالمُطلبِ بنِ هاشمِ بنِ عبدِ منافِ بنِ قصيٍّ بنِ كلابِ بنِ مرةِ بنِ كعبِ بن لؤيٍّ بنِ غَالبِ بنِ فهرِ بنِ مالكِ بنِ النَّضرِ بنِ كنانةَ بنِ خزيمةَ بنِ مدركةَ بنِ إلياسَ بنِ مضرِ بنِ نزارِ بنِ معدِ بنِ عدنانَ[١].

والشَّاهدُ من الحَديثِ:

أنَّ فيهِ دليلاً على فضلِ العربِ، وأنَّ قريشاً أفضلُ العربِ وأنَّ بني هاشمٍ أفضلُ قريشٍ، وأنَّ الرسولَ ﷺ أفضلُ بني هاشمٍ فهو أفضلُ الخلقِ نفساً وأفضلُهُم نسباً، وفيهِ فضلُ بني هاشمٍ الذين هُم قَرابةُ الرَّسولِ ﷺ.

---

(١) انظر «سيرة ابن هشام» (١/ ١١).

مكانة
أزواج النبي ﷺ عند أهل السنة والجماعة

ويتولَّونَ أزوَاجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أمَّهَاتِ المُؤمِنينَ ويُؤمِنُونَ بأنَّهُنَّ أزْواجُهُ في الآخِرةِ. خُصوصاً خَديجةَ -رَضِيَ اللهُ عَنها- أُمَّ أكْثَرِ أوْلادِهِ وأوَّل مَنْ آمَنَ بِهِ وعَاضَدَهُ عَلى أمْرِهِ وكَانَ لَها مِنهُ المَنزِلةُ العَالِيةُ، وَالصِّدِّيقَةُ بِنتُ الصِّدِّيقِ -رَضيَ اللهُ عَنهَا- التي قَالَ فِيهَا النَّبيُّ ﷺ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»(١).

الشرح:

ذكرَ الشيخُ رحمهُ اللهُ تعالى في هذهِ الجملةِ عقيدةَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ في أزواجِ النَّبيِّ ﷺ فقالَ: (ويتولَّونَ أزوَاجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ) أي: يحبونَهُنَّ ويوقرونَهُنَّ؛ لأنهُنَّ (أمَّهَاتِ المُؤمِنينَ) في الاحترامِ والتوقيرِ وتحريمِ نكاحِهنَّ على الأمةِ. أما بقيةُ الأحكامِ فحُكمُهُنَّ حكمُ الأجنبياتِ منْ حيثُ تحريمِ الخلوةِ بهنَّ والنَّظرِ إليهنَّ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] وقالَ تَعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تؤْذُواْ رَسُولَ الله وَلاَ أَن تَنكِحُواْ أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبداً إِنَّ ذلِكُمْ كَانَ عِندَ الله عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقالَ تَعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فهُنَّ أمهاتُ المؤمنينَ في الاحترامِ والتحريمِ لا في المحرميةِ.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٠) ومسلم (٢٤٤٦).

....

وقد تُوفِّي ﷺ عن تسعٍ وهنَّ: (عائشة وحفصة وزينب بنت جحش وأم سلمة وصفية وميمونة وأم حبيبة وسودة وجويرية)، وأما خديجةُ فقد تزوَّجَها قبلَ النُّبوةِ ولم يتزوجْ عليها حتَّى ماتت، وتزوجَ ﷺ زينبَ بنتَ خزيمةَ الهلاليةَ ولم تلبثْ إلا يسيراً ثم تُوفيت، هؤلاء جملةُ مَنْ دخلَ بهنَّ من النِّساء وهنَّ إحدى عشرةَ رضيَ اللهُ عنهُن. **(ويُؤمِنُونَ)** أي: أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ **(بأنَّهُنَّ أزْواجُهُ في الآخِرةِ)** في هذا شرفٌ لهنَّ وفضيلةٌ جليلةٌ **(خُصوصاً خَديجةَ -رَضِيَ اللهُ عَنهَا-)** فلها من المزايا والفضائل الشيءُ الكَثيرُ، وقد ذكرَ الشيخُ منها:

١- أنها أمُّ أكثرِ أولادِهِ، فكلُّ أولادِهِ منها ما عدا إبراهيمَ فمِنْ ماريةَ القبطيةِ.

٢- أنها أولُ من آمن به -مطلقاً على قول وهو الذي ذَكر الشيخُ هنا- أو هي أولُ من آمنَ به من النِّسَاءِ على القولِ الآخرِ.

٣- هي أولُ من عاضدَهُ وأعانهُ في أولِ أمرهِ وكانتْ نصرتُها له في أعظمِ أوقاتِ الحاجةِ.

٤- أنها كانَ لها منه ﷺ المنزلةُ العاليةُ فكانَ يحبُّها ويذكرُها كثيراً ويثني عليها.

(وَالصِّدِّيقَةُ بِنتُ الصِّدِّيق -رَضيَ اللهُ عَنهَا-) يعني: عائشةَ بنتَ أبي بكرٍ، و**(الصِّدِّيق)**: هو المبالغُ في الصدقِ، وقد لَقَّبَ النَّبيُّ ﷺ أبا بكرٍ

....

بذلك، ولعائشةَ رضيَ اللهُ عنها فضائلُ كثيرةٌ.

منها: أنَّها أحبُّ أزواجِ النَّبيِّ ﷺ إليهِ، وأنه لم يتزوج بِكراً غيرَها، وأنه ﷺ كان ينزلُ عليهِ الوحيُ في لحافِها، وأنَّ اللهَ برَّأها مما رماها به أهلُ الإفكِ، وأنها أفقهُ نسائِه، وكان أكابرُ الصحابةِ إذا أُشكِلَ عليهم الأمرُ استفتوها، وأنَّ الرسولَ ﷺ تُوفِّيَ في بيتِها بينَ سحرِها ونحرِها[١] ودُفِنَ في بيتِها، إلى غير ذلكَ من فضائِلها.

وقد ذكرَ الشيخُ من فضائلِها هنا: (أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ فيهَا: فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ) و«الثَّريدُ»: هو أفضلُ الأطعمةِ؛ لأنه خبزٌ ولحمٌ، والخبزُ من البرِّ، وهو أفضلُ الأقواتِ، واللحمُ أفضلُ الإدامِ، فإذا كانَ اللحمُ سيدَ الإدامِ، والبُرُّ سيِّدَ القوت، ومجموعُهما الثريدُ - كانَ الثريدُ أفضلَ الطعام.

---

(١) رواه البخاري (٨٩٠) ومسلم (٢٤٤٣).

تبرؤ أهل السنة والجماعة
مما يقوله المبتدعة في حق الصحابة وأهل البيت

وَيتبرَّؤونَ مِن طَريقةِ الرَّوَافضِ الَّذينَ يُبْغِضُونَ الصَّحابَةَ ويَسبُّونَهم، ومن طَريقةِ النَّواصِبِ الَّذينَ يُؤذُونَ أهْلَ البَيتِ بقولٍ أوْ عَملٍ. ويُمْسِكُونَ عمَّا شَجرَ بَينَ الصَّحابَةِ، ويَقُولُونَ: إنَّ هَذهِ الآثارَ المَرْوِيَّةَ في مَسَاويهم مِنهَا مَا هُو كَذِبٌ، وَمِنها مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ ونُقِصَ وغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ والصَّحيحُ مِنهُ هُم فيهِ مَعذُورونَ: إمَّا مُجْتَهِدونَ مُصيبونَ وإمَّا مُجْتَهِدونَ مُخْطِئُونَ.

وهُم مَع ذَلكَ لا يَعتَقِدُونَ أنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحابةِ مَعصُومٌ عَن كَبائرِ الإثْمِ وصَغائِره، بَلْ تَجُوزُ عَلَيْهِم الذُّنُوب فِي الجُملةِ، وَلَهُم مِنَ السَّوابِق والفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرةَ مَا يَصدُرُ مِنهُمْ -إنْ صَدرَ- حتَّى أنَّهمْ يُغفَرُ لَهُم مِنَ السَّيئَاتِ مَا لا يُغْفَر لِمنْ بَعْدَهم لأنَّ لَهُمْ مِنَ الحَسَناتِ التِي تَمْحُو السَّيئَاتِ مَا لَيسَ لِمنْ بَعدَهُم.

وَقدْ ثَبتَ بِقَولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهمْ خَيرُ القُرون وَأنَّ المُدَّ مِنْ أحَدِهم إذا تَصَدَّقَ بهِ كَانَ أفْضلَ مِن جَبلِ أُحُدٍ ذَهباً مِمَّن بَعدَهم.

ثُمَّ إذا كَانَ قَدْ صَدرَ مِنْ أحَدِهِم ذَنبٌ فَيكُونُ قَد تَابَ مِنهُ، أوْ أتَى بحَسنَاتٍ تَمحُوهُ، أوْ غُفِرَ لَهُ بفضْلِ سَابقَتِهِ، أوْ بشَفاعَةِ مُحمَّدٍ ﷺ الَّذي هُمْ أحَقُّ النَّاسِ بشَفاعَتِهِ، أوْ ابتُلِي بِبَلاءٍ فِي الدُّنيا كُفِّرَ بهِ عَنهُ.

فَإذا كَانَ هَذا فِي الذُّنُوبِ المُحَقَّقةِ فَكيفَ الأمُورُ الَّتي كَانُوا فِيهَا مُجتَهِدِينَ: إنْ أصَابُوا فَلَهُم أجْرَانِ وَإنْ أخطَؤوا فَلهُم أجرٌ وَاحِدٌ

وَالخَطأُ مَغْفُــورٌ.

ثُمَّ القَدر الَّذي يُنْكَر مِن فِعلِهم قَليلٌ نَزرٌ مَغْمورٌ فِي جَنْــب فَضَـائِلِ القَومِ ومَحَاسِنِهم، مِنَ الإيمــانِ بـاللهِ، ورَسُـولهِ، والجهـادِ فِـي سَـبيلهِ، والهِجرةِ، والنُّصرةِ، والعِلمِ النَّافِعِ، وَالعَملِ الصَّالِحِ.

ومَن نَظرَ فِي سِيرةِ القَومِ بِعلْمٍ وبَصيرةٍ، ومَا مَنَّ اللهُ عَليهم بِـهِ مِـنَ الفَضائِلِ، عَلِمَ يَقيناً أنهمْ خَيرُ الخَلْــقِ بَعـدَ الأنْبِيَـاء، لا كَـانَ وَلا يَكُـونُ مِثْلُهم، وأنَّهمْ الصَّفْوَةُ مِن قُرونِ هَذهِ الأُمَّةِ التي هِيَ خَيرُ الأُمَمِ وَأكرَمُهـا عَلى اللهِ تَعَالى.

الشرح:

بيَّنَ الشيخُ رحمهُ اللهُ فِي هذا:

أولاً: موقفَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ مِـنَ الصحابـةِ وأهـلِ البيـتِ، وأنـهُ موقفُ الاعتدالِ والوسطِ بينَ الإفراطِ والتفريطِ، والغلــوِّ والجفـاء، يتولَّـونَ جميعَ المؤمنينَ لا سيما السابقينَ الأولينَ من المهاجرينَ والأنصارَ والذيـنَ اتبعوهم بإحسانٍ، ويتولَّونَ أهــلَ البيـتِ. يعرفـونَ قـدرَ الصحابـةِ وفضلَهـم ومناقبَهم، ويرعَونَ حقوقَ أهلِ البيتِ التي شرَعها اللهُ لهم.

(وَيتبرَّؤونَ مِن طَريقَــةِ الرَّوَافـضِ) الذيـنَ يسـبونَ الصحابـةَ ويطعنـونَ فيهم. ويغلونَ في حقِّ علـيِّ بـنِ أبـي طـالبٍ وأهـلِ البيـتِ. (ومـنْ طَريقـةِ النَّواصِبِ) الذينَ ينصبونَ العداوةَ لأهلِ البيتِ ويكفِّرونَهم ويطعنـونَ فيهـم، وقـد سبـقَ بيانُ مذهـبِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعـةِ في الصحابـةِ وأهلِ البيـتِ،

....

ولكنَّ الغرضَ من ذكرِهِ هنا مقارنتهُ بالمذاهبِ المنحرفةِ والمخالفةِ لهُ.

ثانياً: بيَّنَ الشيخُ رحمهُ اللهُ موقفَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ من الاختلافِ الذي وقعَ بينَ الصحابةِ في وقتِ الفتنةِ والحروبِ التي حصلَتْ بينهم، وموقفَهم مما ينسبُ إلى الصحابةِ من مساوئَ ومثالبَ اتخذها أعداءُ اللهِ سبباً للوقيعةِ فيهم والنَّيلِ منهم، كما حصلَ من بعضِ المتأخرينَ والكُتابِ العصريينَ الذين جعلوا أنفسَهم حكماً بينَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ فصوَّبوا وخطَّؤوا بلا دليلٍ، بل باتباعِ الهوى وتقليدِ المغرضين الذين يحاولونَ الدسَّ على المُسلمينَ بتشكيكِهم بتاريخِهم المجيدِ، وسلفِهم الصالحِ، الذين همْ خيرُ القُرونِ؛ لينفذوا من ذلكَ إلى الطعنِ في الإسلامِ، وتفريقِ كلمةِ المسلمينَ.

وما أحسنَ ما ذكرَهُ الشيخُ هُنا من تجليةِ الحقِّ وإيضاحِ الحقيقةِ، فقد ذكَرَ أنَّ موقفَ أهلِ السُّنَّةِ مما نُسِبَ إلى الصحابةِ وما شجرَ بينهم -أي: تنازعوا فيه- يتلخصُ في أمرينِ:

الأمر الأول: أنهم (**يُمْسِكُونَ عمَّا شَجرَ بَينَ الصَّحابَةِ**) أي: يكفونَ عن البحثِ فيه ولا يخوضونَ فيه؛ لما في الخوضِ في ذلكَ من توليدِ الإحنِ والحقدِ على أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، وذلكَ من أعظمِ الذنوبِ، فطريقُ السلامةِ هو السكوتُ عن ذلكَ، وعدمُ التحدثِ بهِ.

الأمر الثاني: الاعتذارُ عنْ الآثارِ المرويةِ في مساويهم؛ لأنَّ في ذلكَ

....

دفاعاً عنهم، ورداً لكيدِ أعدائِهم، وقد ذكرَ أنَّ جملــةَ الاعتــذاراتِ تتلخــصُ فيما يلي:

١- (هَذهِ الآثارِ المَرْوِيَّةِ في مَسَاوِيهم مِنهَــا مَــا هُــو كَــذِبٌ) قــد افــتراهُ أعداؤهم؛ ليشوِّهوا سمعتَهم كما تفعلهُ الرافضــةُ قبَّحهــمُ اللهُ، والكــذبُ لا يلتفتُ إليه.

٢- هذه المساوئُ المرويةُ (مِنها مَــا قَــدْ زِيــدَ فِيــهِ ونُقِــصَ وغُــيِّرَ عَــنْ وَجْهِهِ) ودخلَهُ الكذبُ فهــو محــرفٌ لا يعتمــدُ عليــهِ؛ لأنَّ فضــلَ الصحابــةِ معلومٌ وعدالتَهُم متيقنةٌ، فلا يتركُ المعلومُ المتيقــنُ لأمــرٍ محــرفٍ مشــكوكٍ فيه.

٣- (والصَّحيحُ مِنهُ) أي: من هذهِ الآثارِ المرويةِ (هُم فيــهِ مَعــذُورونَ: إمَّا مُجْتَهدونَ مُصيبونَ وإمَّا مُجْتَهدونَ مُخْطِئُونَ) فهو مــن مــواردِ الاجتهــاد التي؛ إنْ أصابَ المجتهدُ فيها فله أجران، وإن أخطأ فلهُ أجرٌ واحدٌ؛ لما في «الصَّحيحينِ»[1]، عن أبي هريرةَ وعمرو بن العــاصِ رضــيَ اللهُ عنهُمــا: أن رَسولَ اللهِ ﷺ قال: **«إذا اجتهدَ الحاكمُ فأصــاب فلــهُ أجــران، وإن اجتهــدَ وأخطأ فله أجر واحد»**.

٤- أنهم بشرٌ يجوزُ على أفرادِهم مــا يجــوزُ علــى البشــرِ مــن الخطــأ، فأهــلُ السُّــنَّــةِ: (لا يَعتَقِدُونَ أنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحابــةِ مَعصُومٌ عَــن كَبَائــرِ

(١) رواه البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦).

....

الإثْمِ وصَغائِره، بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِم الذُّنُوب فِي الجُملَةِ) لكنْ ما يقعُ منهم من ذلكَ فلهُ مكفراتٌ عديدةٌ منها:

أ - أن (لَهُم مِنَ السَّوابِقِ والفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرةَ مَا يَصدُر مِنهُمْ إنْ صَدرَ) فما يقعُ من أحدِهم يُغتَفرُ بجانبِ مالهُ من الحسناتِ العظيمةِ، كما في قصةِ حاطبٍ لما وقعَ منه ما وقعَ في غزوةِ الفتحِ غُفِرَ لهُ بشهودِهِ وقعةَ بدرٍ (حتَّى إنَّهمْ يُغفرُ لَهُم مِنَ السَّيئَاتِ مَا لا يُغْفَر لِمنْ بَعْدَهم لأنَّ لَهُمْ مِنَ الحَسَناتِ التِي تَمْحُو السَّيئَاتِ مَا لَيسَ لِمنْ بَعدَهُم)، وقد قالَ اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

ب - أنهم تُضاعَفُ لهم الحسناتُ أكثرَ من غيرهم ولا يساويهم أحدٌ في الفضلِ (وَقدْ ثبتَ بِقَولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهمْ خَيرُ القُرونِ وَأنَّ المُدَّ مِنْ أحَدِهِم إذا تَصدَّقَ بِهِ كَانَ أفْضلَ مِن جَبلِ أُحُدٍ ذَهباً مِمَّن بَعدَهم) أخرجَهُ الشيخانِ[1] وغيرُهما أحاديثَ عن أبي هريرةَ وابنِ مسعودٍ وعمرانَ بنِ حُصينٍ: أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال: «خيرُ القرونِ قرني، ثم الذين يلونَهم» الحديثَ، و«القرون»: جَمع قَرن، والقرنُ أهلُ زمانٍ واحدٍ متقاربٍ اشتركوا في أمرٍ من الأمور المقصودةِ، ويُطلقُ القرنُ على المُدةِ من الزمانِ.

ج - كثرةُ مكفراتِ الذنوبِ لديهم فإنهم يتوفرُ لهم من المكفراتِ ما لم يتوفرْ لغيرهم (فإذا كَانَ قَدْ صَدرَ مِنْ أحَدِهِم ذَنبٌ فَيَكُونُ قَد تَابَ مِنهُ،

(١) رواه البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٣) بلفظ: «خير الناس قرني...».

....

دفاعاً عنهم، ورداً لكيدِ أعدائِهم، وقد ذكرَ أنَّ جملـةَ الاعتـذاراتِ تتلخـصُ فيما يلي:

١- (هَذهِ الآثار المَرْوِيَّةِ في مَسَاويهم مِنهَـا مَـا هُـو كَـذِبٌ) قـد افـتراهُ أعداؤهم؛ ليشوِّهوا سمعتَهم كما تفعلهُ الرافضـــةُ قبَّحهـمُ اللهُ، والكـذبُ لا يلتفتُ إليه.

٢- هذه المساوئُ المروية (مِنها مَـا قَـدْ زِيـدَ فِيـهِ ونُقِـصَ وغُـيِّرَ عَـنْ وَجْهِهِ) ودخلَهُ الكذبُ فهـو محـرفٌ لا يعتمـدُ عليـهِ؛ لأنَّ فضـلَ الصحابـةِ معلومٌ وعدالتَهُم متيقنةٌ، فلا يتركُ المعلومُ المتيقـنُ لأمـرٍ محـرفٍ مشـكوكٍ فيه.

٣- (والصَّحيحُ مِنهُ) أي: من هذهِ الآثارِ المرويةِ (هُم فيــهِ مَعـذُورونَ: إمَّا مُجتَهِدونَ مُصيبونَ وإمَّا مُجْتَهِدونَ مُخْطِئُونَ) فهو مــن مـواردِ الاجتهـاد التي؛ إنْ أصابَ المجتهدُ فيها فله أجرانِ، وإن أخطأ فلهُ أجرٌ واحدٌ؛ لما في «الصَّحيحينِ»[١]، عن أبي هريرةَ وعمرو بن العـاصِ رضـيَ اللهُ عنهُمـا: أن رَسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إذا اجتهدَ الحاكمُ فأصــاب فلـهُ أجـرانِ، وإن اجتهـدَ وأخطأ فله أجر واحد**».

٤- أنهم بشرٌ يجوزُ على أفرادِهم مـا يجـوزُ علـى البشـرِ مـن الخطـأ، فأهـلُ السُّـنَّـةِ: (لا يَعتَقِدُونَ أنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحابـةِ مَعصُومٌ عَـن كَبائـرِ

---

(١) رواه البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦).

....

الإثْمِ وصَغائِره، بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِم الذُّنُوب فِي الجُملةِ) لكنْ ما يقعُ منهم من ذلكَ فلهُ مكفراتٌ عديدةٌ منها:

أ - أن (لَهُم مِنَ السَّوابِقِ والفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرةَ مَا يَصدُر مِنهُمْ إنْ صَدَرَ) فما يقعُ من أحدِهم يُغتَفرُ بجانبِ مالهُ من الحسناتِ العظيمةِ، كما في قصةِ حاطبٍ لما وقعَ منه ما وقعَ في غزوةِ الفتحِ غُفِرَ لهُ بشهودِهِ وقعةَ بدرٍ (حتَّى إنَّهمْ يُغفرُ لَهُم مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لا يُغْفَر لِمنْ بَعْدَهم لأنَّ لَهُمْ مِنَ الحَسَناتِ التِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيسَ لِمنْ بَعدَهُم)، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

ب - أنهم تُضاعَفُ لهم الحسناتُ أكثرَ من غيرهم ولا يساويهم أحدٌ في الفضلِ (وَقدْ ثَبتَ بِقَولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهمْ خيرُ القُرونِ وَأنَّ المُدَّ مِنْ أحَدِهم إذا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أفْضلَ مِن جَبلِ أُحُدٍ ذَهباً مِمَّن بَعدَهم) أخرجَهُ الشيخان[1] وغيرُهما أحاديثَ عن أبي هريرةَ وابنِ مسعودٍ وعمرانَ بنِ حُصينٍ: أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال: «خيرُ القرونِ قرني، ثم الذين يلونَهم» الحديثَ، و«القرونُ»: جَمع قَرن، والقرنُ أهلُ زمانٍ واحدٍ متقاربٍ اشتركوا في أمرٍ من الأمورِ المقصودةِ، ويُطلقُ القرنُ على المُدةِ من الزمانِ.

ج - كثرةُ مكفراتِ الذنوبِ لديهم فإنهم يتوفرُ لهم من المكفراتِ ما لم يتوفرْ لغيرهم (فإذا كَانَ قَدْ صَدرَ مِنْ أحَدِهِم ذَنبٌ فَيَكُونُ قَد تَابَ مِنهُ،

---

(١) رواه البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٣) بلفظ: «خير الناس قرني...».

....

أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمحُوهُ، أَوْ غُفِرَ لَهُ بِفضْلِ سَابِقَتِهِ) أي: الأعمالُ الصالحةُ التي فَعَلَهَا قبلَه (أو بشفاعة محمد ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه) أي: امتُحِنَ وأُصيبَ بمصيبةٍ مُحِيَ عنهُ ذلكَ الذنبُ بسببها، كما في الصحيحِ، أن رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «ما يُصيبُ المُؤمنُ من وصبٍ ولا نصبٍ ولا غمٍ ولا همٍ ولا حزنٍ، حتى الشوكةَ يشاكها إلا كفَّرَ الله بها من خطاياه» متفقٌ عليهِ[1]، والصحابةُ أولى النَّاسِ بذلكَ.

قالَ: (فإذا كان هذا في الذنوب المحققة) أي: الواقعةُ منهم فعلاً وأنَّ لديهم رصيداً من الأعمالِ الصالحةِ التي تكفِّرُها (فَكيفَ بالأُمُورِ الَّتي كَانُوا فِيهَا مُجتَهدِينَ؟!) الاجتهادُ: هو بذلُ الطاقةِ في معرفةِ الحكمِ الشرعيِّ (إنْ أصَابُوا فَلَهُم أجْرَانِ وَإنْ أخْطَؤوا فَلهُم أجرٌ وَاحِدٌ وَالخَطأُ مَغْفُورٌ) كما سبقَ بيانُ دليلِ ذَلكَ قريباً[2]، وإذاً فما يصدرُ من الصحابيِّ من خطأ على قلَّتِهِ هو بينَ أمرينِ:

الأول: أن يكونَ صدرَ عن اجتهاد وهو فيه مأجورٌ وخطؤُهُ مغفورٌ.

والثاني: أن يكونَ صدرَ عن غيرِ اجتهادٍ وعندَهُ من الأعمالِ والفضائلِ والسوابقِ الخيِّرةِ ما يكفِّرُهُ ويمحوهُ.

---

(١) رواه البخاري (٥٦٤١) ومسلم (٢٥٧٣).

(٢) (ص٢٥٨).

....

وقولُهُ: (ثُمَّ القَدر الَّذي يُنْكَر مِن فِعلِ بَعضِهم) إلخ، هو كالتلخيصِ لما سبقَ وبيانُ فضائلِ الصحابةِ إجمالاً وهي:

١- الإيمانُ باللهِ ورسولِهِ وهو أفضلُ الأعمال.

٢- الجهادُ في سبيلِ اللهِ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ وهو ذروةُ سنامِ الإسلامِ.

٣- الهجرةُ في سَبيلِ اللهِ وهي من أفضلِ الأعمال.

٤- النُّصرةُ لدينِ اللهِ قالَ تَعالى فيهم: ﴿وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

٥- العلمُ النَّافعُ والعملُ الصالحُ.

٦- أنهم خيرُ الخلقِ بعدَ الأنبياء، فأمةُ محمَّدٍ ﷺ خيرُ الأُممِ، كما قالَ تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وخيرُ هذه الأُمةِ صحابةُ رَسولِ اللهِ ﷺ؛ لقولِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم»(١) الحديث.

٧- أنهم الصفوةُ مِنْ قرونِ هذهِ الأمةِ التي هي خيرُ الأممِ وأكرَمُها على اللهِ، كما في الحديثِ الذي رواهُ الإمامُ أحمدُ: (أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «أنتم توفون سبعين أمةً أنتم خيرُها وأكرمُها على الله سبحانه»)، ورواهُ الترمذيُّ وابنُ ماجةَ والحاكمُ في «مستدركِهِ»(٢).

---

(١) تقدم قريباً (ص٢٥٩).

(٢) رواه الترمذي (٣٠٠١) وابن حبان (٤٢٨٨) والحاكم في «مستدركه» (٤/ ٩٤) وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

مذهب
أهل السنة والجماعة في كرامات الأولياء

ومِن أُصُولِ أهلِ السُّنَّةِ التَّصديقُ بِكَرامَـاتِ الأَوْلِيَـاءِ، ومَـا يُجـري اللهُ عَلى أَيْدِيهم مِن خَوارِقِ العَادَاتِ. فِي أَنْواعِ العُلُـومِ والمُكَاشَـفاتِ، وَأَنواعِ القُدرَةِ وَالتَّأثِيراتِ وَالمَأثُورِ عَن سَالِفِ الأُمَمِ في سُـورةِ الكَهْـفِ وغَيرِها، وعَن صَدرِ هَذهِ الأُمةِ مِنَ الصَّحابةِ وَالتَّابعينَ وسَائِرِ فِرقِ الأُمَّةِ، وَهي مَوجُودةٌ فيهَا إِلى يَومِ القِيَامةِ.

الشرح:

قولُهُ: (ومِن أُصُولِ أهلِ السُّنَّةِ) أي: مـن أصـولِ عقيدتِهـم (التَّصديـقُ بكَرامَاتِ الأَوْلِيَاءِ) الكراماتُ: جمـع كرامـةَ وهـي: (ومَـا يُجـري اللهُ عَلـى أَيْدِيهم مِن خَوارِقِ العَادَاتِ) فالكرامةُ[1]: أمرٌ خـارقٌ للعـادةِ. أي: لمـألوفِ الآدميين. والأولياءُ: جمع ولي: وهو المُؤمنُ المُتَّقي، كما قالَ تعـالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، سُمِّي ولياً اشتقاقاً من الـولاءِ، وهـو المحبـةُ والقـربُ، فوليُّ اللهِ: مَنْ والى اللهَ بموافقتِهِ في محبوباتِه والتقربِ إليهِ بمرضاتِهِ.

وكرامـاتُ الأوليـاءِ حـقٌّ، وقـد دلَّ عليهـا الكتـابُ والسُّـنَّةُ والآثـارُ المتواترةُ عن الصحابة والتابعينَ.

(١) انظر «شرح العقيدة الطحاوية» (٤٩٤).

....

والنَّاسُ في كراماتِ الأولياءِ على ثلاثةِ أصنافٍ:

الصِّنْف الأوَّل: مَن ينفيها مِنَ المبتدعةِ، كالمعتزلةِ والجهميةِ وبعضِ الأشاعرةِ.

وشُبْهتُهُم: أنَّ الخوارقَ لو جازَ ظهورُها على أيدي الأولياءِ لالتبسَ النَّبيُّ بغيرِهِ، إذ الفرقُ بينَ النَّبيِّ وغيره هو المعجزةُ التي هي خرقُ العادةِ.

الصِّنْف الثاني: مَنْ يغلو في إثباتِ الكرامةِ من أصحابِ الطرقِ الصوفيةِ والقبوريينَ الذين يُدجِّلونَ على النَّاسِ، ويأتونَ بخوارقَ شيطانيةٍ؛ كدخول النَّارِ وضربِ أنفُسِهم بالسِّلاحِ وإمساكِ الثعابينِ وغيرِ ذلكَ مما يدعونهُ لأصحابِ القبورِ من التصرفاتِ التي يُسمُّونها كراماتٍ.

الصِّنْف الثالث: الذينَ ذكرَهُمُ الشيخُ هنا، وهُمْ أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ، فيؤمنونَ بكراماتِ الأولياءِ ويثبتونها على مُقتضى ما جاءَ في الكتابِ والسُّنَّةِ، ويردونَ على مَنْ نفاها بحجَّةِ منعِ الاشتباهِ بين النَّبيِّ وغيرِه: بأنَّ هناكَ فوارقَ عظيمةً بين الأنبياءِ وغيرهم غيرَ خوارقِ العاداتِ. وأنّ الوليَّ لا يدَّعي النُّبوةَ ولو ادَّعاها لخرجَ عن الوَلايةِ وصارَ مُدَّعياً كذاباً لا ولياً، ومِن سُنَّةِ اللهِ أن يفضحَ الكاذبَ، كما حصلَ لمسيلمةَ الكذابِ وغيره. ويردونَ على مَن غلا في إثباتِها فادَّعاها للمشعوذينَ والدجالينَ بأنَّ هؤلاء ليسوا أولياءَ الله، وإنما هم أولياءُ للشيطانِ، وما يجري عليهم إما كذبٌ وتدجيلٌ، أو فتنةٌ لهم ولغيرِهم واستدراجٌ. واللهُ أعلمُ، ولشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ في

....

هذا الموضوعِ كتابٌ جَليلٌ اسـمُهُ: «الفرقـانُ بيـنَ أوليـاءِ الرحمـنِ وأوليـاءِ الشيطانِ».

وفي قولِهِ: (فِي أَنْواعِ العُلومِ والمُكَاشَفات، وَأنواعِ القُدرَةِ وَالتَّـأثِيرات) إشارة ٌإلى أنَّ الكرامةَ منها ما يكونُ من بـابِ العلـمِ والكشـفِ بـأنْ يسـمعَ العبدُ ما لا يسمعُهُ غيرُه أو يرى ما لا يراهُ غيرُهُ يقظةً أو مناماً، أو يعلمُ ما لا يعلمُهُ غيرُهُ، ومنها ما هو من بابِ القدرةِ والتأثيرِ.

مثالُ النَّوعِ الأولِ: قولُ عمر: يا ساريةُ الجبلَ وهـو بالمدينـةِ، وسـاريةُ في المشرقِ[1]. وإخبارُ أبي بكرٍ بأنَّ ببطنِ زوجتِهِ أنثـى، وإخبـارُ عمـرَ بمـن يخرجُ من ولدِهِ فيكونُ عادلاً، وقصةُ صاحبِ موسى وعلمُهُ بحالِ الغُلامِ.

ومثالُ النَّوعِ الثاني: قصةُ الذي علم من الكتابِ وإتيانه بعـرشِ بلقيـسَ إلى سليمانَ عليهِ السلامُ، وقصةُ أهلِ الكهفُ، وقصةُ مريمَ، وقصةُ خالدِ بـنِ الوليدِ لمَّا شَربَ السمَّ ولم يحصلْ له منهُ ضررٌ.

وقولُهُ: (وَالمَأثُورِ عَن سَالِفِ الأُمَمِ في سُورةِ الكَهْـفِ وغَيرِهـا، وعَـن صَدرِ هَذِهِ الأُمةِ مِنَ الصَّحابةِ وَالتَّابعينَ وسَائِرِ فِرقِ الأُمَّة) يشيرُ بذلـكَ إلـى الكرامـاتِ التـي وقعـتْ وذُكـرت فـي القـرآنِ الكَريـمِ وغـيرِهِ مـن النَّقـولِ الصحيحةِ، فمَّما ذكرَهُ اللهُ في القـرآنِ الكريمِ عن سالفِ الأُممِ ما ذكرَهُ اللهُ

---

(١) صحَّ هذا الخبر عن عمر رضي الله عنه، فقد رواه البيهقي في «الاعتقـاد والهدايـة» (٢٠٣) وقد توسع الألباني في تخريجه في «السلسلة الصحيحة» برقم (١١١٠).

....

عن حملِ مريمَ بلا زوجٍ، وما ذكرَ في سورةِ الكهف من قصةِ أصحابِ الكهفِ، وقصةِ صاحب موسى، وقصةِ ذي القرنين.

وكالمأثورِ -أي: المنقولِ بالسندِ الصحيحِ عنْ (صَدرِ هَذهِ الأمةِ) أي: أوَّلها من الصحابةِ والتابعينَ كرؤيةِ عمرَ لجيشِ ساريةَ وهو على منبرِ المدينةِ وجيشُ ساريةَ بنهاوندَ بالمشرقِ وندائِهِ له: يا ساريةَ الجبلَ، فسمعهُ ساريةَ وانتفعَ بهذا التوجيه وسلمَ من كيدِ العدوِّ.

وقولُهُ: (وَهي مَوجُودةٌ فيهَا إلى يَومِ القِيَامةِ) أي: لا تزالُ الكراماتُ موجودةً في هذه الأمةِ إلى يومِ القيامةِ ما وُجِدتْ فيهم الولايةُ بشروطِها، واللهُ أعلمُ.

فصل
في صفات أهل السنة والجماعة ولم سموا بذلك

ثُمَّ مِن طَرِيقَةِ أهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ اتِّباعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَاطِناً وظَاهِراً واتِّباعُ سَبيلِ السَّابِقينَ الأوَّلينَ مِنَ المُهَاجرينَ وَالأَنْصَارِ واتِّباعُ وصيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيثُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِن بَعدِي، تَمَسَّكُوا بهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»(١). ويَعلَمُونَ أنَّ أصْدَقَ الكَلامِ كَلامُ اللهِ وخَيرَ الهَدْيِ هَدى مُحمَّدٍ ﷺ ويُؤثِرُونَ كَلامَ اللهِ عَلى غَيرِهِ مِنْ كَلامِ أصْنافِ النَّاسِ، ويُقَدِّمونَ هَدي مُحَمَّد ﷺ عَلى هَدي كُلِّ أحدٍ، وَلِهذَا سَمُّوا أهْلَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وسُمُّوا أهلَ الجَماعةِ؛ لأنَّ الجَماعةَ هيَ الاجْتِماعُ وضِدُّها الفُرقةُ، وإنْ كَانَ لَفظُ الجَماعةِ قَد صَارَ اسماً لنَفسِ القَومِ المُجتَمِعينَ. وَالإجمَاعُ هُو الأصلُ الثَّالثُ الَّذي يُعتَمدُ عَليهِ فِي العِلمِ وَالدِّينِ، وَهُم يَزِنُونَ بهذِهِ الأُصُول الثَّلاثَةِ جَميعَ مَا عَليهِ النَّاسُ مِنْ أقْوالٍ وَأعمَالٍ بَاطِنَةٍ أوْ ظَاهِرةٍ ممَّا لهُ تَعلُّقٌ بالدِّينِ. والإجماعُ الَّذي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَليهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ إذْ بَعدَهُم كَثُرَ الاخْتِلافُ وانْتَشَرَ فِي الأُمَّةِ.

الشرح:

لما ذكرَ الشيخُ طريقةَ أهلِ السُّنَّةِ في مسائلِ العقيدةِ ذكرَ في هذا

---

(١) رواه أحمد (١٧١٤١) وأبو داود (٤٦٠٧) وابن ماجه (٤٣).

....

الفصلِ والذي بعدَهُ طريقتَهم في عمومِ الدينِ أصولِهِ وفروعِهِ وأوصافهم التي تميزوا بها عن أهل البدعِ والمُخالفاتِ، فمن صفاتِهم:

١ - (اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَاطِناً وظَاهِراً) أي: سُلوكُ طريقِهِ والسيرُ على منهاجِهِ (بَاطِناً وظَاهِراً) بخلافِ المُنافقينَ الذينَ يَتبعونَهُ في الظَّاهرِ دُونَ الباطنِ، وآثارُ الرسولِ ﷺ: سنتُهُ، وهي ما رُويَ عنه وأثِرَ عنه من قولٍ أو فعلٍ أو تَقريرٍ. لا آثاره الحسية كمواضعِ جلوسِهِ ونومِهِ ونحوِ ذلك؛ لأنَّ تتبعَ ذلكَ سببٌ للوقوعِ في الشركِ، كما حَصلَ في الأممِ السابقةِ.

٢- ومن صفاتِ أهلِ السُّنَّةِ (اتِّباعُ سَبيلِ السَّابقينَ الأوَّلينَ مِنَ المُهَاجرينَ وَالأنْصَارِ) لما خصَّهُمُ اللهُ بِهِ منَ العِلمِ والفقهِ، فقدْ شَاهدوا التَّنزيلَ، وسَمِعوا التأويلَ، وتَلقَّوا عن الرَّسولِ ﷺ بدونِ وَاسطةٍ، فهم أقربُ إلى الصوابِ، وأحقُّ بالاتباعِ بعدَ الرسولِ ﷺ. فاتباعُهُم يأتي بالدرجةِ الثانيةِ بعدَ الرسولِ ﷺ.

فأقوالُ الصحابةِ حجةٌ يجبُ اتباعُها إذا لم يوجدْ نصٌّ عن النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ طريقَهم أسلمُ وأعلمُ وأحكمُ، لا كما يَقولُ بعضُ المتأخرين: إنَّ طريقةَ السَّلفِ أسلمُ، وطريقةَ الخلفِ أعلمُ وأحكمُ، فيتبعونَ طريقةَ الخلفِ، ويتركونَ طريقةَ السلفِ.

٣- ومن صفاتِ أهلِ السُّنَّةِ (اتِّبَاعُ وصيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيثُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِن بَعدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا

....

وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ) رواهُ الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ والترمذيُّ وابنُ ماجهَ وقالَ الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ»[1].

وغرضُ الشيخِ أنْ يبينَ أنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ يتبعون طريقةَ الخلفاءِ الراشدينَ على الخصوصِ بعد اتباعِهم لطريقةِ السابقينَ الأولينَ من المُهاجرينَ والأنصارِ على وجهِ العُمومِ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أوصى باتباعِ طريقةِ الخلفاءِ الراشدينَ وصيةً خاصةً في هذا الحديثِ، ففيهِ قَرَنَ سُنةَ الخلفاءِ الراشدينَ بسنتِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ، فدلَّ على أنَّ ما سنَّهُ الخلفاءُ الراشدونَ أو أحدُهم لا يجوزُ العدولُ عنهُ.

(والْخُلَفَاء الرَّاشِدونَ) هُم: الخلفاءُ الأربعةُ: أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ ووصفوا بالراشدينَ؛ لأنهم عرفوا الحقَّ واتبعوهُ، فالراشدُ: وهو مَنْ عَرفَ الحقَّ وعملَ به، وضِدُّهُ الغاوي: وهو من عرفَ الحقَّ ولم يعملْ بهِ.

وقولُهُ: «الْمَهْدِيِّينَ» أي: الذينَ هداهمُ اللهُ إلى الحقِّ «تَمَسَّكُوا بِهَا» أي: الزموها «وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» كنايةٌ عن شدةِ التمسكِ بها، والنَّواجذُ: آخرُ الأضراسِ. و«وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ» هي البدعُ « فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»، والبدعةُ: لغةً: ما ليسَ له مثالٌ سابقٌ. وشرعاً: ما لم يَدُلَّ عليهِ دليلٌ شرعيٌّ. فكُلُّ مَن أحدثَ شيئاً ونسَبهُ إلى الدِّينِ ولمْ يكنْ له دليلٌ فهو بدعةٌ

(١) رواه أحمد (١٧١٤١) وأبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٣).

....

وضلالةٌ، سواءٌ في العقيدةِ أو في الأقوالِ أو الأفعال.

٤- ومن صفاتِ أهلِ السُّنَّةِ، أنهم يعظمونَ كتابَ اللهِ وسنةَ رسولِهِ، ويُجلُّونهما، ويُقدِّمونَهما في الاستدلالِ بهما والاقتداء بهما على أقوالِ النَّاسِ وأعمالِهم؛ لأنَّهم: (يَعلَمُونَ أنَّ أصْدَقَ الكَلامِ كَلامُ اللهِ)، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ [النِّسَاء: ١٢٢]، و﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً﴾ [النِّسَاء: ٨٧]، ويعلمونَ: (أن خَيرَ الهدي هَدي مُحمَّدٍ) الهَديُ: بفتحِ الهاءِ وسكونِ الدال: السَّمتُ والطريقةُ والسيرةُ، وقرِئَ بضمِّ الهاءِ وفتحِ الدالِ -الهُدَى- أي: الدلالةُ والإرشادُ.

(ويُؤثِرُونَ كَلامَ اللهِ عَلى غَيرِهِ مِنْ كَلامِ أصْنافِ النَّاسِ) أي: يقدمونه ويأخذونَ به ويتركونَ ما عارضَهُ من كلامِ الخلقِ أياً كانوا، رؤساءَ أو علماءَ أو عباداً (ويُقَدِّمونَ هَدي مُحَمَّد ﷺ) أي: سنَّته وسيرتَه وتعليمَهُ وإرشادَهُ (عَلى هَدي كُلِّ أحدٍ) من الخَلقِ مهما عَظُمتْ مكانتُهُ إذا كانَ هديُهُ يُعارضُ هَديَ رَسول اللهِ ﷺ؛ وذلكَ عملاً بقولِهِ تَعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النِّسَاء: ٥٩].

وقولُهُ: (وَلِهذَا سَمُّوا أهْلَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ) أي: لأجلِ تمسُّكهم بكتابِ اللهِ وإيثارِهم لكلامِهِ على كلامِ كُلِّ أحدٍ، وتمسُّكِهم بهدي رَسولِ اللهِ وتقديمِهِ على هَدي كلِّ أحدٍ -سُمُّوا أهلَ الكتابِ والسُّنَّةِ، لأجلِ ذلكَ لقِّبوا

....

بهذا اللقبِ الشريفِ الذي يفيدُ اختصاصَهم بهما دونَ غيرهم ممَّنْ حادَ عن الكتابِ والسُّنَّةِ من فِرقِ أهلِ الضلالِ؛ كالمعتزلةِ والخوارجِ والروافضِ ومَنْ وافقهم في أقوالِهم أو في بعْضِها.

وقولُهُ: (وسموا أهل الجماعة) أي: كما سُمُّوا أهلَ الكتابِ والسُّنَّةِ سُمُّوا (أهل الجماعة) والجماعةُ: ضِدُّ الفرقةِ؛ لأنَّ التمسكَ بالكتابِ والسُّنَّةِ يُفيدُ الاجتماع والائتلافَ قالَ تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فالجماعةُ هنا: هُمُ المجتمعونَ على الحقِّ.

٥- فمِنْ صفاتِ أهلِ السُّنةِ الاجتماعُ على الأخذِ بالكتابِ والسُّنَّةِ والاتفاقُ على الحقِّ، والتعاونُ على البرِّ والتقوى، وقد أثمرَ هذا وجودَ الإجماعِ، (والإجماعُ هو الأصلُ الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين) وقد عرَّفَ الأصوليونَ الإجماعَ بأنه: اتفاقُ علماءِ العصرِ على أمرٍ دينيٍّ، وهو حجةٌ قاطعةٌ يجبُ العملُ بهِ.

وقولُهُ: (وهو الأصلُ الثالث) أي: بعدَ الأصلينِ الأولينِ وهما الكتابُ والسُّنَّةُ.

٦- من صفاتِ أهلِ السنةِ أنهم (يزنونَ بهذه الأصولِ الثلاثةِ) الكتابِ والسُّنةِ والإجماعِ (جميعَ ما عليه النَّاس من أقوالٍ وأعمالٍ باطنةٍ أو ظاهرة مما له تعلق بالدين) فهم يجعلونَ هذهِ الأصولَ الثلاثةَ ميزاناً لبيانِ الحقِّ من

....

الباطِلِ، والهَدى من الضلالِ فيما يصدرُ من النَّاسِ مِن تصرفاتٍ قوليةٍ أو فعليةٍ اعتقاديةٍ أو عمليةٍ (مما له تعلق بالدين) من أعمالِ النَّاسِ؛ كالصلاةِ والصيامِ والحجِّ والزكاةِ والمعاملاتِ وغيرها، أما ما ليسَ له تعلقٌ بالدينِ من الأمور العاديةِ والأمورِ الدنيويةِ فالأصلُ فيهِ الإباحةُ.

ثم بينَ الشيخُ رحمهُ اللهُ حقيقةَ الإجماعِ الذي يُجعَلُ أصلاً في الاستدلالِ فقال: (والإجماع الذي ينضبط) أي: يُجزَمُ بحصولِهِ ووقوعِهِ: (هو ما كان عليه السلف الصالح) لمَّا كانوا قليلينَ مجتمعينَ في الحجازِ يُمكِنُ ضبَطُهُم ومعرفةُ رأيهم في القضيةِ (وبعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة) أي: بعدَ السلفِ الصالحِ صارَ الإجماعُ لا ينضبطُ لأمرينِ:

أولاً: كثرةُ الاختلافِ بحيثُ لا يمكنُ الإحاطةُ بأقوالِهم.

ثانياً: انتشار الأمةِ في أقطارِ الأرضِ بعدَ الفتوح بحيثُ لا يمكنُ عادةً بلوغُ الحادثةِ لكلِّ واحدٍ منهم ووقوفه عليها. ثم لا يمكنُ الجزمُ بأنَّهم أطبقوا على قولٍ واحدٍ فيها[1].

تنبيهٌ: إنما اقتصرَ الشيخُ رحمهُ اللهُ على ذكرِ الأصولِ الثلاثةِ، ولم يَذكُرِ الأصلَ الرابعَ: وهو القياسُ؛ لأنَّ القياسَ مختلفٌ فيه، كما اختلفوا في

---

(١) انظر بحثاً لطيفاً في الإجماع في كتاب «معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة» (١٦٢) لمحمد بن حسين الجيزاني، دار ابن الجوزي.

....

أصولٍ أخرى مرجعُها كتبُ الأصولِ[١].

---

(١) انظر «معالم أصول الفقه» للجيزاني (ص١٨٦).

فصل
في بيان مكملات العقيدة من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال التي يتحلى بها أهل السنة

ثُمَّ هُم مَع هَذهِ الأُصُولِ يَـأمُرونَ بـالمَعرُوفِ وينَهـونَ عَـنِ المُنْكَـرِ على مَا تُوجبهُ الشَّريعةُ. ويَرونَ إقَامةَ الحَجِّ وَالجهادِ والجُمَـعِ والأعيـاد مع الأمَراءِ أبراراً كانوا أو فُجَّاراً، ويُحَافِظُونَ عَلى الجَماعَاتِ. ويَدينُونَ بالنَّصيحَةِ للأمَّةِ ويَعتَقِدُونَ مَعنَى قَولِـهِ ﷺ: «الْمُؤْمِـنُ لِلْمُؤْمِـنِ كَالْبُنْيَـانِ المَرصُوصِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَشَبَّكَ بَينَ أصَابعِهِ»، وقَولُـهُ ﷺ: «مَثَـلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَـدِ، إِذَا اشْـتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّـهَرِ». ويَـأمُرونَ بـالصَّبرِ عِندَ البَلاءِ وَالشُّكرِ عِندَ الرَّخاءِ وَالرِّضَا بمُرِّ القَضَاءِ.

الشرح:

هذا الفصلُ كالمتممِ للفصلِ الذي قبلَه، فيهِ بيانٌ لصفاتِ أهـلِ السُّـنَّةِ التي هي من مكملاتِ العقيدةِ، فقولُهُ: (ثم هم) أي: أهلُ السُّـنَّةِ (مـع هـذه الأصول) أي: التي مرَّ ذكرها، أي: مـع قيـامِهم بهـا عِلمـاً وعمـلاً يتحلـونَ بصفاتٍ هي من مكملاتها وثمراتها فهم (يـأمرونَ بـالمَعروفِ وينهـونَ عَـن المُنكرِ) كمَا وصَفهم اللهُ بذلك في قولِهِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَـتْ لِلنَّـاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَـرِ﴾ [آل عمـران: ١١٠]، والمعـروفُ: هو اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحبُّهُ اللهَ مـن الإيمـانِ والعمـلِ الصالحِ. والمنكـرُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يكرهُهُ اللهُ وينهى عنه.

....

(على ما توجبه الشريعة) أي: باليدِ ثم باللسانِ ثم بالقلبِ تبعاً للقدرةِ والمصلحةِ، خلافاً للمعتزلةِ الذينَ يخالفونَ ما توجبُهُ الشريعةُ في هذا، فيرَونَ أنَ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهي عن المُنكر هو الخروجُ على الأئمةِ.

قولُهُ: (ويَرونَ إقَامةَ الحَجِّ وَالجِهادِ والجُمَعِ والأعياد مع الأمَراءِ أبراراً كانوا أو فُجَّاراً) أي: ويعتقدُ أهل السُّنَّةِ وجوبَ إقامةِ هذه الشعائر معَ ولاةِ أمورِ المُسلمينَ (أبراراً كانوا أو فجاراً) أي: سواءٌ كانوا صالحين مستقيمينَ أو فسقًا لا يخرجُهُم عن الملةِ.

وذلكَ لأنَّ غرضَ المُسلمين من ذلكَ هو جمعُ الكلمةِ، والابتعادُ عن الفرقةِ والخِلاَفِ، ولأنَّ الواليَ الفاسقَ لا ينعزلُ بفسقِهِ ولا يجوزُ الخروجُ عليه؛ لما يترتبُ على ذلكَ من ضياعِ الحُقوقِ وإراقةِ الدماء.

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمهُ الله[1]: ولعلَّه لا يكادُ يُعرفُ طائفةٌ خرجتْ على ذي سلطانٍ إلا وكان في خروجِها من الفَسادِ أكثر من الذي في إزالتِه. اهـ.

وأهلُ السُّنَّةِ يخالفونَ في ذلكَ أهلِ البدعِ من الخوارجِ والمعتزلةِ والشيعةِ الذين يَرونَ قتالَ الولاةِ والخروجَ عليهم إذا فعلوا ما هو ظلمٌ أو ظنُّوهُ ظلماً، ويرونَ ذلك من بابِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المُنكرِ.

وقولُهُ: (ويحافظون على الجماعات) أي: ومن صفاتِ أهلِ السُّنَّةِ:

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٣/ ٣٩١).

....

أنهم يحافظونَ على حضورِ صلاةِ الفريضةِ معَ الجماعةِ جمعةِ أو غَيرِها؛ لأنَّ ذلك من أعظمِ شعائرِ الإسلامِ وطاعة لله ورسولِهِ في ذلك، خلافاً للشيعةِ الذينَ لا يَرونَ الصلاةَ إلا مع الإمامِ المعصومِ. وخلافاً للمنافقينَ الذين يتخلفونَ عن صلاةِ الجماعةِ، وقد وردت أحاديثُ في فضلِ صلاةِ الجماعةِ والأمر بها والنَّهيِّ عن تركِها ليس هذا موضع ذِكرها[١].

قولُهُ: (ويدينون بالنَّصيحةِ للأمة) أي: يرونَها من الدينِ. وأصلُ النَّصحِ في اللغةِ: الخلوصُ، وشرعاً: هي إرادةُ الخيرِ للمنصوحِ له وإرشادُهُ إلى مصالِحِه، فأهلُ السُّنَّةِ يريدونَ الخيرَ للأمةِ، ويرشدونَها إلى ما فيهِ صلاحُها.

ومن صفاتِ أهلِ السُّنَّةِ: التعاونُ على الخيرِ، والتألمُ لألمِ المصابينَ منهم، فهم (يعتقدون معنى قوله ﷺ): «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ» رواه البخاري ومسلم[٢]، وقولِهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ»، رواهُ البخاري ومسلمٌ وغيرهما[٣].

---

(١) انظر «أهمية صلاة الجماعة في ضوء النُّصوصِ وسير الصالحين» للدكتور فضل إلهي.

(٢) رواه البخاري برقم (٤٨١) ومسلم برقم (٢٥٨٥).

(٣) رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦).

....

فالحديثان يمثلان ما ينبغي أن يكونَ عليه المسلمونَ من تعاون وتراحمٍ. وأهلُ السنةِ يعملون بمقتضاهما، وقولُهُ: «المؤمن للمؤمن» وقولُهُ: «مثل المؤمنين» المرادُ بالإيمان هنا: الإيمانُ الكاملُ «كالبنيان»، هذا التمثيلُ يُقصدُ منه التقريبُ للفهمِ «يشد بعضه بعضاً» بيانٌ لوجهِ الشبهِ (وشبكَ بينَ أصابعه) تمثيلٌ آخرُ يقصدُ منه التقريبُ للفهمِ. قولُهُ: «كمثل الجسد الواحد» أي: بالنسبة إلى جميعِ أعضائِهِ من حيثُ الشعورُ بالراحةِ أو التَعبِ (تَوادهم) أي: محبةُ بعضِهم لبعضٍ «تعاطفهم» أي: عطفُ بعضِهم على بعضٍ «إذا اشتكى» تألَّمَ «تداعى» شاركَ بعضُهُ البعضَ الآخرَ في الألمِ «سائرِ الجسد» باقيه «بالحمى» ما ينشأُ عن الألمِ من حرارةِ الجسمِ «السهر» عدمِ النَّومِ.

وهذا الحديثُ خبرٌ معناهُ الأمرُ، أي: كما أنه إذا تألَمَ بعضُ جسدِهِ سرى ذلك الألمُ إلى جميعِ جسده، فكذا المؤمنونَ ليكونوا كنفسٍ واحدةٍ إذا أصابَ أحدهُم مصيبةٌ يغتمُّ جَميعهم ويعملونَ على إزالتها، وفي هذا التَّشبيهِ تقريبٌ للفهمِ وإظهارُ المعاني في الصورِ المرئية [١].

ومن صفاتِ أهلِ السُّنةِ: ثباتُهم في مواقفِ الامتحان، (يأمرونَ بالصبر عند البلاء) الصبرُ: لغةً: الحبسُ، ومعناه هنا: حبسُ النَّفسِ عن الجزعِ وحبسُ اللسانِ عن التشكي والتسخط، وحبسُ الجوارحِ عن لطمِ الخدودِ

---

(١) أي إظهار المعاني المعنوية في صور مادية ملموسة لإيضاح المعنى.

....

وشـقّ الجيـوب[١].

(البلاء) الامتحان بالمصائب والشدائد (والشكر عند الرخـاء) الشـكرُ: فعلٌ ينبئُ عن تعظيمِ المُنعم؛ لكونه منعماً، وهو صرفُ العبدِ ما أنعم الله بـه عليه في طاعته (الرخاء) اتساعُ النِّعْمَةِ (والرضا بمـر القضـاء) الرِّضـا: ضـدُّ السخطِ، والقضاء[٢]: لغةً: الحكمُ. وعرفاً: إرادةُ اللهِ المتعلقةِ بالأشياءِ علـى ما هي عليه. ومرُّ القضاءِ: ما يجري على العبدِ مما يكرههُ؛ كالمرضِ والفقرِ وأذى الخلقِ والحرِّ والبردِ والآلامِ.

(١) انظر «عدة الصابرين» لابن القيم الجوزية (ص٣٣) دار ابن الجوزي.
(٢) انظر «القضاء والقدر» للدكتور عمر سليمان الأشقر (ص٢٧).

ويَدْعُونَ إلى مَكارِمِ الأخْلاقِ ومَحاسِنِ الأعمَال ويعتَقِدونَ مَعنَى قَوله ﷺ: «أكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا» ويَندُبونَ إلى أنْ تَصِلَ مَن قَطَعَكَ، وتُعطي مَنْ حَرَمَكَ، وتَعفُوَ عمَّنْ ظَلَمَكَ، ويأمرُونَ بِبرِّ الوَالِدينِ، وَصِلةِ الأرْحَامِ، وحُسْنِ الجوار، وَالإحْسَانِ إلى اليَتَامى والمَسَاكينِ وَابنِ السَّبيلِ، والرِّفقِ بالمَمْلُوكِ، وَيَنْهَونَ عَنِ الفَخْرِ، وَالخَيلاءِ، وَالبَغي، والاستِطَالةِ عَلى الخَلْقِ بحقٍّ أوْ بغَير حَقٍّ، ويَأمُرونَ بمَعَالي الأخْلاقِ، ويَنْهَونَ عَن سَفْسَافِها. وكُلُّ مَا يَقُولونَهُ وَيَفعَلُونَهُ مِن هَذا وَغيْرِه فإنَّما هُم فِيهِ مُتَّبِعُونَ للكِتَابِ والسُّنَّةِ.

الشرح:

يهتمُ أهلُ السُّنةِ بالأخلاقِ فيتحلونَ بالأخلاقِ الفاضلةِ، ويُرغّبونَ فيها غيرهم فهم (يدعون إلى مكارم الأخلاق) أي: أحسَنها. و(الأخلاق): جمع خُلُق، بضم الخاء واللامِ، وهو الصورةُ الباطنةُ، والخَلق بفتح الخاء واللام هو الصورةُ الظاهرةُ، وهو الدينُ والسجيةُ والطبعُ، ويدعونَ إلى (محاسن الأعمال) كالكرمِ والشجاعةِ والصدقِ والأمانةِ (ويعتقدونَ معنى قوله ﷺ) أي: يؤمنونَ به ويعملون بمقتضاهُ «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» رواه أحمد والترمذي[1]، وقالَ: حسنٌ صحيحٌ. وقولُهُ: «أحسنهم خلقاً» أي: ألينُهُم وألطفُهم وأجملُهُم.

ففي الحديثِ الحثُّ على التَّخلُّقِ بأحسنِ الأخلاقِ، وفيه أنَّ الأعمالَ

---

(١) رواه أحمد (٧٣٣٥) والترمذي (١١٦٢).

....

تدخلُ في مسمَّى الإيمانِ، وأنَّ الإيمانَ يتفاضلُ. وأهلُ السُّنةِ يدعونَ إلى التعاملِ مع النَّاسِ بالتي هي أحسنُ وإلى إيتاءِ ذوي الحقوقِ حقوقَهم ويحذرونَ من أضدادِ تلكَ الأخلاقِ من الكبرِ والتعدِّي على النَّاسِ، فهم (يندبون) أي: يدعونَ (إلى أن تصل من قطعك) أي: تحسن إلى مَنْ أساءَ إليك (وتعطي من حرمك) أي: تبذلُ العطاءَ وهو التبرعُ والهديةُ ونحوها لمن منعَ ذلك عنك؛ لأنَّ ذلك من الإحسانِ (وتعفو عمن ظلمك) أي: تسامِح من تَعَدَّى عليكَ في مالٍ أو دمٍ أو عرضٍ؛ لأن ذلك مما يجلبُ المودةَ ويكسِبُ الأجرَ والثوابَ.

(ويأمرون) أي: أهل السنةِ بما أمرَ اللهُ به من إعطاءِ ذوي الحقوقِ حقوقهم (ببر الوالدين) أي: طاعتِهما في غيرِ معصيةٍ والإحسانِ إليهما بالقولِ والفعلِ. (وصلة الأرحام) أي: الإحسانُ إلى الأقربينَ، والأرحامُ: جمع رحمٍ وهو من تجمعك به قرابةٌ (وحسن الجوار) أي: الإحسان إلى من يسكنُ بجوارِك ببذلِ المعروفِ وكفِّ الأذى (والإحسان إلى اليتامى) جمع يتيم، وهو لغةً: المنفردُ، وشرعاً: من ماتَ أبوه قبلَ بلوغِهِ، والإحسانُ إليهم هو برعايةِ أحوالِهم وأموالِهم والشفقةِ عليهم (والمساكين) أي: والإحسان إلى المساكين: مع مسكين، وهو المحتاجُ الذي أسكنتهُ الحاجةُ والفقرُ، والإحسانُ إليهم يكونُ بالتصدقِ عليهم والرفقِ بهم (وابن السبيلِ) أي: والإحسان إلى ابنِ السبيلِ، وهو: المسافرُ المنقطعُ به الذي نفدت نفقتُهُ أو ضاعتْ أو سُرقتْ، وقيل: هو الضيفُ. (والرفقُ بالمملوك) أي:

....

ويأمرونَ بالرفقِ بالمملوكِ، وهو الرقيقُ، ويدخلُ فيه المملوكُ من البهائمِ، والرِّفقُ: ضدُّ العنفِ، وهو لينُ الجانبِ.

(وينهونَ عن الفخر) وهو المباهاةُ بالمكارمِ والمناقبِ من حسبٍ ونسبٍ (والخُيلاء) بضمِّ الخاء: الكِبر والعُجب (والبغي) وهو: العدوانُ على النَّاسِ (والاستطالة على الخلق) أي: الترفعُ عليهم واحتقارُهم والوقيعةُ فيهم (بحق وبغير حق)، لأنَّ المستطيلَ إن استطالَ بحقٍّ فقد افتخرَ وإن استطالَ بغيرِ حقٍّ فقد بغى، ولا يحلُّ لا هذا ولا هذا. (ويأمرونَ بمعالي الأخلاق) أي: يأمرُ أهلُ السنةِ بالأخلاقِ العاليةِ، وهي الأخلاقُ الحسنةُ (وينهون عن سفسافها) أي: رديئها وحقيرها، والسَّفسافُ: الأمرُ الحقيرُ والرديءُ من كلِّ شيءٍ، وهو ضدُّ المعالي والمكارمِ، وأصلُه ما يطيرُ من غبارِ الدقيق إذا نخلَ والتُّرابِ إذا أثيرَ.

(وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة) أي: كل ما يقولُهُ ويفعلهُ أهلُ السُّنةِ ويأمرونَ به وينهونَ عنه مما تقدمَ ذكره في هذه الرسالةِ وما لم يُذكر، فقد استفادوه من كتابِ ربِّهم وسنةِ نبيِّهم، لم يبتدعوهُ من عندِ أنفسِهم ولم يقلدوا فيه غيرَهم، فقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَاعْبُدُواْ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ [النِّساء: ٣٦]. والأحاديثُ في هذا كثيرةٌ، منها ما ذكرهُ الشيخُ.

وطَريقتُهم هي دِينُ الإسْلامِ الَّذي بَعثَ اللهُ بِـهِ مُحمَّـداً ﷺ. لَكـنْ لمَّا أخبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ أمَّتَه ستَفترِقُ عَلى ثَلاثٍ وسَبعِينَ فِرقَـةً كُلُّهـا فـي النَّارِ إلاَّ واحِدةً وَهي الجَماعةُ. وفي حَديثٍ عَنهُ أنَّهُ قَال: «هُمْ مَـنْ كَـانَ عَلى مِثْلِ مَا أنَـا عَليْـهِ اليَـومَ وَأصْحَـابي» صَـارَ المُتَمَسِّكُونَ بالإسْلامِ المَحْضِ الخَالِصِ عَـنْ الشَّـوبِ، هُـمْ أهـلُ السُّـنَّةِ والجَمَاعـةِ. وفِيهـم الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهداءُ، وَالصَّالِحُونَ، ومِنهُـم أعْـلامُ الهُـدى، ومَصـابيحُ الدُّجَى، أُولو المَنَاقِب المَأثورَةِ، والفَضَائلِ المَذكـورَةِ، وفيهـم الأبْـدالُ، وفِيهم أئِمةُ الدِّينِ، الَّذينَ أجْمَعَ المُسْلمُونَ عَلى هِدَايَتِهم، وهُـم الطَّائِفـةُ المَنصُورةُ الَّذينَ قَالَ فِيهمْ النَّبـيُّ ﷺ: «لاَ تَـزَالُ طَائِفَـةٌ مِـنْ أُمَّتِـي عَلَـى الْحَقِّ مَنْصُورَة؛ لاَ يَضُرُّهُمْ مَـنْ خَـالَفَهُمْ وَلاَ مَـنْ خَذَلَهُـم، حَتَّـى تَقُـومُ السَّاعَةُ».

فنسألُ اللهَ أنْ يَجعَلَنا مِنْهم وأنْ لا يُزيغَ قُلوبَنـا بعـدَ إذْ هَدَانـا، وأنْ يَهَبَ لنَا مِنْ لَدُنهُ رَحمَةً إنَّـهُ هُو الوهَّابُ.

وصَلَّى اللهُ عَلى مُحمَّدٍ وَآلِهِ وصَحبهِ وسَلَّمَ تَسْليماً كَثيراً.

الشرح:

يواصلُ الشيخُ رحمهُ اللهُ بيانَ مزايا أهلِ السُّـنةِ والجماعةِ فبيَّنَ مزيَّتهم العُظمى وهي: أن (طريقتهم دين الإسلام) أي: هو مذهبُهم وطريقُهــم إلـى اللهِ، وأنهم عندَ الافتراقِ الذي أخبرَ النَّبيُّ ﷺ عن حدوثِـهِ فـي هـذه الأُمـةِ ثبتـوا على الإسـلامِ، وصاروا همُ الفرقةُ النَّاجيـةُ من بينِ تلكَ الفـرقِ، وهمُ

....

الجماعةُ الثابتــةُ على ما كـانَ عليـهِ النَّبـيُّ ﷺ وأصحابُـهُ، وهـو الإسـلامُ المحضُ الخالصُ من الشوائِبِ؛ لذلكَ فازوا بلقبِ أهلِ السُّـنةِ والجماعـةِ، وصار فيهم (الصديقـون) المبـالغونَ فـي الصـدقِ والتصديـقِ (والشـهداء) القتلى في سبيلِ اللهِ (والصالحون) أهلُ الأعمالِ الصالحـةِ (وفيهـم أعـلام الهدى...) إلخ أي:

وفي أهلِ السنةِ العلماءُ الأعلامُ المتصفونَ بكُـلِّ وصـفٍ حَميـدٍ عِلمـاً وعملاً (وفيهم الأبدال) وهم: الأولياءُ والعبّادُ، سُـمُّوا بذلـكَ، قيـل: لأنهـم كُلَّما ماتَ منهم أحدٌ أُبـدِلَ بـآخرَ، وفـي روايـةٍ عـن أحمـدَ أنهـم أصحـابُ الحديثِ[1]: (وفيهم أئمة الدين) أي: في أهلِ السنةِ العلماءُ المُقتـدى بهـم، كالأئمةِ الأربعةِ وغيرهـم (وهم الطائفــةُ المنصـورة) أي: وأهـلُ السـنةِ هـم الطائفةُ المذكورةُ في الحديثِ: «لا تزال طائفة في أمتي...» الحديــثَ. رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ[2].

ثم ختمَ الشيخُ رسالتَهُ المباركةَ بالدعاءِ والصَّلاةِ والسَّـلامِ علـى النَّبـيِّ ﷺ، وهو خيرُ ختامٍ.

والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ على نبيِّنا محمدٍ، وعلـى آلهِ وصحبِهِ وسلَّمَ.

---

(١) قال الإمام أحمد بن حنبل: (إن لم يكونوا -أي الطائفة المنصورة- أهـل الحديـث فلا أدري من هم) انظر «فتح الباري» (١/ ٢١٦).

(٢) رواه البخاري برقم (٧١) ومسلم برقم (١٠٣٧).

المحتويات